سلوان السلفي
عند كيد الخلفي

(فصول في الصبر على الابتلاء، ونماذج من محن الأئمة وصبرهم على السنة)

تأليف

د/ خالد بن ضحوي الظفيري

تقديم

فضيلة الشيخ العلامة الدكتور

ربيع بن هادي عمير المدخلي

عضو هيئة التدريس ورئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقاً

دار الميراث النبوي

للنشر والتوزيع

سُلْوانُ السَّلَفِيِّ

عِنْدَ كَيْدِ الخَلَفِيِّ

(فُصُولٌ في الصَّبْرِ عَلَى الابْتِلاءِ، ونَماذِجُ مِنْ مِحَنِ الأَئِمَّةِ وصَبْرِهِمْ عَلَى السُّنَّةِ)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

1440هـ - 2019م

الطبعة الأولى

اسم الناشر: دار الميراث النبوي للنشر والتوزيع

ISBN: 978-9947-48-075-5

الإيداع القانوني : 2014-2439

المملكة العربية السعودية

مكتبة دار النصيحة

المدينة النبوية – حي الفيصلية- أمام الباب الجنوبي للجامعة الإسلامية

ت : 00966595982046

بريطانيا وأوروبا:

دار مكة العالمية

Dar Makkah international

Birmingham B10 0QJ/parliament street 25 -23

Tel. 00441217666888

Mobile. 07533177345

دار الميراث النبوي للنشر والتوزيع

الصنوبر البحري - المحمدية - الجزائر العاصمة

الإدارة: 554250098 (00213) المبيعات: 550471594(00213)

البريد الإلكتروني: dar.mirath@gmail.com

@mirathennabawi

سلوان السلفي

عند كيد الخلفي

(فصول في الصبر على الابتلاء، ونماذج من محن الأئمة وصبرهم على السنة)

تأليف

د/ خالد بن ضحوي الظفيري

تقديم

فضيلة الشيخ العلامة الدكتور

ربيع بن هادي عمير المدخلي

عضو هيئة التدريس ورئيس قسم السنة
بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

دار الميراث النبوي
للنشر والتوزيع

تقديم الشيخ العلامة ربيع بن هادي عمير المدخلي

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فقد اطَّلعتُ عَلَىٰ فُصُول جيِّدةٍ وشيِّقَةٍ تحت عُنوان: «سُلوان السَّلَفِي عند كَيدِ الخَلَفي»، كتبها الدكتور خالد بن ضحوي الظفيري -حفظه الله وسدَّدَ خُطاه- حول الفِتَن الَّتِي سَتَصُبُّ عَلَىٰ خِيَار هذه الأمَّة وأئمتهم النبلاء، أجاد فيها -سدد الله خطاه- وأفاد.

ناقلًا ذلك عن أئمة كبار، فعلَّق علىٰ هذه النُّقول بتعليقات رائعة.

وقد ضمَّن هذه النقول فصلًا خاصًّا عن محنة عدد من كبار الأئمة، مثل محنة الإمام مالك بن أنس، ومحنة الإمام الشافعي، ومحنة الإمام أحمد بن حنبل، والإمام محمد بن نوح، والإمام أبي مسهر، ومحنة الإمام أبي نعيم، وعدد آخر من الأئمة الذين امتُحنوا في فتنة القول بخلق القرآن، تلك الفتنة التي حمل لواءها الجهمية شرُّ أهل البدع والضلال، وصمد فيها الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ صمود الجبال.

وختم هذه المحن بمحنة العلامة محمد عبد الظاهر أبو السمح.

فجزىٰ الله الدكتور خالدًا خير الجزاء علىٰ ما قدَّم في هذا البحث الشيِّق.

أسأل الله أن ينير به قلوب الكثير من المسلمين.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

كتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

٢٠/شوال/١٤٣٩هـ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[3].

فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور

---

(١) [آل عمران:١٠٢].

(٢) [النساء: ١].

(٣) [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار.

أمَّا بعد:

فلقد خلق الله تعالىٰ الخلق لعبادته، وسخَّر لهم ما في السموات وما في الأرض؛ ليتوجَّهوا إليه بإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[1]، ولكن العبد في طريقه إلىٰ الله تعالىٰ تَحُفُّه الشُّبهات والشهوات، فإمَّا أن يقابلها بالصبر فيسلم عند هيجان الشهوات، وباليقين فيثبت عند ثوران الشبهات، فيكون من الصابرين الفائزين الثابتين، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[2].

فأمَّا فتنة الشبهات فقد جاء عنه ﷺ من غير وجه: أن أمَّته ستفترق علىٰ أزيدَ من سبعين فرقة، وأن جميع تلك الفرق في النَّار إلَّا واحدة، وهي من كان علىٰ ما هو عليه وأصحابُه -صلىٰ الله عليه وسلم ورضي الله عنهم-.

وأمَّا فتنةُ الشهوات؛ ففي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا فُتِحَت عَلَيكُم فَارسُ وَالرُّومُ أَيُّ قَومٍ أَنتُم؟**». قَالَ عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ عَوفٍ رضي الله عنه: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَو غَيرَ ذَلِكَ تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، أَو نَحوَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ**

---

(١) [الملك: ٢].

(٢) [السجدة: ٢٤].

المُهَاجِرِينَ فَتَجعَلُونَ بَعضَهُم عَلَىٰ رِقَابِ بَعضٍ»[١].

وعن المِسورِ بن مخرَمَةَ أنَّهُ أخبره: أنَّ عمرَو بن عوفٍ الأنصَارِيَّ -وهو حلِيفٌ لِبنِي عامِرِ بن لُؤيٍّ وكان شهِدَ بدرًا- أخبره: أنَّ رسُولَ الله ﷺ بعَثَ أبَا عُبيدَةَ بن الجرَّاحِ إلىٰ البحرَينِ يأتِي بِجزيتِهَا، وكان رسول الله ﷺ هو صالَحَ أهلَ البحرَينِ، وأَمَّرَ عليهم العلَاءَ بن الحضرَمِيِّ، فقَدِمَ أبو عُبيدَةَ بِمالٍ من البحرَينِ، فسَمِعَت الأنصَارُ بِقدُومِ أبي عُبيدَةَ فوَافَت صلَاةَ الصُّبحِ مع النبي ﷺ، فلما صلىٰ بهِم الفجرَ انصرَفَ، فتَعَرَّضُوا له فتَبَسَّمَ رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال: «**أظُنُّكُم قد سمِعتُم أنَّ أبَا عُبيدَةَ قد جاء بِشيءٍ**»، قالوا: أجَل يا رسُولَ اللهِ. قال: «**فأَبشِرُوا، وأَمِّلُوا ما يسُرُّكُم، فوَاللهِ لا الفقرَ أخشَىٰ علَيكُم، ولَكِن أخشَىٰ علَيكُم أن تُبسطَ علَيكُم الدُّنيا، كما بُسِطت علىٰ من كان قبلَكُم، فتَنَافَسُوهَا كما تنَافَسُوهَا، وتُهلِكَكُم كما أهلَكَتهُم**»[٢].

وكلَّما طال العهد وبعُد عن زمن النبوَّة والرسالة كثرت الفتن، وانتشرت المحن، فأصبح المتمسِّك بدينه يعيش وحيدًا وإن كان بين أناس كثير، ولكنَّها غربة الدِّين والسُّنَّة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنقُصُ العِلمُ، وَيَبقَىٰ الشُّحُّ، وَتَظهَرُ الفِتَنُ، وَيَكثُرُ الهرجُ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّمَا هُوَ؟ قَالَ: «**القَتلُ القَتلُ**»[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٧٩١)، ومسلم (٢٩٦١).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٦٥٢)، ومسلم (١٥٧).

وعن عديٍّ ﷺ قال: أَتينَا أَنَسَ بنَ مَالِكٍ ﷺ فَشَكَونَا إِلَيهِ مَا نَلقَىٰ مِنَ الحَجَّاج، فَقَالَ: «**اصبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأتِي عَلَيكُم زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعدَهُ شَرٌّ مِنهُ حَتَّىٰ تَلقَوا رَبَّكُم**»، سَمِعتُ هَذَا مِن نَبِيِّكُم ﷺ[(١)].

وأخبر -عليه الصلاة والسلام- أن العبد كلَّما قلَّ انغماسُه في الفتن، وكثُر بعدُه عنها؛ سَلِمَ منها ومن بلائها، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ خَيرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيرٌ مِنَ السَّاعِي، مَن تَشَرَّفَ لَهَا تَستَشرِفهُ، فَمَن وَجَدَ مَلجَأً أَو مَعَاذًا فَليَعُذ بِهِ**»[(٢)].

وبسبب كثرة هذه الفتن وصف الله تعالىٰ أهل الطاعة والإيمان، والصابرين علىٰ سنَّة سيِّد الأنام، بأنَّهم قليلٌ وغرباءُ في مقابل أهل الضلال الَّذين هم كثيرون وغثاء. قال تعالىٰ: ﴿**وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ**﴾[(٣)]، ﴿**وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ**﴾[(٤)].

والأحاديث في وصف أهل الإيمان والسُّنَّة بالقلَّة والغُربة كثيرة، تدعو العبد إلىٰ أن يصبر علىٰ الحقِّ والإسلام، ويثبت علىٰ السُّنَّة وسبيل السَّلَف الصَّالح، حتَّىٰ

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٦٥٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٦٧١)، ومسلم (٢٨٨٦).

(٣) [الأنعام: ١١٦].

(٤) [يوسف: ١٠٣].

ينال أعظم الأجور، ويبلغ أرفع المنازل، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**بَدَأَ الإسلَامُ غَريبًا، وسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَريبًا، فَطُوبَىٰ لِلغُرَبَاءِ**»(١).

وعن سهل بن سعد الساعديِّ ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ الإسلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَريبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَىٰ لِلغُرَبَاءِ**»، قِيلَ: مَن هُم يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الَّذِينَ يَصلُحُونَ إذَا فَسَدَ النَّاسُ**»(٢)، وفي رواية: قِيلَ: وَمَنِ الغُرَبَاءِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَاسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي نَاسِ سُوءٍ كَثير، وَمَن يَعصِيهم أَكثَرُ مِمَّن يُطِيعُهُم**»(٣).

ولكن الصابر علىٰ الإيمان والسُّنَّة وإن كانوا في غربة ووحشة مع أهل زمانهم، إلا أنَّهم في أشدَّ الرَّاحة والطُّمأنينة في دينهم وقلوبهم وإيمانهم؛ لعلمهم يقينًا بأن هذه الدُّنيا الدنيَّة، الوَحْشَةُ فيها في الابتعاد عن الله تعالىٰ، والأنس الأعظم في القُرب من المولىٰ ﷻ وفي ذكره وعبادته، ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ** ﴾(٤).

قال الإمام ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أهلُ الإسلام في النَّاس غُربَاء، والمُؤمنون في أهل الإسلام غُربَاء، وأهلُ العِلم في المؤمنين غُربَاء، وأهلُ السُّنَّة الَّذين يُميِّزونها من الأهواء والبدع هم غُرباء، والدَّاعون إليها الصَّابرون علىٰ أذىٰ

---

(١) رواه مسلم (١٤٥).

(٢) رواه الطبرانيُّ في «الأوسط» (٣/ ٢٥٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» برقم (١٢٧٣).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٢٢).

(٤) [الرعد: ٢٨].

المُخَالفين هم أشدُّ هؤلاء غربةً، ولكنَّ هؤلاء هم أهلُ الله حقًّا، فلا غُربة عليهم، وإنَّما غربتهم بين الأكثرين الَّذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١]، فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله، وغربتُهم هي الغربة الموحشة»[٢].

وقال ابنُ الحنبليِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم -يا أُخَيَّ-: أنَّ من أراد طُوبَىٰ صَبَرَ علىٰ الغُربة، ولم يَستوحش الوحدة»[٣].

وإنَّ أعظم السَّلامة هي سَلامةُ الدِّين من الشُّبهات والشَّهوات، فعلىٰ العبد أن يجاهد نفسه في الصَّبر علىٰ الدِّين، والثبات علىٰ السُّنَّة، فالتمسك بهما سبيل النجاة، وطريق السعادة في الدنيا والآخرة.

قال الشيخ حَافظ حكميٌّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فاثبُت أيُّها العبدُ المُريدُ نجاةَ نفسه من النَّار، والفوز بالجنَّة، علىٰ هذا الصراط المستقيم، النيِّر الواضح الجليِّ، ولا تستوحش من قلَّة السالكين، وإيَّاك أن تنحرف عنه فتهلك مع الهالكين»[٤].

والنَّاظر في أحوالنا وأهل زماننا يجد فيها أهل السُّنَّة والطاعة في غربة جليَّة، وأهل الضلال والانحراف علىٰ أصنافهم قد ملئوا القنوات والمكتبات بضلالهم وانحرافهم وفتنهم الكثيرة، الَّتي يجب علينا الحذر والتحذير منها، بل قد انقلبت

---

(١) [الأنعام: ١١٦].

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٩٥-١٩٦).

(٣) «الرسالة الواضحة» (٢/ ٣٧٦).

(٤) «معارج القبول» (٢/ ٦٢٠).

كثيرٌ من المفاهيم، وتغيَّرت العادات والأعراف، وأصبحت السُّنَّة بدعةً والبدعةُ سنَّةً، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُم مَا لَم تَسمَعُوا أَنتُم وَلَا آبَاؤُكُم؛ فَإِيَّاكُم وَإِيَّاهُم**»(١).

ويقول سهل بنُ عبد الله التستريُّ رحمه الله: «عليكم بالأثر والسُّنَّة؛ فإنِّي أخاف أن يأتي عن قليل زمانٌ إذا ذكر إنسانٌ النَّبيَّ ﷺ والاقتداءَ به في جميع أحواله، ذمُّوه ونفروا عنه وتبرَّءوا منه وأذلُّوه وأهانوه»(٢).

يقول العلَّامة سليمان بنُ عبد الله ابن الإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهاب -رحمهم الله جميعًا- معلِّقًا علىٰ هذا الأثر: «رحمَ اللهُ سهلًا، ما أصدقَ فراستَه! فلقد كان ذلك وأعظم، وهو أن يكفر الإنسان بتجريد التوحيد والمتابعة والأمر بإخلاص العبادة لله عز وجل، وترك عبادة ما سواه!»(٣).

إنَّ من الفتن وانقلاب الموازين الَّتي نعيشها ونشاهدها حتىٰ أصبحنا في غربة، أنصار اتِّباعُ الكتاب والسُّنَّة والاقتداء بهدي السَّلف الصالح، رجعيَّةً وتخلُّفًا، وأصبح السَّير علىٰ طرائق العلمانيَّة واللِّيبراليَّة هو التقدُّم والتطوُّر.

وأصبح التَّحذير من البدع وأهل الأهواء عند أهل التحزُّب شدَّةً وغلُوًّا وتكفيرًا، وأصبح عندهم الدعوة إلىٰ البدع وذكر مدائحهم وعدم التحذير منهم إنصافًا وعدلًا.

---

(١) رواه مسلم (٦).

(٢) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص:٤٧).

(٣) «تيسير العزيز الحميد» (ص:٤٧).

وأصبح التَّحذير من دعاة الإلحاد وطرائقهم وكفريَّاتهم مخالفًا للحرِّيَّة، والدعوة إلىٰ الكفر والسحر والشعوذة هو الحرِّية المطلوبة.

وأصبحت الدَّعوة إلىٰ الأخلاق الفاضلة واللِّباس الشرعيِّ، ودعوة المرأة إلىٰ عفافها وحجابها ونقابها تخلُّفًا ورجعيَّةً ودعوةً إلىٰ تكفير، وأصبحت الدَّعوة إلىٰ التبرُّج والانحلال هو الواجب والمرضيَّ عنه، وهو حرِّيَّة للمرأة.

وأصبحت الدَّعوة إلىٰ السَّمع والطاعة لولاة الأمر، والحثُّ علىٰ عدم الخروج عليهم، ونصيحتهم بالسِّرِّ، والتحذير من المظاهرات والثورات؛ يسمُّونها خنوعًا وذلًّا وعبوديَّةً للسلاطين.

وعلىٰ العبد أن يعلم أنَّه مبتلًىٰ في ذات الله تعالىٰ خصوصًا حال الغربة، ومن أعظم من يكيد له ويسعىٰ للإطاحة به والفتِّ في عضده هم أهل الأهواء والبدع، فكيدهم عظيم، وخطرهم كبير علىٰ صاحب السُّنَّة، فهم لا يرقُبون في صاحب سنَّة إلَّا ولا ذمَّةً.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في نونيَّته[1]:

«لَا تُوحِشَنَّكَ غُربَةٌ بَينَ الوَرَىٰ ... فَالنَّاسُ كَالأَمواتِ فِي الحُسبَانِ

أَوَ مَا عَلِمتَ بِأَنَّ أَهلَ السُّنَّةِ ... الغُرَبَاءُ حَقًّا عِندَ كُلِّ زَمَانِ

قُل لِي مَتَىٰ سَلِمَ الرَّسُولُ وَصَحبُهُ ... وَالتَّابِعُونَ لَهُم عَلَىٰ الإِحسَانِ

مِن جَاهِلٍ وَمُعَانِدٍ وَمُنَافِقٍ ... وَمُحَارِبٍ بِالبَغيِ وَالطُّغيَانِ

---

(١) (ص:٢١٧).

وَتَظُـنُّ أَنَّـكَ وَارِثٌ لَهُـمُ وَمَـا ... ذُقْـتَ الأَذَىٰ فِـي نُـصرَةِ الـرَّحمَنِ
كَـلَّا وَلَا جَاهَـدتَ حَـقَّ جِهَـادِهِ ... فِـي اللهِ لَا بِـيَدٍ وَلَا بِلِـسَانِ
مَنَّـتكَ وَاللهِ المُحَـالَ الـنَّفسُ فَاسـ ... ـتَحدِث سِوَىٰ ذَا الرَّأيِ وَالحُسبَانِ
لَـو كُـنتَ وَارِثَـهُ لَآذَاكَ الأُلَـىٰ ... وَرِثُـوا عِـدَاهُ بِـسَائِرِ الأَلـوَانِ»

وصاحبُ السُّنَّة في طريقه إلىٰ الله تعالىٰ وسيره علىٰ كتاب ربِّه ﷻ وسنَّة نبيِّه ﷺ، يحتاج إلىٰ ما يُسلِّيه ويُعينه ويصبِّره علىٰ بلوىٰ تصيبه من أهل البدع أهل المكر والخديعة، وهذا ما دعاني لكتابة هذا الكتاب، تصبيرًا لصاحب السُّنَّة، وتثبيتًا له علىٰ الحق، وسمَّيتُه بـ: «سُلوان السَّلفي عند كَيد الخَلَفي».

وقد احتوىٰ علىٰ جملةٍ من الفصول، إذا قرأها وتمعَّن فيها المُبتلَىٰ، تسلَّىٰ وصبر وصابر ورابط بإذن الله وتوفيقه، ولم يتزعزع عن السُّنَّة، ولا يتزحزح عنها، وطرَّزتُها بجُمل كثيرةٍ من قصص الأوَّلين، الَّذين ينبغي أن نقتدي بهم في الصبر علىٰ البلاء من قِبَل أهل الأهواء.

الفصل الأوَّل: الابتلاء سنَّة من الله تعالىٰ علىٰ عباده.

الفصل الثاني: فضل الصبر علىٰ البلاء وأسبابه.

الفصل الثالث: ذمُّ التلوُّن وعدم الثبات.

الفصل الرابع: نماذج من محن الأئمَّة وصبرهم علىٰ السُّنَّة.

وأسأل الله تعالىٰ أن يجعلني ومن يقرأ هذا الكتاب وكلَّ صاحب سنَّة من الثابتين علىٰ سنَّة سيِّد المرسلين، يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلوبنا علىٰ دينك، وأسأله

تعالىٰ أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم؛ إنَّ ربِّي لسميع الدعاء.

وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

كتبه

أبو عبدالله

خالد بن ضحوي الظفيري

وكان الفراغ منه في غرَّة رمضان عام ١٤٣٩هـ

الفصل الأول:
الابتلاء سنَّةٌ من الله على عباده

لمَّا خلق الله الخلق لعبادته وحده لا شريك له، جعل علامات بها يُعرف الصادق في طاعته من الكاذب المتخاذل عن عبادته، ومن العلامات الفارقات: الصبر علىٰ ما يصيب المؤمن في الطريق إلىٰ الله تعالىٰ من الابتلاءات، فإذا صبر نجا وفاز وارتفعت له الدرجات، وإن تزعزع وانهزم وانكسر أمام البلاء ضعف إيمانه، وهكذا حتىٰ يزيغ مع الزائغين، ويهلك مع الهالكين، نسأله تعالىٰ السلامة في الدَّارَين.

قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1].

يقول ابنُ كثير: «يقول تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾، قبل أن تُبتَلَوا وتختبروا وتمتحنوا، كما فعل بالَّذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾، وهي: الأمراض؛

---

(١) [البقرة: ٢١٤].

والأسقام، والآلام، والمصائب والنوائب...، ﴿وَزُلْزِلُوا﴾، خوفًا من الأعداء زلزالًا شديدًا، وامتحنوا امتحانًا عظيمًا»[١].

فالصبر علىٰ البلاء طريق الجنَّة وسبيل السعداء، يقول الله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٢].

فالابتلاء سنَّة من سنن الله تعالىٰ الَّتي لا يسلم منها عبدٌ من عباد الله، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣]، والمقصود بالوليجة: بطانةٌ ودخيلةٌ، بل هم في الظاهر والباطن علىٰ النُّصح لله ولرسوله ﷺ، فاكتفىٰ بالباطن عن الظاهر[٤]، فأهلُ الإيمان ثابتون علىٰ إيمانهم وسنَّة نبيِّهم ﷺ، وطريق سلفهم الصالح ظاهرًا وباطنًا.

قال ابنُ كثير: «والحاصل أنَّه تعالىٰ لمَّا شرع الجهاد لعباده، بيَّن أنَّ له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده: من يطيعه ممَّن يعصيه، وهو تعالىٰ العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه علىٰ ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه، ولا رادَّ لما قدَّره وأمضاه»[٥].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٥٢).

(٢) [آل عمران: ١٤٢].

(٣) [التوبة: ١٦].

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤١).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤١).

وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[١]، فهذا استفهام استنكاريٌّ، بمعنىٰ أن الله ﷻ لابدَّ أن يبتليَ عباده المؤمنين بحسَب ما عندهم من الإيمان[٢]، ويخفُّ البلاء علىٰ المؤمن إذا علم أن هذا الأمر عامٌّ علىٰ النَّاس كما في الآية، بل لا يسلم منه الأنبياء ولا الأولياء الأتقياء، كما قال ﷺ: **«إنَّ مِن أَشَدِّ النَّاس بَلَاءً الأَنبِيَاءَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم»**[٣].

فبالابتلاء يتميَّز المؤمن من المنافق، والسُّنِّيُّ من المبتدع، والثابت من المتزعزع، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[٤].

قال ابنُ كثير: «أي: لابُدَّ أن يعقد سببًا من المحنة، يظهر فيه وليُّه، ويفضح به عدوَّه، يُعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر»[٥].

بل إنَّ العبد إذا كان سائرًا في درب الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ورافعًا لواء السُّنَّة والذَّبّ عنها، رادًّا علىٰ أهل الأهواء والبدع، عظُم عليه البلاء، اختبارًا وامتحانًا،

---

(١) [العنكبوت:١-٣].

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٠٥).

(٣) رواه أحمد (٦/ ٣٦٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٤٥).

(٤) [آل عمران: ١٧٩].

(٥) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٣٣).

وإبقاءً لذكره الحسن في الدنيا، ورفعًا لدرجاته في الآخرة.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لولا هذا الابتلاء والامتحان لما ظهر فضلُ الصبر والرضا والتوكُّل والجهاد والعفَّة والشجاعة والحِلم والعفو والصَّفح، والله سبحانه يحبُّ أن يكرم أولياءه بهذه الكمالات، ويحبُّ ظهورها عليهم؛ ليُثني بها عليهم هو وملائكتُه، وينالوا باتِّصافهم بها غايةَ الكرامة واللَّذَّة والسُّرور، وإن كانت مُرَّة المبادئ، فلا أحلىٰ من عواقبها!»[(١)].

وفي حديث بدء الوحي علىٰ رسول الله ﷺ قال له ورقةُ بنُ نوفل: «يَا لَيتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيتَنِي أَكُونُ حَيًّا إذ يُخرجُكَ قَومُكَ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَ مُخرِجِيَّ هُم؟». قال: «**نَعَم، لَم يَأتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثلِ مَا جِئتَ بِهِ إلَّا عُودِيَ، وَإن يُدركنِي يَومُكَ أَنصُركَ نَصرًا مُؤَزَّرًا**»[(٢)].

قال العلَّامة ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا أتباع الرُّسل المصدِّقون لهم في كلِّ ما جاءوا به، المثبتون لحقائقه -لستُ أعني المُقرِّين بمجرَّد ألفاظه مع اعتقادهم فيها التخييل والتحريف والتأويل أو التجهيل- فليس للمُبطلين عليهم سبيل ألبتَّة، لكن بالافتراء والتلبيس والكذب والألقاب، الَّذين هم أحقُّ بها وأهلها دونهم، وما رتَّبوا علىٰ ذلك من الأذىٰ الَّذي يبلغونه منهم، وذلك ممَّا يحقِّق ميراثهم من إمامهم ومتبوعهم الَّذي أوذي في الله هو وأصحابه، وقال له ورقةُ بنُ نوفل: «**لَم يَأتِ أَحَدٌ بمِثل مَا جِئتَ بِهِ إلَّا عُودِيَ**»، فكلُّ من دعا إلىٰ نفس ما جاء

---

(١) «شفاء العليل» (ص:٢٤٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٣)، ومسلم (١٦٠).

به الرسول فهو من أتباعه، فلابدَّ أن يناله من الأذىٰ من أتباع الشيطان، بحسَب حاله وحالهم، والله المستعان»[١].

فعلىٰ السَّائر في دعوته إلىٰ منهج السَّلف الصَّالح أن يعلم أنَّه سيُبتلىٰ، وأنَّ عليه أن يوطِّن نفسه علىٰ الصبر والثبات، كما قال الرَّاهب للغلام: «**أي بُنيَّ، أَنتَ اليومَ أَفضَلُ مِنِّي، قَد بلَغَ من أَمرِكَ مَا أَرَىٰ، وَإِنَّكَ سَتُبتَلَىٰ**»[٢].

بل كلَّما كان العبد أقربَ إلىٰ الله تعالىٰ؛ اشتدَّ عليه البلاء، كما جاء عن مُصعبِ بن سعدٍ، عن أبيه ﷺ قال: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاس أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «**الأَنبيَاءُ ثُمَّ الأَمثَلُ فَالأَمثَلُ، فَيُبتَلَىٰ الرَّجُلُ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَإِن كَانَ دِينُهُ صُلبًا اشتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِن كَانَ فِي دِينِهِ رقَّةٌ ابتُلِيَ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبرَحُ البَلَاءُ بالعَبدِ حَتَّىٰ يَترُكَهُ يَمشِيَ عَلَىٰ الأَرضِ مَا عَلَيهِ خَطِيئَةٌ**»[٣].

قال الشيخ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ معلِّقًا: «وفي هذه الأحاديث دلالةٌ صريحةٌ علىٰ أن المؤمن كلَّما كان أقوىٰ إيمانًا، ازداد ابتلاءً وامتحانًا، والعكس بالعكس، ففيها ردٌّ علىٰ ضعفاء العقول والأحلام الَّذين يظنُّون أن المؤمن إذا أُصيب ببلاءٍ كالحبس أو الطرد أو الإقالة من الوظيفة ونحوها، أنَّ ذلك دليلٌ علىٰ أن المؤمن غير مرضيٍّ عند الله تعالىٰ! وهو ظنٌّ باطل، فهذا رسولُ الله ﷺ وهو أفضل البشر، كان أشدَّ الناس حتىٰ الأنبياء بلاءً، فالبلاء غالبًا دليلُ خير، وليس نذير شرٍّ، كما

---

(١) «الصواعق» (٤/ ١٣٩٢-١٣٩٣).

(٢) رواه مسلم (٣٠٠٥).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٩٨)، وابنُ ماجه (٤٠٢٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٤٣).

يدلُّ علىٰ ذلك أيضًا الحديث الآتي»[١]، وذكر حديث أنسٍ عن النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ عظَمَ الجَزَاءِ مع عظَمِ البَلَاءِ، وَإنَّ الله إذا أَحَبَّ قَومًا ابتَلَاهم، فمَن رضي فلَهُ الرِّضَا، ومَن سَخطَ فلَهُ السَّخَطُ**»[٢].

قال الشيخ سليمان بنُ عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين ذكر هذا الحديث: «صريحٌ في حصول الابتلاء لمن أحبَّه الله، ولمَّا كان الأنبياء عليهم السلام أفضلَ الأحباب كانوا أشدَّ النَّاس بلاءً، وأصابهم من البلاء في الله ما لم يُصب أحدًا لينالوا بذلك الثواب العظيم، والرضوان الأكبر، وليأتسي بهم من بعدهم، ويعلموا أنَّهم بشرٌ تصيبهم المحن والبلايا، فلا يعبدونهم»[٣].

وقد ورد عن السَّلف جملةٌ من الآثار، في بيان أنَّ العبد مبتلًىٰ في طريقه إلىٰ الله تعالىٰ، وبيانِ الحكمة من الابتلاء، ومنزلةِ المُبتلىٰ عند الله تعالىٰ.

فعن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**مَا أَغبِط أَحَدًا لَم يُصِبهُ فِي هَذَا الأَمرِ بَلَاءٌ**»[٤].

وقال مسروق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَدَّ أَهلُ البَلَاءِ يَومَ القِيَامَةِ حِينَ يَرَونَ الثَّوَابَ أَنَّ جُلُودَهُم قُرِضَت بِالمَقَارِيضِ**»[٥].

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (١٤٣).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٦٩)، وابنُ ماجه (٤٠٣١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٤٦).

(٣) «تيسير العزيز الحميد» (ص: ٤٤٠).

(٤) رواه أبو العرب في «المحن» (ص: ٢٨٣).

(٥) رواه أبو العرب في «المحن» (ص: ٢٨٤).

وعن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُبتَلَىٰ بِالبَلَاءِ حَتَّىٰ يَمشِي فِي النَّاسِ فِي الدُّنيَا وَلَا خَطِيئَةَ عَلَيهِ**»(١).

وعن عبدالله بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «**مَا كَرُمَ عَبدٌ عِندَ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- إِلَّا ازدَادَ البَلَاءُ عَلَيهِ شِدَّةً**»(٢).

وعن كعب رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «**مَا كَرُمَ عَبدٌ عَلَىٰ اللهِ حَظًّا إِلَّا ازدَادَ البَلَاءُ عَلَيهِ شِدَّةً**»(٣).

وهذا البلاءُ الَّذي يصيب الأنبياء ينبغي أن يتهيَّأ له أهلُ العلم وأتباعُ الرسول ﷺ بالصبر والرضا، يقول أبو شامة: «وينبغي لمن نَظَمه الله سبحانه في سلك العلماء أن يعرف قدر نعمته عليه، فقد قرَّبه من درجة النبوَّة بما أسداه إليه، فلا يحزن لما يفوته من أمر الدنيا، فما آتاه الله خيرٌ ممَّا أوتي أهلُها، ولا يتبرَّم بما ينزل به من مصائبها؛ فإن ذلك من علامات قبوله ولُحوقه بسلفه»(٤).

ولهذا لمَّا سُئِلَ **الإمام الشافعيُّ** -رحمه الله تعالىٰ-: «أيُّما أفضل للرجل أن يُمكَّن أو يُبتلىٰ؟ قال: «**لا يُمكَّن حتَّىٰ يُبتلىٰ، والله تعالىٰ ابتلىٰ أولي العزم من الرسل، فلمَّا صبروا مكَّنهم، فلا يظنَّ أحدٌ أنه يخلص من الألم ألبتَّة**»(٥).

---

(١) رواه أبو العرب في «المحن» (ص:٢٨٤).

(٢) رواه أبو العرب في «المحن» (ص:٢٨٤).

(٣) رواه أبو العرب في «المحن» (ص:٢٨٧)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٣/ ٢٣٤).

(٤) «خطبة الكتاب المؤمل» (ص:٩٢).

(٥) انظر: «زاد المعاد» لابن القيِّم (٣/ ١٤)، و«الفوائد» له (ص:٢٠٨).

فأهلُ العلم وأتباع الرسول ﷺ والسائرون علىٰ هدي السَّلف الصالح، لهم نصيبٌ من قول الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾[1].

قال الشيخ عبد الرحمن بنُ حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكلُّ من كان أقومَ في دين الله، كان أذىٰ النَّاس إليه أسرع، والعداوة له أشدَّ وأفظع؛ وأفضلُ خلق الله رسلُه، وقد عالجوا من النَّاس أشدَّ الأذىٰ؛ حكمةٌ بالغةٌ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[2].

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرةٌ جدًّا، ينبئك عن تفصيل هذا ما ذكره الله في كتابه عن أنبيائه، لمَّا دعوا أممَهم إلىٰ التوحيد، كيف قيل لهم، وما خوطبوا به.

وتأمَّل ما جرىٰ لخيار هذه الأمَّة، كالخلفاء الراشدين، وسادات أصحاب سيِّد المرسلين، من أعدائهم؛ كالروافض، والخوارج ونحوهم، وما جرىٰ لأعيان التابعين ومن بعدهم من أعيان الأئمَّة، كالإمام أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، وأحمد بن نصر الخزاعي، وأمثال هؤلاء ممَّن لا يمكن حصرُهم.

ولو ذكرنا جنس ما جرىٰ لهم من الأذىٰ لطال الجواب، والقصد الاقتصار؛

---

(١) [الأنعام:١١٢-١١٣].

(٢) [سورة الفرقان:٣١].

ومن أراد الوقوف علىٰ ذلك، فعليه بالسِّيَر والتَّاريخ، ولله درُّ أبي تمام حيث يقول، شِعرًا:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّـــهُ نَـــشرَ فَـــضِيلَةٍ طُـوِيَت أَتَـاحَ لَهَـا لِـسَانَ حَـسُودِ

وقال أبو الطيِّب شعرًا:

وَشَـانَ صِـدقَكَ عِـندَ الـنَّاسِ كِذبُهُمُ وَهَـل يُطَابَـقُ مُعَـوَّجٌ بِمُعـتَدِلِ»[١]

وقال الشيخ عبد الرحمن أيضًا: «وفيما قصَّ الله عن الأنبياء تسليةً لعبده المسلم، إذا كان له أعداءٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[٢].

فيؤخذ من هذا: أنَّ من قال الحقَّ ودعا إليه، فلابدَّ أن يتصدَّىٰ له من يوقع الأذىٰ عليه، وما ذاك إلَّا لصعوبة الحقِّ علىٰ النفوس، ومخالفته الأهواء، وإيثار الشهوات علىٰ التقوىٰ؛ نسأل الله الثبات علىٰ الإيمان، والعفو والعافية، في الدِّين والدنيا والآخرة»[٣].

ويبيِّن العلامة السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره عند هذه الآية الحكمة من وجود الأعداء للرسل وأتباعهم، فقال: «ومن حكمة الله تعالىٰ، في جعله للأنبياء أعداءً، وللباطل أنصارًا قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاءُ والامتحانُ، ليتميَّز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمىٰ.

---

(١) «الدرر السنية» (١١/ ٣٢٠).

(٢) [سورة الفرقان:٣١].

(٣) «الدرر السنية» (١١/ ٣٢٣).

ومن حكمته: أن في ذلك بيانًا للحقِّ، وتوضيحًا له، فإن الحق يستنير ويتَّضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فإنَّه -حينئذٍ- يتبيَّن من أدلَّة الحقِّ، وشواهده الدالَّة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب، الَّتي يتنافس فيها المتنافسون»[(١)].

وذكر الله في هذه الآية أيضًا أسلوبًا من أساليب كيدهم لأهل السنَّة، كما وضَّحه الشيخ العلَّامة ابنُ عثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: «حيث بيَّن أن من حكمة الله ﷻ أنَّه لم يبعث نبيًّا إلَّا جعل له أعداءً من الإنس والجنِّ، وذلك أن وجود العدوِّ يمحِّص الحقَّ ويبيِّنه، فإنَّه كلَّما وُجِد المعارض قويت حجَّة الآخر، وهذا الَّذي جعله الله تعالىٰ للأنبياء جعله أيضًا لأتباعهم، فكلُّ أتباع الأنبياء يحصل لهم مثل ما يحصل للأنبياء؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[(٢)]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[(٣)]، فإن هؤلاء المجرمين يعتدون على الرسل وأتباعهم وعلىٰ ما جاءوا به بأمرين:

الأوَّل: التشكيك.

الثَّاني: العدوان.

- أمَّا التشكيك؛ فقال الله تعالىٰ في مقابلته: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ لمن

---

(١) «تفسير السعدي» (ص: ٢٧٠).

(٢) [الأنعام: ١١٢-١١٣].

(٣) [سورة الفرقان: ٣١].

أراد أن يُضلَّه أعداء الأنبياء.

- وأمَّا العدوان؛ فقال الله تعالىٰ في مقابلته: ﴿وَنَصِيرًا﴾ لمن أراد أن يردعه أعداء الأنبياء.

فالله تعالىٰ يهدي الرسل وأتباعهم وينصرهم علىٰ أعدائهم ولو كانوا من أقوىٰ الأعداء، فعلينا ألَّا نيأس لكثرة الأعداء... »[1].

وهذه العداوة والكيد من أهل الباطل بشتَّىٰ أصنافهم، من ملاحدة وزنادقة وأهل كفر وملل ونفاق، ومن أهل ضلال وابتداع وأهواء، هو نوع من أنواع البلاء الذي يصيب أهل السُّنَّة، كما أصاب الأنبياء قبلهم من مخالفيهم من أهل الكفر والعناد، فأهلُ العلم اجتهدوا في نصح النَّاس وتوجيههم إلىٰ الخير والهدىٰ، وأهل الضلال لا يريدون الخير ولا السنَّة؛ لأن فيه افتضاحَ أمرهم وبيان زيغهم وضلالهم، لذلك عكفوا علىٰ كيد أهل السُّنَّة، بشتَّىٰ طرق الكيد والمكر؛ لإطفاء نور السُّنَّة والحق، وإشعال نيران الفتنة والهوىٰ والضلال.

يقول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلَّ إلىٰ الهدىٰ، ويصبرون منهم علىٰ الأذىٰ، يُحيون بكتاب الله الموتىٰ، ويبصرون بنور الله أهل العمىٰ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيَوه، وكم من ضالٍّ تائه قد هَدَوه، فما أحسن أثرهم علىٰ الناس وأقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين،

---

(١) «شرح كشف الشبهات» (ص:٦٤).

وتأويل الجاهلين، الَّذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مُجمعون علىٰ مفارقة الكتاب، يقولون علىٰ الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلَّمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهَّال الناس بما يشبِّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المُضلِّين»[(١)].

وأشار الله تعالىٰ في كتابه إلىٰ المكر والكيد عند أهل البدع تجاه علماء السُّنَّة؛ خصوصًا من يكون منهم رأسًا في السُّنَّة، داعيةً إليها، رادًّا علىٰ أهل الأهواء والبدع، قال سبحانه: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾[(٢)].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهكذا ترىٰ أهل البدع المُضلَّة، إذا سمع الواحدُ منهم ما يتلوه العالمُ عليهم من آيات الكتاب العزيز أو من السُّنَّة الصحيحة مخالفًا لما اعتقده من الباطل والضلالة؛ رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكَّن من أن يسطُوَ بذلك العالم، لفَعَل به ما لا يفعله بالمشركين، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع ما لا يحيط به الوصف، والله ناصرُ الحقِّ، ومُظهرُ الدِّين، وداحضُ الباطل، ودامغُ البدع، وحافظُ المتكلِّمين بما أخذه عليهم، المبيِّنين للناس ما نُزِّل إليهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل»[(٣)].

وقد سلك أهلُ البدع والضلال ضدَّ أهل السُّنَّة وعلماء الملَّة كلَّ سبيل

---

(١) «الرد علىٰ الزنادقة والجهمية» (ص:٦).

(٢) [الحج: ٧٢].

(٣) «فتح القدير» (٣/ ٤٦٨).

ممكن للنيل منهم، فهم لا يرقبون في صاحب السُّنَّة إلًّا ولا ذمَّةً، فقد وصل الأمر إلىٰ تدبير قتلهم، أو نفيهم أو سجنهم أو تعذيبهم، أو إيقاع الضرر عليهم بأيِّ نوع من الضرر يستطيعونه.

قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره، ومع هذا يجحد ذلك لحسده إيَّاه، أو لطلب عُلوِّه عليه، أو لهوىٰ النفس، ويحمله ذلك الهوىٰ علىٰ أن يعتديَ عليه ويردَّ ما يقول بكلِّ طريق، وهو في قلبه يعلم أنَّ الحقَّ معه، وعامَّةُ من كَذَّب الرُّسل عَلِموا أنَّ الحق معهم، وأنَّهم صادقون، لكن إمَّا لحسدهم، وإمَّا لإرادتهم العلُوَّ والرياسة، وإمَّا لحبِّهم دينهم الذي كانوا عليه، وما يحصل لهم به من الأغراض، كأموال ورياسة وصداقة أقوام وغير ذلك، فيرون في اتِّباع الرُّسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم، أو حصول أمور مكروهة إليهم، فيكذِّبونهم ويُعادونهم، فيكونون من أكفر الناس، كإبليس وفرعون، مع علمهم بأنَّهم علىٰ الباطل، والرُّسلَ علىٰ الحق»[1].

وقد ذكر أبو العرب في كتابه «المحن» جملةً كبيرةً ممَّن امتُحن من علماء السُّنَّة، ممَّا يدفع العبد لمعرفة خطورة أهل البدع وحقدهم علىٰ أهل السُّنَّة، وقلوبهم المملوءة بالحقد والغلِّ علىٰ علماء السُّنَّة ودعاة المنهج السلفي؛ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنا أذكر بعد هذا من ابُتلي من خيار هذه الأمَّة وأهل العلم وأشراف النَّاس بأن حُبس أو ضُرب أو تُهدِّد أو امتُحن؛ ليكون ذلك عزاءً لمن ابُتليَ بمثل ما ابُتليَ الصالحون من صدر هذه الأمَّة، وأذكر كلَّ رجل، من ضُرب

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ١٩١).

منهم، ومَن ضربه، وكيف كان سبب ضربه، ومن حُبس، وكيف كان حبسُه، ومن نَفَته وُلاةُ الجَور منهم، ومن توارىٰ منهم، ومن مات متواريًا، وما أشبه ذلك من أمورهم»[١].

ويذكر العلَّامة ابنُ القيِّم في «النونية»[٢] جملةً من أساليبهم في كيد أهل السُّنَّة والمكر بهم، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَلَقَد رَأَيتُم مَا جَرَىٰ لِأَئِمَّةِ الإِ ... سلَامِ مِن مِحَنٍ عَلَىٰ الأَزمَانِ
لَاسِيَّمَا لَمَّا استَمَالُوا جَاهِلًا ... ذَا قُدرَةٍ فِي النَّاسِ مَع سُلطَانِ
وَسَعَوا إِلَيهِ بِكُلِّ إِفكٍ بَيِّنٍ ... بَل قَاسَمُوهُ بِأَغلَظِ الأَيمَانِ
إِنَّ النَّصِيحَةَ قَصدُهُم كَنَصِيحَةِ الـ ... ـشيطَانِ حِينَ خَلَا بِهِ الأَبَوَانِ
فَيَرَىٰ عَمَائِمَ ذَاتَ أَذنَابٍ عَلَىٰ ... تِلكَ القُشُورِ طَوِيلَةَ الأَردَانِ
وَيَرَىٰ هَيُولَىٰ لَا تَهُولُ لِمُبصِرٍ ... وَتَهُولُ أَعمَىٰ فِي ثِيَابِ جَبَانِ
فَإِذَا أَصَاخَ بِسَمعِهِ مَلَؤُوهُ مِن ... كَذِبٍ وَتَلبِيسٍ وَمِن بُهتَانِ
فَيَرَىٰ وَيَسمَعُ فَشرَهُم وَفُشَارَهُم ... يَا مِحنَةَ العَينَينِ وَالأُذنَانِ
فَتَحُوا جِرَابَ الجَهلِ مَع كَذِبٍ فَخُذ ... وَاحمِل بِلَا كَيلٍ وَلَا مِيزَانِ
وَأَتَوا إِلَىٰ قَلبِ المُطَاعِ فَفَتَّشُوا ... عَمَّا هُنَاكَ لِيَدخُلُوا بِأَمَانِ
فَإِذَا بَدَا غَرَضٌ لَهُم دَخَلُوا بِهِ ... مِنهُ إِلَيهِ كَحِيلَةِ الشَّيطَانِ

---

(١) «المحن» (ص:٢٨٧).

(٢) (ص:١٥١).

فَـإِذَا رَأَوهُ هَـشَّ نَحـوَ حَدِيـثِهِم ... ظَفَـرُوا وَقَالُـوا وَيـحَ آلِ فُـلَانِ
هُوَ فِي الطَّرِيقِ يَعُوقُ مَولَانَا عَنِ الـ ... ـمَقـصُودِ وَهـوَ عَـدُوُّ هَـذَا الـشَّانِ
فَـإِذَا هُـم غَرَسُـوا العَـدَاوَةَ وَاظَـبُوا ... سَـقيَ الغِـرَاسِ كَفِعـلِ ذِي البُـستَانِ
حَتَّـىٰ إِذَا مَـا أَثمَـرَت وَدَنَـا لَهُـم ... وَقـتُ الجِـدَادِ وَصَـارَ ذَا إِمكَـانِ
رَكِـبُوا عَلَـىٰ حَـردٍ لَهُـم وَحَمِـيَّةٍ ... وَاسـتَنجَدُوا بِعَـسَاكِرِ الـشَّيطَانِ
فَهُـنَالِكَ ابتُلِـيَت جُـنُودُ اللهِ مِـن ... جُـندِ اللَّعِـينِ بِـسَائِرِ الأَلـوَانِ
ضَـربًا وَحَبـسًا ثُـمَّ تَكفِيـرًا وَتَبـ ... ـدِيعًا وَشَـتمًا ظَاهِـرَ البُهـتَانِ
فَلَقَـد رَأَينَا مِـن فَـرِيقٍ مِـنهُم ... أَمـرًا تُهـدُّ لَـهُ قُـوَىٰ الإِيمَـانِ
مِن سَبِّهِم أَهلَ الحَدِيثِ وَذَنبُهُم ... أَخـذُ الحَـدِيثِ وَتَـركُ قَـول فُـلَانِ
يَـا أُمَّـةً غَـضِبَ الإِلَـهُ عَلَـيهِمُ ... أَلِأَجـلِ هَـذَا تَـشتُمُوا بِهَـوَانِ
تَـبًّا لَكُـمُ إِذ تَـشتُمُونَ زَوَامِـلَ الـ ... ـإِسـلَامِ حِـزبَ اللهِ وَالقُـرآنِ»

وهذه هي سنَّةُ الله تعالىٰ في امتحان أهل الحقِّ بأهل الباطل، فيُعادُون أهل السنَّة، ويكذبون عليهم، ويشوِّهون صورتهم بالزور والبهتان، ويقلبون الحقَّ باطلًا والباطل حقًّا.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**هذه سنَّةُ الله في أهل الباطل: أنَّهم يُعادُون الحقَّ وأهلَه، وينسبونهم إلىٰ معاداته ومحاربته**؛ كالرافضة الذين عَادَوا أصحاب النَّبيِّ ﷺ، بل وأهل بيته، ونسبوا أتباعه وأهل سنَّته إلىٰ معاداته ومعاداة أهل بيته، وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلَّا المتَّقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون»[1].

---

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص: ٣٠).

وعَيبُ أهل السُّنَّة وذمُّهم بالباطل والكذبُ عليهم هو من أبرز علامات أهل البدع، بل هو عادةٌ من عاداتهم ضدَّ الحق وأهله، يقول الشيخ عبد اللَّطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ردِّه علىٰ عثمان بن منصور: «فهذا الرجل مولع بمسبَّة أهل العلم، وعَيبهم وتجهيلهم؛ **ومن عادة أهل البدع إذا أفلسوا من الحجَّة، وضاقت عليهم السُّبل، تروَّحوا إلىٰ عيب أهل السُّنَّة وذمِّهم**، ومدح أنفسهم؛ والواجب أن يتكلَّم الإنسان بعلم وعدل، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾[1]، وهذا الرجل يَحمل خَشَبَتَه منذ سنين، ولا يَجِد من يَصلبه، وأهلُ السُّنَّة والحديث في كلِّ مكان وزمان هم محنة أهل الأرض، يمتاز أهل السُّنَّة والجماعة بمحبَّتهم، والثناء عليهم، ويعرف أهل البدع والاختلاف بعيبهم وشنايتهم»[2].

ومن مكائدهم: **كذبهم علىٰ أهل السُّنَّة، وتزوير الأقوال عليهم، ونسبة الباطل لهم، وتلفيق التُّهم الجائرة، وإلصاق المعايب بهم**، علَّهم بذلك ينفِّرون النَّاس عن السنَّة وعن أهل السنَّة السلفيِّين، وهذا من خبثهم ومكائدهم الكاسدة الَّتي لا تخدع أهل القلوب السليمة والألباب الرشيدة.

فكم وكم كذبوا علىٰ العلماء المتقدِّمين والمتأخِّرين، ولا يزالون يكذبون ويفجرون في الخصومة، وهذه عادتُهم لكونهم أفلسوا من الحجَّة، فما لهم غير اتِّباع إبليس في كذبهم وتزويرهم.

---

(١) [المائدة:٨].

(٢) «الدرر السنية» (٥/ ١٠٠).

وأهل البدع والأهواء يكذبون علىٰ العلماء لأغراض كثيرة، ومنها:

أوَّلًا: من باب تشويه المنهج والدِّين الصحيح الذي يحملونه ويبلغونه للناس، فلا حجَّة لهم سوىٰ الكذب علىٰ أهل السُّنَّة لصدِّ النَّاس عن الحق.

وثانيًا: من باب تحسين باطلهم بنسبة بعض أهل العلم إليهم، وأنَّهم من القائلين بأقوالهم ومن المعتقدين بمعتقداتهم الباطلة.

ولو تدبَّرنا التاريخ الأسود لأهل البدع عبر العصور لوجدنا هذه الخصلة القبيحة ملازمة لهم لا تنفكُّ عنهم، فما من إمام من أئمَّة السُّنَّة له طَول في مجاهدة أهل البدع وفضح عوارهم وهتك أستارهم، إلَّا قابلوه بهذه الأكاذيب، ولفَّقوا له من التُّهم ما تنبُو عنها الأسماع، لكن الله فاضِحُهم وكاشفُ افترائهم.

كيف لا؟! وهم تجرَّءوا علىٰ الكذب علىٰ الله وعلىٰ رسوله ﷺ بإضافة البدع إلىٰ الدين، وشرعوا ما لم ينزل به سلطانًا، فكيف لا يكذبون علىٰ العلماء وحملة الشريعة والدين؟!

ومن أمثلة ذلك:

كذبُهم علىٰ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو كثيرٌ، كما قال العلَّامة ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا ذكر نسبة القول بأن الغُسل لا يكون إلَّا من الإنزال: «وقد كانَ بعضُ النَّاس في زمن الإمام أحمد ينسب ذلكَ إليه، فكان أحمد ينكر ذلكَ، ويقول: ما أحفظ أنِّي قلتُ بهِ قطُّ، وقيل لَهُ: بلغنا أنَّك تقوله؟ فقال: الله المستعان، وقال أيضًا: من يكذب عليَّ في هَذا أكثرُ مِن ذاك»[1].

---

(١) «فتح الباري» لابن رجب (١/ ٣٨٥).

وقال شيخ الإسلام ابنُ تيمية: «زَعَمَ بَعضُ الكَذَّابِين أنَّ البُخَارِيَّ لمَّا مات أَمَرَ أحمد بنُ حنبلٍ أَلَّا يُصَلَّىٰ عليهِ، وهذا كَذِبٌ ظاهرٌ؛ فإنَّ أبا عبد اللهِ البخاريَّ رَحِمَهُ اللَّهُ مَاتَ بعد أحمد بنِ حنبلٍ بنحو خمسَ عشرةَ سنة، فَإِنَّ أَحمَد بن حَنبَل تُوُفِّيَ سنة إحدىٰ وأربَعِينَ وَمِائَتَينِ، وَتُوُفِّيَ البُخَارِيُّ سَنَةَ سِتٍّ وَخَمسِينَ وَمِائَتَينِ، وَكَانَ أَحمَد بنُ حنبلٍ يُحِبُّ البخاريَّ ويُجلُّهُ ويُعظِّمُهُ»[1].

وسيأتي ذكرُ أمثلةٍ من كذبهم علىٰ أئمة الإسلام، ككذبهم علىٰ الإمام أبي عمر أحمد بن محمد الطَّلمنكي، وكذبهم علىٰ الإمام أبي إسماعيل الأنصاري، وكم كذبوا علىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حين جاهد أهل البدع جهادًا عظيمًا.

يقول هو عن ذلك في «المناظرة في العقيدة الواسطية»: «أنا أَعلَمُ أَنَّ أقوامًا يَكذِبُونَ عليَّ؛ كما قد كَذَبُوا عليَّ غير مَرَّةٍ»[2].

وقال: «أَنَا أَعلَمُ أَنَّ أَقوامًا كَذَبُوا عليَّ، وَقَالُوا لِلسُّلطَانِ أشياءَ، وَتَكَلَّمت بِكَلَامٍ احتجت إلَيه؛ مثل أَن قُلت: من قامَ بِالإسلامِ أَوقاتَ الحَاجَةِ غَيرِي؟! ومن الَّذي أَوضَحَ دَلَائِلَهُ وَبَيَّنَهُ؟! وَجَاهَدَ أَعدَاءَهُ وَأَقَامَهُ لَمَّا مَالَ، حِينَ تَخَلَّىٰ عَنهُ كُلُّ أَحَدٍ؛ وَلَا أَحَد يَنطق بِحُجَّته وَلَا أَحَد يُجَاهِدُ عنه، وَقُمت مُظهِرًا لِحُجَّته مُجَاهِدًا عنه مُرَغِّبًا فِيهِ؟! فَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ يَطمَعُونَ فِي الكَلَامِ فِيَّ، فكيفَ يَصنَعون بِغيرِي! ولو أَنَّ يَهُودِيًّا طَلَبَ مِن السُّلطَانِ الإنصَافَ: لَوَجَبَ عَلَيهِ أن يُنصِفَهُ؛ وَأَنَا قَد أَعفُو

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٦٥٨).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٦٢).

عَن حَقِّي وَقَد لَا أَعفُو؛ بَل قَد أَطلُبُ الإنصَافَ مِنهُ، وَأَن يَحضُرَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَكذِبُونَ؛ لِيُوَافِقُوا[١] عَلَىٰ افتِرَائِهِم»[٢].

وكم كذبوا علىٰ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ-، وفي ذلك يقول: «ثمَّ لا يخفىٰ عليكم وأنَّه بلغني أن رسالة سليمان بن سحيم قد وصلت إليكم، وأنَّه قَبِلَها وصدَّقها بعضُ المنتمين للعلم في جهتكم، والله يعلم أن الرجل افترىٰ عليَّ أمورًا لم أقُلها، ولم يأتِ أكثرُها علىٰ بالي».

ثم ذكر جملةً من المسائل الَّتي افتُريت عليه، ثم قال: «جوابي عن هذه المسائل، أن أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم؛ وقبله من بهت محمدًا ﷺ أنه يسبُّ عيسىٰ بنَ مريم، ويسبُّ الصالحين، فتشابهت قلوبهم بافتراء الكذب وقول الزور؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣]، بهتوه ﷺ بأنه يقول: إن الملائكة وعيسىٰ وعُزيرًا في النَّار؛ فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[٤]»[٥].

وأمثلةُ ذلك كثيرة، فأهل البدع بشتَّىٰ أصنافهم لا يملُّون من الكذب علىٰ أهل العلم لتشويه صورتهم، وترويج باطلهم.

---

(١) لعله: ليوقفوا.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٦٣).

(٣) [النحل: ١٠٥].

(٤) [الأنبياء: ١٠١].

(٥) «الدرر السنية» (١/ ٢٣).

يقول ابنُ القيِّم -رحمه الله تعالىٰ-: «فَيَا للَّهِ العَجَبُ كَيفَ لَا يَستَحِي العَاقِلُ مِنَ المُجَاهَرَةِ بِالكَذِبِ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الإِسلَامِ»[١].

ومن مكائدهم كذلك: تأليبُ السلطان علىٰ أهل السُّنَّة وعلمائهم، وتشويه صورتهم لديهم، وإظهارهم بمظهر الخارج علىٰ الولاة، الداعي إلىٰ الفتنة، ونزع يد الطاعة، وأمثلة ذلك لمن نظر في سيرة العلماء في القديم والحديث كثيرة جدًّا، كتحريش السلاطين علىٰ أئمَّة الإسلام في محنة خلق القرآن، والكذب عند السلطان علىٰ الإمام عبد الغني المقدسيِّ، وتأليبهم للسلاطين علىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية، وغير ذلك ممَّا سيأتي ذكرُه بحول الله وقوَّته.

وكلُّ ذلك سببُه ضعفُ الحجَّة، وعدمُ قدرتهم علىٰ مقارعة أهل السُّنَّة بالدليل والبرهان، بل الأدلة تدمغهم، وتُظهر باطلهم، حتَّىٰ أنَّه في عدد من الحوادث ينتبه بها السلطان إلىٰ كذبهم علىٰ صاحب السُّنَّة، فيعود مكرُهم عليهم، ولا يحيق المكر السيِّئ إلا بأهله.

قال ابنُ القيِّم في «النُّونية»[٢]:

«إِن كُنتُمُ أَنتُم فُحُولًا فَابرُزُوا ... وَدَعُوا الشَّكَاوَىٰ حِيلَةَ النِّسوَانِ

وَإِذَا اشتَكَيتُم فَاجعَلُوا الشَّكوَىٰ إِلَىٰ الـ ... ـوَحيَينِ لَا القَاضِي وَلَا السُّلطَانِ»

---

(١) «مختصر الصواعق» (ص:٦١٥).

(٢) (ص:٢٣٩).

وقال أيضًا[١]:

«وَاللهِ مَا لَكُمُ جَوَابٌ غَيرُ تَكـ ... ـفِيرٍ بِلَا عِلمٍ وَلَا إِيقَانِ
أَستَغفِرُ اللهَ العَظِيمَ لَكُم جَوَا ... بٌ غَيرُ ذَا الشَّكوَىٰ إِلَىٰ السُّلطَانِ
فَهوَ الجَوَابُ لَدَيكُمُ وَلَنَحنُ مُنـ ... ـتَظِرُوهُ مِنكُم يَا أُولِي البُرهَانِ»

وقال أيضًا[٢]:

«يَا رَبِّ هُم يَشكُونَنَا أَبَدًا بِبَغـ ... ـيِهِمُ وَظُلمِهِمُ إِلَىٰ السُّلطَانِ
وَيُلَبِّسُونَ عَلَيهِ حَتَّىٰ إِنَّهُ ... لَيَظُنُّهُم هُم نَاصِرُو الإِيمَانِ
فَيُرُونَهُ البِدَعَ المُضِلَّةَ فِي قَوَا ... لِبِ سُنَّةٍ نَبَوِيَّةٍ وَقُرَانِ
وَيُرُونَهُ الإِثبَاتَ لِلأَوصَافِ فِي ... أَمرٍ شَنِيعٍ ظَاهِرِ النُّكرَانِ
فَيُلَبِّسُونَ عَلَيهِ تَلبِيسَينِ لَو ... كُشِفَا لَهُ بَادَاهُمُ بِطِعَانِ
يَا فِرقَةَ التَّلبِيسِ لَا حُيِّيتُمُ ... أَبَدًا وَحُيِّيتُم بِكُلِّ هَوَانِ
لَكِنَّنَا نَشكُوهُمُ وَصَنِيعَهُم ... أَبَدًا إِلَيكَ فَأَنتَ ذُو السُّلطَانِ
فَاسمَع شِكَايَتَنَا وَأَشكِ مُحِقَّنَا ... وَالمُبطِلَ اردُدهُ عَنِ البُطلَانِ»

والشكاية للسلطان من المكائد القديمة الَّتي سلكها الكفَّار ضدَّ الأنبياء، قال شيخ الاسلام محمد بنُ عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مسائل الجاهليَّة»[٣]:

---

(١) (ص:٢٨٠).

(٢) (ص:٢٨٩).

(٣) (ص:١٧).

«المسألة الثانية والسِّتُّون: كونُهم إذا غُلبوا بالحجَّة فزعوا إلىٰ الشكوىٰ للمُلوك، كما قالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[1]».

وهذه العقوبات والأذىٰ من أهل البدع لأهل السنَّة كلُّه بسبب تعصُّبهم وتحزُّبهم، وهو من قَبيل الحكم بغير ما أنزل الله تعالىٰ، حيث شرعوا عقوبةً علىٰ ما لم يكن شرعًا من أقوالهم المحدثة المبتدعة.

يقول شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا كان من شعار أهل البدع: إحداثُ قول أو فعل وإلزامُ النَّاس به، وإكراهُهم عليه، والموالاةُ عليه، والمعاداةُ علىٰ تركه، كما ابتدعت الخوارج رأيها، وألزمت الناس به، ووالت وعادت عليه، وابتدعت الرافضة رأيها، وألزمت الناس به، ووالت وعادت عليه، وابتدعت الجهمية رأيها، وألزمت الناس به، ووالت وعادت عليه، لمَّا كان لهم قوَّة في دولة الخلفاء الثلاثة الذين امتُحن في زمنهم الأئمَّة، لتوافقهم علىٰ رأي جهم الذي مبدؤه أنَّ القرآن مخلوق، وعاقبوا من لم يوافقهم علىٰ ذلك.

ومن المعلوم أنَّ هذا من المنكرات المحرَّمة بالعلم الضروري من دين المسلمين، فإنَّ العقاب لا يجوز أن يكون إلا علىٰ ترك واجب، أو فعل محرَّم، ولا يجوز إكراهُ أحدٍ إلَّا علىٰ ذلك، والإيجاب والتحريم ليس إلَّا لله ولرسوله، فمن عاقب علىٰ فعل أو ترك بغير أمر الله ورسوله، وشرع ذلك دينًا، فقد جعل ندًّا لله ولرسوله نظيرًا بمنزلة المشركين الذين جعلوا أندادًا، أو بمنزلة المرتدِّين

---

(١) [الأعراف: ١٢٧].

الذين آمنوا بمسيلمة الكذاب، وهو ممَّن قيل فيه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[1]»[2].

وقال العلامة عبد الرحمن المعلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد تدبرتُ أنواع الفساد فوجدتُ عامتها نشأت عن إماتة السُّنن، أو إقامة البدع، ووجدتُ أكثر المُسلمين يبدو منهم الحِرص علىٰ اتِّباع السُّنن واجتناب البدع، ولكن التَبَسَ عليهم الأمر؛ فزعموا في كثير من السُّنن أنَّه بدعة، وفي كثير من البدع أنَّه سُنَّة.

وكلَّما قام عالمٌ فقال: هذا سنَّة، أو هذا بدعة، عارَضَه عشرات، أو مئات من الرؤساء في الدِّين، الَّذين يزعم العامَّة أنهم علماء، فردُّوا يده في فِيهِ، وبالغوا في تضليله والطَّعن فيه، وأفتوا بوجوب قتله أو حبسه أو هجرانه، وشمَّروا للإضرار به وبأهله وإخوانه، وساعدهم ثلاثةٌ من العُلماء: عَالمٌ غَالٍ، وعَالمٌ مفتون بالدُّنيا، وعَالمٌ قَاصر في معرفة السُّنَّة وإن كان متبَحِّرًا في غيرها.

فإذا سمع بذلك من بقي من أفراد العُلماء الصَّادقين؛ كان نصرهم لأخيهم أن يَحرقوه باللَّوم والتَّعنيفِ، قائلين: قد كَان يَسَعك ما وَسِعَ غَيرَك من السُّكوت!»[3].

❊ ❊ ❊

---

(١) [الشورىٰ: ٢١].

(٢) «الفتاوىٰ الكبرىٰ» (٥/ ١٨).

(٣) «صدع الدجنة في فصل البدعة عن السنة» ضمن آثار المعلِّمي (٦/ ١٢٧).

الفصل الثاني:
فضل الصبر على البلاء وأسبابه

ممَّا يجب أن يعلمه العبد أنَّ الله خلق العبد لعبادته، وسيبتليه ليعلم صدقه في إيمانه وثباته عليه من كذبه ونفاقه، وقدَّ مرَّ بيانُ ذلك وذكرُ الأدلَّة عليه، وحين يعلم العبد أنه مبتلًىٰ بالخير والشرِّ، فإنَّه يجب عليه أن يصبر علىٰ ذلك ويجتهد في بذل أسباب الثبات والنجاة، ومن الامتحان البلاء الَّذين يصيب أهل السنَّة من أهل البدع والمذمَّة؛ من قتل وأذىٰ وكذب وافتراء وغير ذلك، فيقابل ذلك السنِّي بالصبر والثبات علىٰ كتاب الله تعالىٰ وعلىٰ سنَّة النَّبيِّ ﷺ، ولا يمنعه خوفُه من الناس عن قول كلمة الحق، فإن هذا من الجهاد في سبيل الله تعالىٰ، فعن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا لَا يَمنَعَنَّ رَجُلًا هَيبَةُ النَّاسِ أَن يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ**»، فَبَكَىٰ أَبُو سَعِيدٍ رضي الله عنه وَقَالَ: قَد وَاللهِ رَأَينَا أَشيَاءَ فَهِبنَا[1].

---

(١) رواه الترمذيُّ (٢١٩١)، وابنُ ماجه (٤٠٠٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٦٨)، وقال معلِّقًا: «وفي الحديث: النَّهيُ المؤكَّد عن كتمان الحقِّ خوفًا من النَّاس، أو طمعًا في المعاش، فكلُّ من كتمه مخافة إيذائهم إيَّاه بنوع من أنواع الإيذاء كالضرب، والشَّتم، وقطع الرزق، أو مخافة عدم احترامهم إيَّاه، ونحو ذلك، فهو داخل في النهي ومخالفٌ للنبيِّ ﷺ، وإذا كان هذا حال من يكتم الحق وهو يعلمه، فكيف يكون حالُ من لا يكتفي بذلك، بل يشهد بالباطل علىٰ المسلمين الأبرياء، ويتَّهمهم في دينهم وعقيدتهم مسايرةً منه للرَّعاع، أو مخافةَ =

قال ابنُ القيِّم: «لمَّا كان الإيمان نصفين: نصف صبر ونصف شكر، كان حقيقًا علىٰ من نصح نفسه وأحبَّ نجاتها وآثر سعادتها، ألَّا يُهمل هذين الأصلين العظيمين، ولا يعدل عن هذين الطريقين القاصدين، وأن يجعل سيره إلىٰ الله بين هذين الطريقين، ليجعله الله يوم لقائه مع خير الفريقين»[(١)].

وقول كلمة الحقِّ والصبر علىٰ ما يلقاه العبد من الأذىٰ دليلٌ علىٰ صدق العبد وإخلاصه لله تعالىٰ، قال الحافظ الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّدعُ بِالحَقِّ عَظِيمٌ، يحتَاجُ إِلَىٰ قُوَّةٍ وَإِخلاصٍ، فَالمُخلِصُ بِلا قُوَّةٍ يَعجزُ عنِ القِيَامِ بِهِ، وَالقَوِيُّ بِلا إِخلاصٍ يُخذَلُ، فَمَن قَامَ بِهِمَا كَامِلًا، فَهُوَ صِدِّيقٌ، وَمَن ضَعُفَ، فَلا أَقَلَّ مِنَ التَّأَلُّمِ وَالإِنكَارِ بِالقَلبِ، لَيسَ وَرَاءَ ذَلِكَ إِيمَانٌ -فَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ-»[(٢)].

وقد اشتكىٰ الصحابة -رضوان الله عليهم- لرسول الله ﷺ ما يلقونه من الأذىٰ، فذكَّرهم بعظم ابتلاء من سبقهم من أهل الإيمان، وبَشَّرهم بظهور أمرهم ودينهم إن هم صبروا علىٰ الحقِّ والإسلام والسُّنَّة.

فعن خَبَّابِ بن الأَرَتِّ رضي الله عنه قال: شَكَونَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُردَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعبَةِ، قُلنَا لَهُ: أَلَا تَستَنصِرُ لَنَا، أَلَا تَدعُو اللهَ لَنَا، قَالَ: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَن قَبلَكُم يُحفَرُ لَهُ فِي الأَرضِ، فَيُجعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالمِنشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ**

=

أن يتَّهموه هو أيضًا بالباطل إذا لم يسايرهم علىٰ ضلالهم واتِّهامهم! فاللَّهمَّ ثبِّتنا علىٰ الحقِّ، وإذا أردت بعبادك فتنةً؛ فاقبضنا إليك غير مفتونين».

(١) «عدة الصابرين» (ص:٥).

(٢) «السير» (١١/ ٢٣٤).

رَأسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثنَتَينِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَن دِينِهِ، وَيُمشَطُ بِأَمشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحمِهِ من عَظمٍ أَو عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَن دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمرَ حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعَاءَ إِلَىٰ حَضرَمَوتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوِ الذِّئبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُم تَستَعجِلُونَ»[(١)].

وها هي وصايا السَّلف الصالح بالصبر علىٰ السنَّة ولزومها، وأن الأمر في الصبر علىٰ السنَّة يحتاج إلىٰ مجاهدة وثبات، والتجاء بربِّ الأرض والسَّموات.

فعن الحسن البصريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «السُّنَّةُ -والَّذي لا إله إلا هو- بين الغالي والجافي؛ فاصبروا عليها رحمكم الله، فإنَّ أهل السنَّة كانوا أقلَّ الناس فيما مضىٰ، وهم أقلُّها فيما بقي: الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا علىٰ سنَّتهم حتىٰ لقُوا ربَّهم، فكذلك -إن شاء الله- فكونوا»[(٢)].

وقال الإمام الأوزاعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اصبر علىٰ السُّنَّة، وقِف حيث وقف القوم، وقُل فيما قالوا، وكُفَّ عمَّا كفُّوا، واسلُك سبيل سلفك الصالح، فإنَّه يسعُك ما وسعهم»[(٣)].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلَّام رَحِمَهُ اللَّهُ: «المتَّبع للسُّنَّة كالقابض علىٰ الجمر،

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٦١٢).

(٢) رواه الدارميُّ في «السنن» (١/ ٨٣).

(٣) رواه ابنُ عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٥/ ٢٠٠).

وهو اليوم عندي أفضلُ من الضرب بالسيوف في سبيل الله»[١].

وقد جعل الله ﷻ للإمامة في هذا الدين شرطين أساسيين، وهما: الصبر واليقين، فقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٢].

وقال سفيان بنُ عيينة: «لمَّا أخذوا برأس الأمر جعلناهم رءوسًا»[٣].

لذلك قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالصبر واليقين بهما تُنال الإمامة في الدين»[٤].

ويقول العلَّامة ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا تزوَّج الصبر باليقين: وُلد بينهما حصولُ الإمامة في الدين»[٥].

وقد جمع الله بينهما في أكثر من آية، ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ العبد لا ينجو من البلاء ويثبت علىٰ الحقِّ والسنَّة إلَّا باجتماعهما بقلب العبد ورسوخه فيهما، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[٦]، وقال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[٧]، فتواصوا بالحقِّ

---

(١) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٤١٠)، وابنُ عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٩/ ٧٩).

(٢) [السجدة: ٢٤].

(٣) انظر: «عدة الصابرين» (ص: ٧٧).

(٤) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٦٨).

(٥) «المدارج» (٢/ ٣٩٧).

(٦) [الروم: ٦٠].

(٧) [العصر: ٣].

وهو اليقين الَّذي يدفع به الشبهات، وبالصبر الَّذي يكفُّ عن الشهوات، قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلابدَّ من التواصي بالحق والصبر؛ إذ إن أهل الفساد والباطل لا يقوم باطلُهم إلَّا بصبر عليه أيضًا، لكن المؤمنون يتواصون بالحق والصبر، وأولئك يتواصون بالصبر علىٰ باطلهم، كما قال قائلهم: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾[1].

فالتَّواصي بالحقِّ بدون الصبر كما يفعله الذين يقولون: آمنَّا بالله، فإذا أوذي أحدهم في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله، والذين يعبدون الله علىٰ حَرف، فإن أصاب أحدهم خيرٌ اطمأنَّ به، وإن أصابته فتنةٌ انقلب علىٰ وجهه، خسر الدنيا والآخرة.

والتَّواصي بالصَّبر بدون الحقِّ كقول الَّذين قالوا: أن امشوا واصبروا علىٰ آلهتكم، كلاهما مُوجبٌ للخسران، وإنَّما نجا من الخسران الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وهذا موجود في كلِّ من خرج عن هؤلاء من أهل الشهوات الفاسدة وأهل الشبهات الفاسدة؛ أهل الفجور وأهل البدع»[2].

وجمع بينهما في قوله: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[3]، فالأيدي: القُوىٰ والعزائم في ذات الله، والأبصار: البصائر في

---

(١) [ص: ٦].

(٢) «قاعدة في المحبة» (ص:٢٠٨).

(٣) [ص: ٤٥].

أمر الله وهو اليقين، وعبارات السلف تدور علىٰ ذلك.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَجمع سُبحَانَهُ بَين الصَّبر وَاليَقِين؛ إذ هما سَعَادَة العَبد، وفقدُهما يُفقده سعادته، فَإِنَّ القلب تطرقه طوارق الشَّهَوَات المُخَالفَة لأمر الله، وطوارق الشُّبُهَات المُخَالفَة لخبره، فبالصبر يدفع الشَّهَوَات، وباليقين يدفع الشُّبُهَات، فَإِن الشَّهوَة والشبهة مضادَّتان للدِّين من كلِّ وَجه، فَلَا ينجو من عَذَاب الله إِلَّا من دفع شهواته بِالصبرِ، وشبهاته بِاليَقِينِ»[1].

فالداعية إلىٰ الله لابدَّ أن يكون في دعوته جامعًا بين الأمرين، صابرًا محتسبًا، علىٰ ثبات ويقين، قال ابنُ القيِّم: «فإن الدَّاعِيَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ لَا يَتِمُّ له أَمرُهُ إِلَّا بِيَقِينِهِ لِلحَقِّ الذي يَدعُو إِلَيهِ، وَبَصِيرَتِهِ بِهِ، وَصَبرِهِ علىٰ تَنفِيذِ الدَّعوَةِ إِلَىٰ اللهِ بِاحتِمَالِ مَشَاقِّ الدَّعوَةِ وَكَفِّ النَّفسِ عَمَّا يُوهِنُ عَزمَهُ وَيُضعِفُ إِرَادَتَهُ، فَمَن كان بِهَذِهِ المَثَابَةِ كان من الأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَهدُونَ بِأَمرِهِ تَعَالَىٰ»[2].

فدفع الشبهات والشهوات هو من أعظم الجهاد في سبيل الله تعالىٰ.

قال ابنُ القيِّم: «وأمَّا جهاد الشيطان فمرتبتان: **إحداهما**: جهادُه علىٰ دفع ما يُلقي إلىٰ العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده علىٰ دفع ما يُلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات، فالجهاد الأوَّل يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعده الصبر»[3].

---

(١) «رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه» (ص:١٦-١٧).

(٢) «إعلام الموقعين» (٤/ ١٣٥).

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ١٠).

فالعبد إنَّما يضلُّ من ترك هذين الأمرين، وكلَّما ضعُف في أحد البابين كان دخول الشبهات والشهوات عليه أعظم، يقول شيخ الإسلام ابنُ تيمية: «فالفتنة إمَّا من ترك الحقِّ، وإمَّا من ترك الصبر»[1].

ويحكي الإمام ابنُ القيِّم شيئًا من صبر الأئمَّة على السنَّة، فيقول: «ووليَ على النَّاس عبد الله المأمون، وكان يحبُّ أنواع العلوم، وكان مجلسه عامرًا بأنواع المتكلِّمين في العلوم، فغلب عليه حبُّ المعقولات، فأمر بتعريب كتب يونان، وأقدم لها المترجمين من البلاد، فعرِّبت له، واشتغل بها الناس، والمَلِك سُوقُ مَا سُوقَ فيه جُلِب إليه، فغلب على مجلسه جماعة من الجهمية، ممَّا كان أبوه الرشيد قد أقصاهم، وتبعهم بالحبس، والقتل، فحشوا بدعة التجهُّم في أذنه وقلبه، فقبلها واستحسنها ودعا الناس إليها، وعاقبهم عليها، فلم تَطُل مدَّتُه.

فصار الأمر بعده إلى المعتصم، وهو الَّذي ضرب الإمام أحمد بن حنبل، فقام بالدعوة بعده، والجهمية تصوِّب فعله، وتدعوه إليه، وتخبره أن ذلك هو تنزيه الرَّبِّ عن التشبيه والتمثيل والتجسيم، وهم الذين قد غلبوا على قربه ومجلسه، والقضاة والولاة منهم، فإنَّهم تبعٌ لملوكهم، ومع هذا فلم يكونوا يتجاسرون على إلغاء النصوص، وتقديم الآراء والعقول عليها، فإن الإسلام كان في ظهور وقوَّة، وسوق الحديث نافقة، ورءوس السنَّة على ظهر الأرض، ولكن كانوا على ذلك يحومون، وحوله يدندنون، وأخذوا الناس بالرغبة والرهبة، فمن بين أعمى مستجيب، ومن بين مُكره مُفتدٍ نفسه منهم بإعطاء ما سألوه وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، وثبَّت

---

(١) «الاستقامة» (١/ ٣٩).

الله أقوامًا جعل قلوبهم في نصر دينه أقوىٰ من الصخر، وأشدَّ من الحديد، وأقامهم لنصر دينه، وجعلهم أئمَّة يقتدي بهم المؤمنون، لمَّا صبروا وكانوا بآياته يوقنون، فإنَّه بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[١].

فصبروا من الجهميَّة علىٰ الأذىٰ الشديد، ولم يتركوا سنَّة رسول الله لما أرغبوهم به من الوعد وما تهدَّدوهم به من الوعيد، ثم أطفأ الله برحمته تلك الفتنة، وأخمد تلك الكلمة، ونصر السنَّة نصرًا عزيزًا، وفتح لأهلها فتحًا مبينًا، حتىٰ خرج بها علىٰ رءوس المنابر، ودُعيَ إليها في كلِّ باد وحاضر»[٢].

وهذه هي السمة البارزة لأهل السنَّة، وهي الثبات علىٰ الحق، ورسوخ القدم فيه، فلا يضرُّهم من خالفهم ولا من خذلهم، فهم الطائفة المنصورة والفرقة الناجية إلىٰ قيام الساعة.

ولذلك لمَّا سأل هرقلُ أبا سفيان بنَ حرب ﷺ عن أصحاب محمَّد ﷺ في المدَّة التي صالح فيها قريشًا: هل يرتدُّ أحدٌ منهم عن دينه سَخطةً له بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا، قال: وكذلك الإيمانُ إذا خالط بشاشة القلوب[٣].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا أهل السنَّة والحديث فما يُعلم أحدٌ من علمائهم ولا صالح عامَّتهم رجع قطُّ عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم النَّاس

---

(١) [السجدة: ٢٤].

(٢) «الصواعق المرسلة» (٣/ ١٠٧٣).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٢٧٨).

صبرًا على ذلك، وإن امتُحنوا بأنواع المحن وفُتنوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدِّمين كأهل الأخدود ونحوهم، وكسلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمَّة»[(١)].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو ضُرب وحُبس وأُوذي بأنواع الأذى ليَدَع ما علمه من شرع الله ورسوله الَّذي يجب اتِّباعُه واتِّبع حكم غيره؛ كان مستحقًّا لعذاب الله، بل عليه أن يصبر وإن أوذي في الله؛ فهذه سنَّة الله في الأنبياء وأتباعهم، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[(٤)]»[(٥)].

والله تعالى بيَّن في كتابة ثمرة الصبر والثبات، وأن العاقبة للمتَّقين، والخاتمة الحسنة لأهل السنَّة، وبقاء الذكر الحسن لهم دون غيرهم، وأن مآل البدع وأهلها الافتضاح والعاقبة السيِّئة في الدنيا والآخرة.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٥٠).

(٢) [العنكبوت:١-٣].

(٣) [محمد: ٣١].

(٤) [البقرة: ٢١٤].

(٥) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٣٧٣).

قال ابنُ الحنبليِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الغُربة والوحدة مؤلمتان للطِّباع، ولكن في العاقبة الثواب والانتفاع»[١].

وفي ذلك يقول المولىٰ -جلَّ في علاه-: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[٢].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

وقال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٤].

وقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[٥].

وقال في ثواب أهل الإيمان: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[٦]، وقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا

---

(١) «الرسالة الواضحة» (٢/ ٣٧٧).

(٢) [الأعراف: ١٣٧].

(٣) [يوسف: ٩٠].

(٤) [النحل: ٩٦].

(٥) [النحل: ١٢٧ - ١٢٨].

(٦) [المؤمنون: ١١١].

تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾[١]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٢].

وكان محمد بنُ شبرمة إذا نزل به بلاءٌ قال: «سحابة صيف، ثمَّ تنقشع»[٣].

وقد ذكر ابنُ القيِّم -رحمه الله تعالىٰ- جملة من فضائل الصبر في كتاب الله تعالىٰ في «مدارج السالكين»[٤]، فقال: «قَالَ الإِمَامُ أَحمَدُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: الصَّبرُ فِي القُرآنِ فِي نَحوِ تِسعِينَ مَوضِعًا، وَهُوَ وَاجِبٌ بِإِجمَاعِ الأُمَّةِ، وَهُوَ نِصفُ الإِيمَانِ، فَإِنَّ الإِيمَانَ نِصفَانِ: نِصفُ صَبرٍ، وَنِصفُ شُكرٍ، وَهُوَ مَذكُورٌ فِي القُرآنِ عَلَىٰ سِتَّةَ عَشَرَ نَوعًا».

ثم ذكر هذه الأنواع وأدلَّتها، فيُرجع إليه؛ فهو مبحثٌ نفيس، يُعين الصابرين ويحثُّهم علىٰ الثبات والصبر.

وقد بيَّن أهلُ العلم أنَّ من عودي من أهل السنَّة لأجل دينه وعلمه، فإن الله يرفع ذِكره ويقطع ذِكر عدوِّه وعدوِّ أهل السنَّة، قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: «وَالَّذِينَ قَالُوا عَن الرَّسُولِ إِنَّهُ أَبتَرُ، وَقَصَدُوا أَنَّهُ يَمُوتُ فَيَنقَطِعُ ذِكرُهُ، عُوقِبُوا بِانبِتَارِهِم، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾[٥]، فَلَا يُوجَدُ مَن شَنَأَ الرَّسُولَ إِلَّا بَتَرَهُ اللهُ، حَتَّىٰ أَهلُ البِدَعِ المُخَالِفُونَ لِسُنَّتِهِ، قِيلَ

---

(١) [الفرقان: ٧٥].

(٢) [الزمر: ١٠].

(٣) انظر: «عدة الصابرين» (ص:٧٧).

(٤) (٢/ ١٥٢).

(٥) [الكوثر: ٣].

لِأَبِي بَكرِ بنِ عَيَّاشٍ: إنَّ بِالمَسجِدِ قَومًا يَجلِسُونَ لِلنَّاسِ وَيَتَكَلَّمُونَ بِالبِدعَةِ، فَقَالَ: مَن جَلَسَ لِلنَّاسِ جَلَسَ النَّاسُ إلَيهِ، لَكِنَّ أَهلَ السُّنَّةِ يَبقَونَ، وَيَبقَىٰ ذِكرُهُم، وَأَهلَ البِدعَةِ يَمُوتُونَ، وَيَمُوتُ ذِكرُهُم»[١].

وقال **الحافظ الذهبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «سنَّة الله في كلِّ من ازدرىٰ العلماء؛ بقي حقيرًا»[٢].

قال **العلَّامة الشوكانيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولكن قد عرَّفناك في ترجمة ابن تيمية أنَّها جرت عادةُ الله سبحانه كما يدلُّ عليه الاستقراء برفع شأن من عُودي لسبب علمه، وتصريحه بالحق، وانتشار محاسنه بعد موته، وارتفاع ذكره، وانتفاع الناس بعلمه»[٣].

وقال **أيضًا عند حديثه عن شيخ الإسلام ابن تيمية**: «وهذه قاعدة مطَّردة في كلِّ عالم يتبحَّر في المعارف العلميَّة، ويفوق أهل عصره، ويدين بالكتاب والسنَّة، فإنَّه لابدَّ أن يستنكره المقصِّرون، ويقع له معهم محنةٌ بعد محنة، ثم يكون أمرُه الأعلىٰ، وقولُه الأولىٰ، ويكون له بتلك الزلازل لسانُ صدق في الآخرين، ويكون لعلمه حظٌّ لا يكون لغيره»[٤].

فالله تعالىٰ ناصرُ دينه، ورافعُ الحق وأهله، قال **العلَّامة ابنُ القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

(١) «الفتاوىٰ» (١٣/ ١٧٢).

(٢) «تاريخ الإسلام» (١٣/ ٢٥٦).

(٣) «البدر الطالع» (١/ ٣٣٤).

(٤) «البدر الطالع»(١/ ٦٥).

«والله عَزَّ وَجَلَّ يؤيِّد من ينافح عن رسوله تأييدًا خاصًّا، ويفتح له في معرفة نقد الحق من الباطل فتحًا بيِّنًا، وذلك من تمام حفظه لدينه؛ وأنَّه لا يزال من عباده طائفة قائمة بنصره إلىٰ أن يأتي أمر الله؛ جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه»[(١)].

فعلىٰ العبد أن يلتجئ إلىٰ الله تعالىٰ بالدعاء بالثبات والإعانة علىٰ الطاعة والاستقامة عليها، وعليه بهذا الدعاء: عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: **كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدعُو: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِن عَلَيَّ، وَانصُرنِي وَلَا تَنصُر عَلَيَّ، وَامكُر لِي وَلَا تَمكُر عَلَيَّ، وَاهدِنِي وَيَسِّر هُدَايَ إِلَيَّ، وَانصرنِي عَلَىٰ مَن بَغَىٰ عَلَيَّ، اللَّهُمَّ اجعَلنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكِ رَاهِبًا، لَكَ مِطوَاعًا، إِلَيكَ مُخبِتًا -أَو: مُنِيبًا-، رَبِّ تَقَبَّل تَوبَتِي، وَاغسِل حَوبَتِي، وَأَجِب دَعوَتِي، وَثَبِّت حُجَّتِي، وَاهدِ قَلبِي، وَسَدِّد لِسَانِي، وَاسلُل سَخِيمَةَ قَلبِي»**[(٢)].

الأسباب المعينة علىٰ الصبر:

لقد بيَّن الله تعالىٰ في كتابه، ونبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته، **جملة من الأسباب التي تعين علىٰ الصبر، إن عملها العبد قوي علىٰ مواجهة البلاء، وثبت علىٰ المحن،** وصبر علىٰ المصائب ومكائد أهل الفتن.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في **«قاعدة في الصبر»**[(٣)] **له عشرين**

---

(١) «فوائد حديثية» (ص: ٨٠).

(٢) رواه أبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود».

(٣) انظر: (ص٩٤-١٠٣).

سببًا، واختصرها تلميذه ابن القيم في «طريق الهجرتين»[١] إلىٰ عشرة أسباب، وسأختصرها هنا، لعل المبتلىٰ أن ينتفع بها، فيزداد صبره، فيعظم جزاؤه.

فمما يعين العبد علىٰ هذا الصبر عدة أشياء:

أحدها: **أن يشهد أن الله تعالىٰ خالق أفعال العباد**، حركاتهم وسكناتهم وإراداتهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فانظر إلىٰ الذي سلطهم عليك، ولا تنظر إلىٰ فعلهم بك، تستريح من الهم والغم والحزن.

الثاني: **أن يشهد ذنوبه، وأن الله إنما سلطهم عليه بذنبه**، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[٢]، فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه، اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطها عليه، عن ذمهم ولومهم والوقيعة فيهم، وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه ولا يرجع إلىٰ نفسه باللوم والاستغفار، فاعلم أن مصيبته مصيبة حقيقية، وإذا تاب واستغفر، وقال: هذا بذنوبي، صارت في حقه نعمة.

الثالث: **أن يشهد العبد حسن الثواب الذي وعده الله لمن عفا وصبر**، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣]. ولما كان الناس عند مقابلة الأذىٰ ثلاثة أقسام: ظالم يأخذ فوق

---

(١) انظر: (ص٢٧٦-٢٧٧).

(٢) [الشورىٰ: ٣٠].

(٣) [الشورىٰ: ٤٠].

حقه، ومقتصد يأخذ بقدر حقه، ومحسن يعفو ويترك حقه، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية فأولها للمقتصدين، ووسطها للسابقين، وآخرها للظالمين.

الرابع: **أن يشهد أنه إذا عفا وأحسن أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه**، ونقائه من الغش، والغل، وطلب الانتقام، وإرادة الشر، وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذته ومنفعته عاجلًا وآجلًا علىٰ المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافًا مضاعفة، ويدخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، فيصير محبوبًا لله.

الخامس: أن يعلم أنه ما انتقم أحد قط لنفسه إلا أورثه ذلك ذلًّا يجده في نفسه، فإذا عفا أعزه الله، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول: «**وَمَا زَادَ اللهُ عَبدًا بِعَفوٍ إِلَّا عِزًّا**»[2]، فالعزُّ الحاصل له بالعفو أحب إليه وأنفع له من العزِّ الحاصل له بالانتقام، فإن هذا عِزٌّ في الظاهر وهو يورث في الباطن ذُلًّا، والعفو ذل في الباطن، وهو يورث العز باطنًا وظاهرًا.

السادس -وهي من أعظم الفوائد-: **أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل**، وأنه نفسه ظالم مذنب، وأن من عفا عن الناس عفا الله عنه، ومن غفرغفر الله له، فإذا شهد أن عفوه عنهم وصفحه وإحسانه مع إساءتهم إليه، سبب لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله فيعفو عنه ويصفح ويحسن إليه علىٰ ذنوبه، ويسهل عليه عفوه وصبره، ويكفي العاقل هذه الفائدة.

---

(١) [آل عمران: ١٣٤].

(٢) رواه مسلم (٤٦٨٩).

السابع: **أن يعلم أنه إذا اشتغلت نفسه بالانتقام وطلب المقابلة ضاع عليه زمانه، وتفرق عليه قلبه، وفاته من مصالحه، ما لا يمكن استدراكه**، ولعل هذا يكون أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفا وصفح فرغ قلبه وجسمه لمصالحه التي هي أهم عنده من الانتقام.

الثامن: **أن انتقامه واستيفاءه وانتصاره لنفسه وانتقامه لها**، فإن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط[1]، فإذا كان هذا خير خلق الله وأكرمهم علىٰ الله لم يكن ينتقم لنفسه، مع أن أذاه أذىً لله، ويتعلق به حقوق الدِّين، ونفسه أشرف الأنفس، وأزكاها، وأبرها، وأبعدها من كل خُلقٍ مذموم، وأحقها بكل خُلقٍ جميل، ومع هذا فلم يكن ينتقم لها، فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها، وبما فيها من العيوب والشرور، بل الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يوجب عليه انتصاره لها.

التاسع: **إن أوذي علىٰ ما فعله لله أو علىٰ ما أمره به من طاعته ونهىٰ عنه من معصيته؛ وجب عليه الصبر ولم يكن له الانتقام، فإنه قد أوذي في الله، فأجره علىٰ الله**، ولهذا لما كان المجاهدون في سبيل الله ذهبت دماؤهم وأموالهم في الله لم تكن مضمونة، فإن الله تعالىٰ اشترىٰ منهم أنفسهم وأموالهم، فالثمن علىٰ الله لا علىٰ الخلق، فمن طلب الثمن منهم لم يكن له علىٰ الله ثمن، فإنه من كان في الله تلفه كان علىٰ الله خلفه.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٩٦)، ومسلم (٤٢٩٤).

وإن كان قد أوذي علىٰ معصية، فليرجع باللوم علىٰ نفسه، ويكون في لومه لها شغل عن لومه لمن آذاه.

وإن كان قد أوذي علىٰ حظٍّ، فليوطن نفسه علىٰ الصبر، فإن نيل الحظوظ دونه أَمرٌ أَمَرُّ من الصبر، فمن لم يصبر علىٰ حر الهواجر، والأمطار، والثلوج، ومشقة الأسفار، ولصوص الطريق، وإلا فلا حاجة له في المتاجر، وهذا أمر معلوم عند الناس أن من صدق في طلب شيء من الأشياء بذل من الصبر في تحصيله بقدر صدقه في طلبه.

العاشر: **أن يشهد معية الله معه إذا صبر، ومحبة الله له ورضاه،** ومن كان الله معه دفع عنه من أنواع الأذىٰ والمضرَّات ما لا يدفع عنه أحدٌ من خلقه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

الحادي عشر: **أن يشهد أن الصبر نصف الإيمان،** فلا يبدل من إيمانه جزءًا في نصرة نفسه، فإن صبر فقد أحرز إيمانه وصانه من النقص.

الثاني عشر: **أن يشهد أن صبره حكم منه علىٰ نفسه، وقهر لها، وغلبة لها،** فمتىٰ كانت النفس مقهورة معه مغلوبة، لم تطمع في استرقاقه، وأسره، وإلقائه في المهالك، ومتىٰ كان مطيعًا لها سامعًا منها مقهورًا معها، لم تزل به حتىٰ تهلكه، أو تتداركه رحمة من ربه.

---

(١) [الأنفال:٤٦].

(٢) [آل عمران:١٤٦].

فلو لم يكن في الصبر إلا قهره لنفسه ولشيطانه، فحينئذٍ يظهر سلطان القلب، وتثبت جنوده، فيفرح ويقوىٰ، ويطرد العدو عنه.

الثالث عشر: **أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولابد**، فإن الله وكيل من صبر وأحال ظالمه عليه، ومن انتصر بنفسه لنفسه وكله الله إلىٰ نفسه، فكان هو الناصر لها، فأين من نَاصِرُه الله خير النَّاصرين، إلىٰ من نَاصِرُه نفسه أعجز النَّاصرين وأضعفه.

الرابع عشر: **أن صبره علىٰ من آذاه واحتماله له يوجب رجوع خصمه عن ظلمه وندامته واعتذاره**، ولوم النَّاس له فيعود بعد إيذائه له مستحييًا منه، نادمًا علىٰ ما فعله، بل يصير مواليًا له، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

الخامس عشر: **ربما كان انتقامه ومقابلته سببًا لزيادة شرِّ خصمه، وقوة نفسه، وفكرته في أنواع الأذىٰ التي يوصلها إليه كما هو المشاهد**، فإذا صبر وعفا أمن من هذا الضرر، والعاقل لا يختار أعظم الضَّررين بدفع أدناهما، وكم قد جلب الانتقام والمقابلة من شرٍّ عجز صاحبه عن دفعه.

السادس عشر: **أن من اعتاد الانتقام ولم يصبر، لابد أن يقع في الظلم**، فإن النفس لا تقتصر علىٰ قدر العدل الواجب لها، لا علمًا، ولا إرادةً، وربما عجزت عن الاقتصار علىٰ قدر الحق، فإن الغضب يخرج بصاحبه إلىٰ حدٍّ لا يعقل ما يقول

---

(١) [فصلت: ٣٤].

وما يفعل، فبينا هو مظلوم ينتظر النَّصر والعزَّ، إذ انقلب ظالمًا ينتظر المقت والعقوبة.

السابع عشر: **أنَّ هذه المظلمة التي قد ظُلمها هي سبب، إما لتكفير سيئة، أو رفع درجة، فإذا انتقم ولم يصبر لم تكن مكفرة لسيئته، ولا رافعة لدرجته.**

الثامن عشر: **أن عفوه وصبره من أكبر الجند له علىٰ خصمه،** فإن من صبر وعفا كان صبره وعفوه موجبًا لذُلِّ عدوِّه، وخوفه وخشيته منه ومن الناس، فإنَّ الناس لا يسكتون عن خصمه وإن سكت هو، فإذا انتقم زال ذلك كله، ولهذا تجد كثيرًا من النَّاس إذا شتم غيره أو آذاه يُحبُّ أن يستوفي منه، فإذا قابله استراح وألقىٰ عنه ثقلًا كان يجده.

التاسع عشر: **أنه إذا عفا عن خصمه، استشعرت نفس خصمه أنه فوقه، وأنه قد ربح عليه، فلا يزال يرىٰ نفسه دونه،** وكفىٰ بهذا فضلًا وشرفًا للعفو.

العشرون: **أنه إذا عفا وصفح كانت هذه حسنة، فتولد له حسنة أُخرىٰ،** وتلك الأُخرىٰ تولد أُخرىٰ، وهلمَّ جرًّا، فلا تزال حسناته في مزيد، فإنَّ من ثواب الحسنة الحسنة، كما أنَّ من عقاب السيئة السيئة بعدها، وربما كان هذا سببًا لنجاته وسعادته الأبديَّة، فإذا انتقم وانتصر زال ذلك.

ويختصر هذه الأسباب العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «طريق الهجرتين»[1]، فيقول ما مختصره:

---

(١) انظر: (ص٢٧٦-٢٧٧).

والصبر علىٰ البلاء ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنَّها مقدرة في أم الكتاب قبل أن يخلق فلابد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاء.

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوىٰ، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة، أو الصبر والرضا علىٰ أحد القولين، فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوىٰ فلابد له منه وإلا تضاعفت عليه.

الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه، فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة.

السادس: أن يعلم أنَّ الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأنَّ العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه، فلينزل إلىٰ مقام الصبر عليها، فإن نزل عنه نزل إلىٰ مقام الظلم.

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي داء نافع ساقه إليه العليم بمصلحته، الرحيم به، فليصبر علىٰ تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه، فيذهب نفعه باطلًا.

الثامن: أن يعلم أن في عقبىٰ هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم ما لم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الداء ومرارته فلينظر إلىٰ عاقبته وحسن تأثيره.

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه؛ فيتبين حينئذٍ هل يصلح لاستخدامه، وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟، فإن ثبت اصطفاه واجتباه وخلع عليه خلع الإكرام، وألبسه ملابس الفضل، وجعل أولياءه وحزبه خدمًا له وعونًا له، وإن انقلب علىٰ وجهه ونكص علىٰ عقبيه طرد وصفع قفاه وأقصي وتضاعفت عليه المصيبة، وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة في حقه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أن المصيبة في حقه صارت نعمًا عديدة، وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة، وتشجيع القلب في تلك الساعة، والمصيبة لابد أن تقلع عن هذا وهذا، ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات، وعن الآخرة بالحرمان والخذلان؛ لأن ذلك تقدير العزيز العليم، وفضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

العاشر: أن يعلم أن الله يربي عبده علىٰ السَّرَّاء والضَّرَّاء، والنعمة والبلاء، فيستخرج من عبوديته في جميع الأحوال، فإن العبد علىٰ الحقيقة من قام بعبودية الله علىٰ اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله علىٰ حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب علىٰ وجهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته، فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت علىٰ محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت علىٰ البلاء والعافية، فالابتلاء كِير العبد ومحك إيمانه؛ فإما أن يخرج تبرًا أحمر، وإما أن

يخرج زغَلًا محضًا، وإما أن يخرج فيه مادتان: ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاء حتىٰ يخرج المادة النحاسية من ذهبه، ويبقىٰ ذهبًا خالصًا، فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية؛ لشغل قلبه بشكره ولسانه، اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وكيف لا يشكر من قيَّض له ما يستخرج خبثه ونحاسه، وصيَّره تبرًا خالصًا يصلح لمجاورته، والنظر إليه في داره.

فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر علىٰ البلاء، فإن قويت أثمرت الرضا والشكر، فنسأل الله أن يسترنا بعافيته، ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه.

وأختم هذا الفصل بقصيدة كنت قد كتبتها في الصبر علىٰ السنَّة والثبات عليها:

نُبِّـئتُ أَنَّ مُهَـدِّدًا يَـتَهَدَّدُ ... هُـدَّت عِظَـامُهُـمُ وَرُضَّ المِفـصَـلُ

وَأَتَت دَوَائِرُ كَيدِهِم فِي نَحرِهِم ... لَا تَجـزَعَنَّ فَمَكـرُهُـم مُـتَهَلهِـلُ

فَالسِّجنُ خَلوَتُـنَـا بِـرَبٍّ غَافِـرٍ ... وَالقَـتلُ دَربٌ لِلـشَّهَادَةِ وَالعُلُـو

إِن كُـنتَ يَـا ذَا لِلـتَّقَاتُلِ تَطلُـبُ ... فَابـرُز فَلَـستُ بِخَائِـفٍ يَـتَوَيَّلُ

إِنِّي بِسَيفِ الحَقِّ أَضرِبُ نَحرَكُـم ... بِمَقَاتِـلٍ تُعمِـي الشُّجَـاعَ وَتُـذهِلُ

ظَنُّوا ذَهَـابَ الحَـقِّ خَلـفَ دِمَائِـنَا ... لَكِـن سَـيَحفَظُهُ القَـوِيُّ الأَوَّلُ

كُـلُّ العِـبَادِ سَتَنقَـضِي أَعمَـارُهُـم ... مَـا بَـينَ نَـارٍ أَو جِـنَـانٍ فَاعمَلُـوا

لَكِـنَّ قَتلِي فِي سَـبِيـلِ الحَـقِّ لِي ... فَـوزٌ وَرَبِّ البَـيتِ مَـن ذَا يَعقِـلُ

فَالدَّربَ فَاسلُك يَا أُخَيَّ بِقُوَّةٍ ... وَاصدَع بِقَولِ الحَقِّ فَهُوَ المِعوَلُ

وَاصبِر فَإِنَّ اللهَ يَمتَحِنُ الفَتَىٰ ... هَل صَادِقٌ أَم أَنَّهُ مُتَزَلزِلُ

هَل إِنَّهُ مِثلُ الجِبَالِ رَوَاسِيًا ... أَم أَنَّهُ مُتَذَبذِبٌ مُتَمَلمِلُ

يَا رَبِّ نَرجُوكَ الثَّبَاتَ عَلَىٰ الهُدَىٰ ... ثُمَّ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِكَ نَسأَلُ

الفصل الثالث:
ذمُّ التلوُّن وعدم الثَّبات

إنَّ من أعظم سمات أهل السنَّة والجماعة: الثَّبات علىٰ الدِّين، وعدم التلوُّن بحسَب الأهواء والمصالح والعُقول، وذلك لأنَّهم يقيمون دينَهم واعتقادَهم علىٰ كتاب الله تعالىٰ وسنَّة نبيِّه ﷺ علىٰ فهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن سار علىٰ دربهم واقتفىٰ أثرهم، فهم يعبدون ربًّا واحدًا، ويسلكون دربًا وحدًا، ويسيرون علىٰ منهج وعقيدة واحدة، فلا يجد التَّلوُّن إليهم طريقًا، ولا التذبذب إليهم سبيلًا.

لذلك أمر الله ﷻ عباده بطلب الاستقامة وسلوك صراطها، فقال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1]، ولمَّا كان الثبات من الله تعالىٰ توجَّه العباد إليه بطلب ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[2].

وأخبر الله أهل الإيمان بقصص الأوَّلين ليثبِّت أهل الإيمان علىٰ إيمانهم،

---

(١) [الفاتحة: ٦].

(٢) [إبراهيم: ٢٧].

وأصحاب السنَّة على سنَّتهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

وقد ذمَّ الله تعالىٰ أهل التلوُّن في الدين، والمتقلِّبين بحسب أهوائهم وآرائهم، فكلَّ يوم على مذهب، وكلَّ حين بدين ورأي غير ما كانوا يعتقدون، حتَّىٰ أصبحوا كمن يعبد الله تعالىٰ على الحافَة، فأيُّ فتنة جاءتهم أسقطتهم على وجوههم في هوَّة الضلال، ووديان الهوىٰ والانحراف.

قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأخبر في كتابه بخسران المنقلب على وجهه عند الفتنة، الذي يعبد الله فيها على حرف، وهو الجانب والطرف الذي لا يستقرُّ من هو عليه، بل لا يثبت الإيمان إلا عند وجود ما يهواه من خير الدنيا»[2].

يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[3]، قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ومن النَّاس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه؛ إمَّا خوفًا، وإمَّا عادةً على وجه لا يثبت عند المحن»[4].

---

(١) [هود: ١٢٠].

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٢١٢).

(٣) [الحج: ١١].

(٤) «تفسير السعدي» (ص:٥٣٤).

فمن ترك الكتاب والسنَّة، وترك التوكُّل علىٰ الله، واعتمد علىٰ عقله ورأيه؛ فلا شكَّ بضلاله، وعدم ثباته علىٰ الحق والسنَّة.

يقول شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا تجد من تعوَّد معارضة الشَّرع بالرأي لا يَستقرُّ في قلبه الإيمان»[١].

فعلىٰ العبد أن يكون ثابتًا علىٰ دينه، ولا يكون كمن ذمَّه الله من المذبذبين، قال تعالىٰ: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾[٢].

قال الطبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنَّما عنىٰ الله بذلك: أن المنافقين متحيِّرون في دينهم، لا يرجعون إلىٰ اعتقاد شيء علىٰ صحَّة، فهم لا مع المؤمنين علىٰ بصيرة، ولا مع المشركين علىٰ جهالة، ولكنهم حيارَىٰ بين ذلك، فمثلهم المثلُ الذي ضرب لهم رسولُ الله ﷺ»[٣]، ثم ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ إِلَىٰ هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَىٰ هَذِهِ مَرَّةً**»[٤].

قال الإمام ابنُ بطَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلِّقًا علىٰ هذا الحديث: «كَثُر هذا الضَّرب من الناس في زماننا هذا لا كَثَّرهم الله، وسلَّمَنا وإيَّاكم من شرِّ المنافقين، وكيد الباغين، ولا جعلنا وإيَّاكم من اللاعبين بالدين، ولا من الذين استهوتهم الشياطين،

---

(١) «درء التعارض» (١/ ١٧٨).

(٢) [النساء: ١٤٣].

(٣) «تفسير الطبري» (٥/ ٣٣٥).

(٤) رواه مسلم (٢٧٨٤).

فارتدُّوا ناكصين، وصاروا حائرين»[١].

وأهل البدع كثير منهم يدخل في أهل النفاق والعياذ بالله تعالىٰ، قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية: «وعامَّة ما يوجد النِّفاق في أهل البدع»[٢].

ولخطورة التلوُّن وعدم الثبات علىٰ الدين، جاءت آثار كثيرة عن السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في ذمِّ التلوُّن في الدين، والتنقُّل بين الأهواء، وعدم الثبات علىٰ السنَّة والحقِّ، وجعلوا ذلك من أعظم علامات أهل الأهواء والبدع، بل واقع أهل البدع وتاريخهم يُثبت حيرتهم وتقلُّبهم بين الأهواء بحسب المصالح والأغراض، وباختلاف العقول والأهواء.

دخل أبو مسعود الأنصاريُّ رضي الله عنه علىٰ حذيفة رضي الله عنه فقال: أوصنا يا أبا عبد الله. فقال حذيفة: أمَا جاءك اليقين؟! قال: بلىٰ وربِّي. قال:«فإن الضلالة حقَّ الضلالة: أن تعرف اليوم ما كنت تنكر قبل اليوم، وأن تنكر اليوم ما كنت تعرف قبل اليوم، وإيَّاك والتلوُّن، فإن دين الله واحد»[٣].

وفي لفظ: أن أبا مسعود الأنصاريَّ رضي الله عنه جاء إلىٰ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فقال: أخبرنا بأمرٍ نأخذُ به بعدك. فقال حذيفة رضي الله عنه: «إن الضلالة حقَّ الضلالة: أن

---

(١) «الإبانة» (٢/ ٤٥٧-٤٥٨).

(٢) «بغية المرتاد» (ص:٣٤١).

(٣) رواه عبد الرزَّاق في «المصنَّف» (١١/ ٢٤٩)، وابنُ الجعد في «المسند» (ص:٤٥٢)، وابنُ بطَّة في «الإبانة» (٢/ ٥٠٤)، واللَّالكائيُّ في «السنَّة» (١/ ٩٠)، والبيهقيُّ في «السنن الكبرىٰ» (١٠/ ٤٢)، وغيرهم.

تعرف ما كنت تنكر، وتنكر ما كنت تعرف، فانظر الذي أنت عليه اليوم فتمسَّك به، فإنَّه لا يضرُّك فتنةٌ بعدُ»[١].

عن حذيفة ﷺ قال: «إن الفتنة تُعرض علىٰ القلوب، فأيُّ قلب أُشربها نُكتت فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلب أنكرها نُكتت فيه نكتةٌ بيضاء، فمن أحبَّ منكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا؟ فلينظر فإن رأىٰ حلالًا كان يراه حرامًا، أو حرامًا كان يراه حلالًا؛ فقد أصابته»[٢].

وعن عديِّ بن حاتم ﷺ قال: «إنَّكم لن تزالوا بخير ما لم تعرفوا ما كنتم تنكرون، وتنكروا ما كنتم تعرفون، وما دام عالمُكم يتكلَّم بينكم غير خائف»[٣].

وسُئل محمد بن كعب القرظيُّ: ما علامةُ الخذلان؟ قال: «أن يَستقبِحَ الرجلُ ما كان يَستحسن، ويَستحسن ما كان قبيحًا»[٤].

وعن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقُّل»[٥].

---

(١) رواه نُعيم بن حمَّاد في «الفتن» (١/ ٦٩).

(٢) رواه ابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (٧/ ٤٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥١٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، وابنُ عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ٢٥٨).

(٣) رواه ابنُ بطَّة في «الإبانة» (١/ ١٩٠-١٩١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٠/ ٩٢).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٤)، وابنُ عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٥/ ١٤٧).

(٥) رواه الدارميُّ في «السنن» (١/ ١٠٢)، وابنُ بطَّة في «الإبانة» (٢/ ٥٠٣)، والآجريُّ في «الشريعة» (١/ ٤٣٧).

وعن إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كانوا يرون التلوُّن في الدين من شكٍّ القلوب في الله»[١].

وقال مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الداءُ العُضال: التنقُّلُ في الدِّين». وقال: قال رجلٌ: «ما كنتَ لاعبًا به فلا تلعبَنَّ بدينك»[٢].

وعن معن بن عيسىٰ، قال: «انصرف مالك بنُ أنس يومًا من المسجد، وهو متَّكئٌ علىٰ يدي، قال: فلحقه رجلٌ يقال له: أبو الجويرية، كان يُتَّهم بالإرجاء، فقال: يا أبا عبد الله، اسمع منِّي شيئًا أكلِّمك به، وأحاجك، وأُخبرك برأيي، قال: فإن غلبتني؟ قال: فإن غلبتك اتبعتني، قال: فإن جاء رجل آخر، فكلَّمنا، فغلبنا؟ قال: نتبعه، فقال مالك: يا عبد الله، بعث الله محمَّدًا ﷺ بدين واحد، وأراك تنتقل من دين إلىٰ دين»[٣].

وعن هشام بن حسان، قال: جاء رجل إلىٰ الحسن فقال: يا أبا سعيد، تعالَ حتىٰ أخاصمك في الدين، فقال الحسن: «أما أنا فقد أبصرت ديني، فإن كنت أضللت دينك فالتمسه»[٤].

قال الإمام الآجريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد ذكرت هذا الباب في كتاب الفتن في أحاديث كثيرة، وقد ذكرت هاهنا طرفًا منها ؛ ليكون المؤمن العاقل يَحتَاط

---

(١) رواه ابن بطَّة في «الإبانة» (٢/ ٥٠٥).

(٢) رواه ابن بطَّة في «الإبانة» (٢/ ٥٠٦).

(٣) رواه ابن بطَّة في «الإبانة» (٢/ ٥٠٨).

(٤) رواه ابن بطَّة في «الإبانة» (٢/ ٥٠٩).

لدينه، فإن الفتن علىٰ وجوه كثيرة، وقد مضىٰ منها فتن عظيمة، نجا منها أقوام، وهلك فيها أقوام باتباعهم الهوىٰ، وإيثارهم للدنيا، فمن أراد الله به خيرًا فتح له باب الدعاء، والتجأ إلىٰ مولاه الكريم، وخاف علىٰ دينه، وحفظ لسانه، وعرف زمانه، ولزم المحجَّةَ الوَاضِحَة -السَّواد الأعظَم-، ولم يتلوَّن في دينه، وعبد ربَّه تعالىٰ، فترك الخوض في الفتنة، فإن الفتنة يفتضح عندها خلق كثير، ألم تسمع إلىٰ قول النبيِّ ﷺ، وهو محذِّر أمَّته الفتن؟ قال: «**يُصبحُ الرَّجُلُ مُؤمِنًا، وَيُمسِي كَافِرًا، وَيُمسِي مُؤمِنًا، ويُصبحُ كَافِرًا**»[(١)]»[(٢)].

ونقل ابنُ مفلح في «الآداب الشرعية» عن أبي الوفاء بن عقيل في «الفنون» قوله: «من صدر اعتقادُه عن برهان لم يبق عنده تلوُّن يراعي به أحوال الرجال»[(٣)].

وكما قيل:

«**يُقضَىٰ عَلَىٰ المَرءِ فِي أَيَّامِ مِحنَتِهِ حَتَّىٰ يَرَىٰ حَسَنًا مَا لَيسَ بِالحَسَنِ**»

يقول شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّك تجد أهل الكلام أكثر النَّاس انتقالًا من قول إلىٰ قول، وجزمًا بالقول في موضع، وجزمًا بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر؛ وهذا دليل عدم اليقين»[(٤)].

---

(١) رواه مسلم (١١٨).

(٢) «الشريعة» (١/ ٣٩٢-٣٩٣).

(٣) «الآداب الشرعية» (١/ ٢٨١).

(٤) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٥٠).

ويقول أيضًا: «من أعرض عن الطريقة السلفيَّة النبويَّة الشرعيَّة الإلهيَّة فإنَّه لابدَّ أن يضلَّ ويتناقض، ويبقىٰ في الجهل المركَّب أو البسيط»[١].

فهذه هي الطريقة السلفيَّة، لا تناقُض فيها ولا ضلال، ولا يمكن للعبد المسلم أن يجمع بين الحق والباطل، وبين أهل السنَّة والبدعة، فالحقُّ واحد وواضح، والضلال كثير وفاضح.

عن مبشِّر بن إسماعيل الحلبي قال: قيل للأوزاعي: إن رجلًا يقول: أنا أجالس أهل السنَّة، وأجالس أهل البدع، فقال الأوزاعيُّ: «هذا رجلٌ يريد أن يساوي بين الحق والباطل»[٢].

قال ابنُ بطَّة معلِّقًا: «قال الشيخ: صدق الأوزاعي، أقول: إنَّ هذا رجلٌ لا يعرف الحق من الباطل، ولا الكفر من الإيمان، وفي مثل هذا نزل القرآن، ووردت السنَّة عن المصطفىٰ ﷺ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾[٣]»[٤].

فمن كان كذلك فإنَّ السلف يحذِّرون منه ومن مجالسته، قال الإمام محمد ابن إسحاق أبو عبد الله بن منده الأصبهانيُّ: «طُفت الشرق والغرب مرَّتين،

---

(١) «درء التعارض» (٥/ ٣٥٦).

(٢) رواه ابن بطَّة في «الإبانة» (٢/ ٤٥٦).

(٣) [البقرة: ١٤].

(٤) «الإبانة» (٢/ ٤٥٦-٤٥٧).

فلم أتقرَّب إلىٰ كل مُذَبذَبٍ، ولم أَسمع من المبتدعين حديثًا واحدًا»[١].

يقول سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مذبذب: ليس عنده ثبات وليس عنده بصيرة، بل هو مع من نصر، ومع من رأىٰ فيه المصلحة، فإن رأىٰ المصلحة مع الكفَّار صار معهم، وإن رأىٰ المصلحة مع المسلمين صار مع المسلمين، ليس عنده هدف صالح، وليس عنده عقيدة ثابتة، هذه حال المنافقين، نسأل الله العافية»[٢].

وقال القحطانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«لَا تَمشِ ذَا وَجهَينِ مِن بَينِ الوَرَىٰ ... شَرُّ البَرِيَّةِ مَن لَهُ وَجهَانِ»[٣]

وقال الإمام الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلَفي السَّلَفي[٤]:

«فَلَا تَصْحَبْ سِوَىٰ السُّنِّيِّ دِينًا ... لِتَحْمَدَ مَا نَصَحْتُكَ فِي الْمَآلِ

وَجَانِبْ كُلَّ مُبْتَدِعٍ تَرَاهُ ... فَمَا إِنْ عِنْدَهُمْ غَيْرُ الْمُحَالِ

وَدَعْ آرَاءَ أَهْلِ الزَّيْغِ رَأْسًا ... وَلَا تَغْرُرْكَ حَذْلَقَةُ الرُّذَالِ

فَلَيْسَ يَدُومُ لِلبِدْعِيِّ رَأْيٌ ... وَمِنْ أَيْنَ الْمَقَرُّ لِذِي ارْتِحَالِ

يُوَافَىٰ حَائِرًا فِي كُلِّ حَالٍ ... وَقَدْ خَلَّىٰ طَرِيقَ الإِعْتِدَالِ

---

(١) «طبقات الحنابلة» (٢/ ١٦٦).

(٢) «مجموع فتاوىٰ ابن باز» (٦/ ٦٧).

(٣) «نونية القحطاني» (ص:٣٧).

(٤) «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٢١/ ٣٤ - ٣٦).

وَيَتْـــرُكُ دَائِـــبًا رَأْيًـــا لِـــرَأْيٍ وَمِـــنْهُ كَـــذَا سَـــرِيعُ الإِنْـــتِقَـــالِ
وَعُمْـــدَةُ مَـــا يَـــدِينُ بِـــهِ سَـــفَاهًا فَأَحْـــدَاثٌ مِـــنَ ابْـــوابِ الْجِـــدَالِ»

وقد ذكر شيخ الإسلام ابنُ تيمية جملةً من أقوال مشاهير أهل الكلام في اعترافهم بالحيرة بسبب بُعدهم عن طريق الكتاب والسنَّة وفهم سلف الأمَّة، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد ينصر المتكلِّمون أقوال السَّلف تارةً، وأقوال المتكلِّمين تارةً، كما يفعله غيرُ واحد مثل أبي المعالي الجُويني وأبي حامد الغزالي والرازي وغيرهم، ولازمُ المذهب الَّذي ينصرونه تارةً أنه هو المعتمد، فلا يثبتون علىٰ دين واحد، وتغلب عليهم الشكوك، وهذا عادةُ الله فيمن أعرض عن الكتاب والسنَّة»[1].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أبو حامد الغزالي: أكثر الناس شكًّا عند الموت أهلُ الكلام.

وهذا أبو عبد الله الرازي من أعظم النَّاس في هذا الباب: باب الحيرة والشك والاضطراب، لكن هو مسرفٌ في هذا الباب، بحيث له نهمةٌ في التشكيك دون التحقيق...

وكان من فضلاء المتأخِّرين وأبرعهم في الفلسفة والكلام ابنُ واصل الحموي، كان يقول: أستلقي علىٰ قفاي، وأضع الملحفة علىٰ نصف وجهي، ثم أذكر المقالات، وحجج هؤلاء وهؤلاء، واعتراض هؤلاء وهؤلاء، حتىٰ

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ١٥٧).

يطلع الفجر، ولم يترجَّح عندي شيء.

ولهذا أنشد الخطَّابي:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا حَقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ

فإذا كانت هذه حال حججهم؛ فأيُّ لغو باطل وحشو يكون أعظم من هذا، وكيف يليق بمثل هؤلاء أن ينسبوا إلىٰ الحشو أهلَ الحديث والسنَّة، الذين هم أعظم النَّاس علمًا ويقينًا وطمأنينةً وسكينةً، وهم الذين يعلمون ويعلمون أنهم يعلمون، وهم بالحق يوقنون لا يشكُّون ولا يمترون، فأمَّا ما أوتيه علماء أهل الحديث وخواصُّهم من اليقين والمعرفة والهدىٰ؛ فأمر يجلُّ عن الوصف، ولكن عند عوامِّهم من اليقين والعلم النافع ما لم يحصل منه شيءٌ لأئمَّة المتفلسفة المتكلِّمين، وهذا ظاهر مشهود لكلِّ أحد»[1].

وقال كذلك: «وتجد عامَّة هؤلاء الخارجين عن منهاج السلف من المتكلِّمة والمتصوِّفة يعترف بذلك، إمَّا عند الموت، وإمَّا قبل الموت، والحكايات في هذا كثيرة معروفة.

هذا أبو الحسن الأشعريُّ نشأ في الاعتزال أربعين عامًا، يناظِر عليه، ثم رجع عن ذلك، وصرَّح بتضليل المعتزلة، وبالغ في الرَّدِّ عليهم.

وهذا أبو حامد الغزاليُّ مع فرط ذكائه وتألُّهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوُّف، ينتهي في هذه المسائل إلىٰ الوقف

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٨-٢٩).

والحيرة، ويُحيل في آخر أمره علىٰ طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلىٰ طريقة أهل الحديث، وصنَّف «إلجام العوام عن علم الكلام».

وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرَّازي، قال في كتابه الَّذي صنَّفه في أقسام اللَّذَّات: لقد تأمَّلت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[1]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[2]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[3]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[4]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[5]، ثم قال: ومن جرَّب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي، وكان يتمثَّل كثيرًا:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِن جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًىٰ وَوَبَالُ
وَلَم نَستَفِد مِن بَحثِنَا طُولَ عُمرِنَا ... سِوَىٰ أَن جَمَعنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

وهذا إمامُ الحرمين ترك ما كان ينتحله ويقرِّره، واختار مذهب السلف، وكان يقول: يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو أنِّي عرفت أنَّ الكلام يبلغ بي إلىٰ ما بلغ، ما اشتغلت به، وقال عند موته: لقد خُضت البحر الخِضمَّ، وخلَّيت

---

(١) [طه: ٥].

(٢) [فاطر: ١٠].

(٣) [الشورىٰ: ١١].

(٤) [طه: ١١٠].

(٥) [مريم: ٦٥].

أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فيما نَهَوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربِّي برحمته، فالويل لابن الجويني! وهأنذا أموت علىٰ عقيدة أمِّي، أو قال: عقيدة عجائز نيسابور.

وكذلك قال أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستانيُّ، أخبر أنَّه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلِّمين إلَّا الحيرة والندم، وكان ينشد:

لَعَمرِي لَقَد طُفتُ المَعَاهِدَ كُلَّهَا وَسَيَّرتُ طَرفِي بَينَ تِلكَ المَعَالِمِ
فَلَم أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَىٰ ذَقنٍ او قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

وابنُ الفارض من متأخِّري الاتحادية، صاحب القصيدة التائية المعروفة بنظم السلوك، وقد نظم فيها الاتِّحاد نظمًا رائق اللفظ، فهو أخبث من لحم خنزير في صينية من ذهب، وما أحسن تسميتها بنظم الشكوك، الله أعلم بها وبما اشتملت عليه، وقد نفقت كثيرًا، وبالغ أهلُ العصر في تحسينها والاعتداد بما فيها من الاتحاد، لمَّا حضرته الوفاةُ أنشد:

إِن كَانَ مَنزِلَتِي فِي الحُبِّ عِندَكُمُ مَا قَد لَقِيتُ فَقَد ضَيَّعتُ أَيَّامِي
أُمنِيَّةٌ ظَفَرَت نَفسِي بِهَا زَمَنًا وَاليَومَ أَحسَبُهَا أَضغَاث أَحلَامِ»[1]

وهنا أبيات جميلة للعلَّامة الصنعانيِّ يردُّ بها علىٰ أبيات الشهرستاني السابق ذكرُها في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لَعَلَّكَ أَهمَلتَ الطَّوَافَ بِمَعهَدِ الرَّ سُولِ وَمَن لَاقَاهُ مِن كُلِّ عَالِمِ

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٧٢-٧٤).

فَمَا حَارَ مِن يَهدِي بِهَدي مُحَمَّد وَلَستَ تَرَاهُ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ»[١]

ومن الأبيات في الردِّ عليه كذلك ما نظمه العلَّامة سليمان بنُ عبد الله آل الشيخ بقوله:

«أَظُنُّكَ أَهمَلتَ الطَّوَافَ بمَعهَدٍ لِخَيرِ الهُدَاةِ المُرسَلِينَ الأَكَارِمِ
وَطَوَّفتَ فِي عَمياءَ بَادٍ ضَلَالُهَا بَنَاهَا ذَوُو الإِشرَاكِ مِن كُلِّ ظَالِمِ
فَلَاسِفَةٌ لَا يَعرِفُونَ إِلَهَهُم وَمَعبُودَهُم فَاعجَب لِهَذِي العَظَائِمِ
فَلَو كُنتَ أَكثَرتَ الطَّوَافَ بمَعهَدِ الرَّ سُولِ وَمَن لَاقَاهُ مِن كُلِّ عَالِمِ
لَمَا كُنتَ حَيرَانًا كَمَن تَبِعَ الخَطَا مَعَ الجَهلِ بالتَّنزِيلِ مِثلَ البَهَائِمِ
فَمَا ضَلَّ مَن يَمشِي عَلَىٰ إثرِ أَحمَد وَلَستَ تَرَاهُ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ»[٢]

ومن أعاجيب الأمثلة علىٰ التلوُّن والتقلُّب بحسَب المصلحة ما ذكره شيخ الإسلام ابنُ تيمية في «المنهاج»[٣] عن سبط ابن الجوزي: «يذكر في مصنَّفاته أنواعًا من الغثِّ والسمين، ويحتجُّ في أغراضه بأحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة، وكان يصنِّف بحسَب مقاصد الناس، يصنِّف للشيعة ما يناسبهم، ليعوِّضوه بذلك، ويصنِّف علىٰ مذهب أبي حنيفة، لبعض الملوك لينال أغراضه، فكانت طريقته، الواعظ الذي قيل له: ما مذهبُك؟ قال: في أيِّ مدينة؟ ولهذا يوجد في

(١) انظر: «حاشية درء تعاض العقل والنقل»، تحقيق د: محمد رشاد سالم (١/ ١٥٩).
(٢) نقلها الأخ هاني الحارثي من هامش الحموية بخطِّ الشيخ سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٣) (٤/ ٩٧).

بعض كتبه ثلبُ الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة -رضوان الله عليهم- لأجل مداهنة من قصد بذلك من الشيعة، ويوجد في بعضها تعظيمُ الخلفاء الراشدين وغيرهم».

وممَّن تراجع كذلك وعرف مفاسد علم الكلام وما عليه أهل الأهواء من الحيرة: العلَّامة ابنُ الوزير، يقولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنِّي ما زلتُ مشغوفًا بدرك الحقائق، مشغولًا بطلب المعارف، مؤثرًا الطلب لملازمة الأكابر، ومطالعة الدفاتر، والبحث عن حقائق مذاهب المخالفين، والتفتيش عن تلخيص أعذار الغالطين، محسِّنًا في ذلك للنيَّة، مُتحرِّيًا فيه لطريق السويَّة، مُتضرِّعًا إلىٰ الله تضرُّع مضطرٍّ مُحتار غريق في بحار الأنظار، طريح في مهاوي الأفكار، قد وهبت أيَّام شبابي ولذَّاتي وزمان اكتسابي ونشاطي لكدورة علم الكلام والجدال، والنظر في مقالات أهل الضلال، حتىٰ عرفت صحَّة قول من قال:

لَقَد طُفتُ فِي تِلكَ المَعَالِمِ كُلِّهَا ... وَسَيَّرتُ طَرفِي بَينَ تِلكَ المَعَالِمِ

فَلَم أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَىٰ ذَقَنٍ او قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

وسببُ إيثاري لذلك، وسلوكي تلك المسالك: أنَّ أوَّل ما قَرَع سَمعي، ورَسخ في طبعي: وجوب النَّظر، والقول بأنَّ من قلَّد في الاعتقاد فقد كفر، فاستغرقت في ذلك حدَّة نظري، وباكورة عمري، وما زلت أرىٰ كلَّ فرقة من المتكلِّمين تداوي أقوالًا مريضة، وتقوِّي أجنحة مهيضة، فلم أحصل علىٰ طائل، وتمثَّلت بقول القائل:

كُلٌّ يُدَاوي سَقِيمًا مِن مَقَالَتِهِ ... فَمَن لَنَا بِصَحِيحٍ مَا بِهِ سَقَمُ

فرجعت إلىٰ كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ، وقلت: لابدَّ أن يكون فيها براهين وردود علىٰ مخالفي الإسلام، وتعليم وإرشاد لمن اتَّبع الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، فتدبَّرت ذلك، فوجدت الشِّفاء كلَّه دقَّه وجلَّه، وانشرح صدري، وصلُح أمري، وزال ما كنت به مُبتلًىٰ، وأنشدت مُتمثِّلًا:

فَأَلقَت عَصَاهَا وَاستَقَرَّ بهَا النَّوَىٰ كَمَا قَرَّ عَينًا بِالإِيَابِ المُسَافِرُ»[1]

واستمع كذلك لاعتراف العلَّامة الشوكانيِّ حين يقول: «واعلم أنِّي عند الاشتغال بعلم الكلام، وممارسة تلك المذاهب والنِّحَل، لم أزدد بها إلا حيرةً، ولا استفدتُ منها إلَّا العلم بأن تلك المقالات خُزعبلات، فقلتُ إذ ذاك مُشيرًا إلىٰ ما استفدتُه من هذا العلم:

وَغَايَةُ مَا حَصَّلتُهُ مِن مَبَاحِثِي وَمِن نَظَرِي مِن بَعدِ طُولِ التَّدَبُّرِ

هُوَ الوَقفُ مَا بَينَ الطَّرِيقَينِ حَيرَةً فَمَا عِلمُ مَن لَم يَلقَ غَيرَ التَّحَيُّرِ

عَلَىٰ أَنَّنِي قَد خُضتُ مِنهُ غِمَارَهُ وَمَا قَنعَت نَفسِي بِدُونِ التَّبَحُّرِ

وعن هذا رميتُ بتلك القواعد من حالق، وطرحتها خلفَ الحائط، ورجعتُ إلىٰ الطريقة المربوطة بأدلَّة الكتاب والسنَّة، المعمودة بالأعمدة الَّتي علىٰ أوثقِ ما يعتمدُ عليه عباد الله، وهم الصحابة، ومن جاء بعدهم من علماء الأمَّة، المقتدِين بهم، السالكين مسالكهم، فطاحت الحيرة، وانجابت ظُلمة العماية، وانقشعت وانكشفت ستور الغواية، ولله الحمد»[2].

---

(١) «العواصم» (١/ ٢٠١-٢٠٢).

(٢) «أدب الطلب ومنتهىٰ الأرب» (ص: ١٤٦- ١٤٧).

وأختم بنصيحة للحافظ الذهبيِّ في هذا الباب، وبيان سبيل السلامة من الحيرة والضلال، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ من البلاء أن تعرف ما كنت تنكر، وتُنكر ما كنت تعرف، وتُقَدَّم عقول الفلاسفة، ويُعزَل منقول أتباع الرسل، ويُمارىٰ في القرآن، ويتبرَّم بالسنن والآثار، وتقع في الحيرة، فالفرار قبل حلول الدمار، وإيَّاك ومُضلَّات الأهواء، ومجاراة العقول، ومن يعتصم بالله، قد هُدي إلىٰ صراط مستقيم»[(١)].

وعلىٰ العبد أن يكثر من الدعاء بالسلامة من الحَور بعد الكَور، والاستعاذة من الفتن والحيرة، وسؤال الله تعالىٰ الثبات، كما في حديث شدَّاد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: إنَّ رسول الله ﷺ كان يقول في صلاته: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمرِ، وَالعَزِيمَةَ عَلَىٰ الرُّشدِ، وأَسأَلُكَ شُكرَ نِعمَتِكَ، وَحُسنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسأَلُكَ قَلبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسأَلُكَ مِن خَيرِ مَا تَعلَمُ، وَأَعُوذُ بكَ مِن شَرِّ مَا تَعلَمُ، وَأَستَغفِرُكَ لِمَا تَعلَمُ**»[(٢)].

(١) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٣٢٩).

(٢) رواه النسائيُّ (١٣٠٤)، والترمذيُّ (٣٤٠٧).

الفصل الرابع:
نماذج من محن الأئمَّة وصبرهم على السنَّة

إنَّ من أعظم ما يُسلِّي العبد السُّنِّيَّ المبتلىٰ من قِبَل أهل البدع والهوىٰ، نظرَه في سِيَر وتاريخ الأوَّلين، من الأنبياء والمرسلين، والصحابة الأكرمين، والأئمَّة المعتبرين، والهداة المهتدين، وكيف واجهوا البلاء في ذات الله، فصبروا حتَّىٰ علا شأنهم، وارتفعت منزلتهم، وكبت الله عدوَّهم، وأخزاهم في الدنيا والآخرة.

وهذا مقصد عظيم من مقاصد ذكر الله تعالىٰ لأخبار الرسل وقصصهم في كتاب الله تعالىٰ، كما قال المولىٰ ﷻ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[3].

---

(١) [هود: ١٢٠].

(٢) [الأنعام: ٣٤].

(٣) [الأحقاف: ٣٥].

يقول الإمام الطبريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلم يُخلِ -جلَّ ثناؤه- أحدًا من مُكرَّمي رُسُله، ومُقرَّبي أوليائه، من محنة في عاجلة دون آجلة؛ ليستوجب بصبره عليها من ربِّه من الكرامة ما أعدَّ له، ومن المنزلة لديه ما كتبه له»[١].

وقال له ﷺ ولأتباعه -رضوان الله عليهم-: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[٢].

قال وهب بنُ منبِّه: «من أُصيبَ بشيءٍ من البَلاء فقد سُلكَ به طريقُ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-»[٣]، يعني من أهل الصلاح والثبات علىٰ الحقِّ.

ويقول شيخ الإسلام ابنُ تيمية: «وفي قصص هذه الأمور عبرةٌ للمؤمنين بهم، فإنهم لابدَّ أن يُبتلوا بما هو أكثر من ذلك، ولا ييأسوا إذا ابتُلوا بذلك، ويعلمون أنه قد ابتُلي به من هو خير منهم، وكانت العاقبة إلىٰ خير، فليتيقَّن المرتاب، ويتوب المذنب، ويقوىٰ إيمان المؤمنين، فبها يصحُّ الاتِّساء بالأنبياء، كما في قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[٤]، وفي القرآن من قصص المرسلين التي فيها تسلية وتثبيت، ليتأسَّىٰ بهم في الصبر علىٰ ما كُذبوا وأوذوا»[٥].

---

(١) «صريح السنَّة» (ص:١٦).

(٢) [البقرة:٢١٤].

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٥٦).

(٤) [الأحزاب: ٢١].

(٥) «مجموع الفتاوىٰ» (١٥/ ١٧٨-١٧٩).

ويسرد لنا العلَّامة ابنُ القيِّم جملةً ممَّا ابتُلي به الأنبياء في طريقهم في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «طريقٌ تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمِيَ في النار الخليل، وأُضجع للذبح إسماعيل، وبيعَ يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونُشِرَ بالمنشار زكريا، وذُبِحَ السيِّد الحصور يحيىٰ، وقاسىٰ الضُّرَّ أيوب، وزاد علىٰ المقدار بكاءُ داود، وسار مع الوحش عيسىٰ، وعالج الفقر وأنواع الأذىٰ محمَّد... وتزهىٰ أنت باللهو واللعب؟!»[1].

ولأجل هذا المقصد وهو تسلية المصاب والمبتلىٰ، سأسرد للقارئ الكريم جملةً من قصص العلماء، وكيف كادهم أهل الأهواء، لنقتدي بهم في الصبر علىٰ البلاء، ولنعرف خبث وكيد أهل الأهواء، وخطورتهم علىٰ السنَّة وأهلها.

قال سلمة بنُ سعيد: «العلماء سُرُج الأزمنة، فكلُّ عالم مصباح زمانه فَبِهِ يستضيء أهل عصره، وكان يقول: العلماء تنسخ مكايد الشيطان»[2].

ويقول شيخنا العلامة ربيع بن هادي المدخلي -حفظه الله-: «والأمثلة كثيرة في الإسلام للثابتين الصادقين، حتىٰ قبلنا -قبل هذه الأمة- كان هناك من تُحفر له الأرض، ويشقُّ نصفين، لا يصدُّه ذلك عن دينه.

هذه الأمور أمثلةٌ للمؤمنين الصادقين، تحفِّزهم علىٰ الاستقامة والثبات، فلا تضرُّهم كثرة الهالكين، ولا قلَّة المستقيمين الثابتين علىٰ الحق، والجماعة

---

(١) «الفوائد» (ص:٤٢).

(٢) «الإبانة» لابن بطَّة (١/ ٢٠٣).

مع من كان علىٰ الحق، كائنًا من كان، ولو كان وحده، لو أنَّ النَّاس كلهم اجتمعوا علىٰ الباطل وأنت علىٰ الحق؛ فأنت علىٰ الحق وأنت الجماعة، فلا يغرنَّكم كثرة الزَّبد فإنَّما هم غثاءٌ كغثاء السيل، كما قال رسول الله ﷺ، أهل البدع والله غثاء غثاء، أهل الباطل والله غثاء، والنَّاس هم أهل الحق ولو كانوا قلَّة، ولو كانوا في غاية الغُربة»[1].

وقد اخترت بعض هذه النماذج، وإلَّا فما تركته، وما لم أصل إليه، فهو أكثر وأكثر، أسأل الله تعالىٰ لي ولكم الثبات علىٰ الحق والسنَّة، فيا مقلِّب القلوب ثبِّت قلوبنا علىٰ دينك.

❊ ❊ ❊

(١) من محاضرة مفرغة بعنوان: «الثبات علىٰ السنة».

(١) محنة الإمام مالك بن أنس (ت:١٧٩هـ)

هو الإمام شيخ الإسلام حجَّة الأمَّة إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس الحميري ثمَّ الأصبحي المدني.

قال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا ذُكر العلماء فمالكٌ النجم»[١].

ومن أقواله في ذمِّ البدع وأهلها، قوله: «لا يؤخذ العلم عن أربعة: سفيه يعلن السَّفه وإن كان أروىٰ النَّاس، وصاحب بدعة يدعو إلىٰ هواه، ومن يكذب في حديث النَّاس وإن كنت لا أتَّهمه في الحديث، وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ ما يحدِّث به»[٢].

أمَّا محنتُه فيقول الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال محمد بنُ جرير: كان مالك قد ضُرب بالسياط، واختُلف في سبب ذلك، فحدَّثني العبَّاس بن الوليد، حدَّثنا ابن ذكوان، عن مروان الطَّاطري، أنَّ أبا جعفر نهىٰ مالكًا عن الحديث: «ليس علىٰ مستكرَه طلاق»، ثم دسَّ إليه من يسأله، فحدَّثه به علىٰ رءوس الناس، فضربه بالسياط.

وحدَّثنا العباس، حدَّثنا إبراهيم بن حماد، أنه كان ينظر إلىٰ مالك إذا أقيم

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٨/ ٥٧).

(٢) «السير» (٨/ ٦٧).

من مجلسه، حَمَل يده بالأخرىٰ.

ابن سعد: حدَّثنا الواقدي قال: لمَّا دُعي مالك، وشُوورَ، وسُمِع منه، وقُبل قوله، حُسد، وبَغَوه بكلِّ شيء، فلمَّا ولِيَ جعفر بن سليمان المدينة، سَعَوا به إليه، وكثَّروا عليه عنده، وقالوا: لا يَرىٰ أيمان بيعتكم هذه بشيء، وهو يأخذ بحديثٍ رواه عن ثابت بن الأحنف في طلاق المُكره: أنه لا يجوز عنده، قال: فغضب جعفر، فدعا بمالك، فاحتج عليه بما رُفع إليه عنه، فأمر بتجريده، وضَربه بالسِّياط، وجُبِذَت يده حتىٰ انخلعت من كتفه، وارتكب منه أمرٌ عظيمٌ، فواللهِ ما زال مالكٌ بَعدُ في رفعةٍ وعُلوٍّ.

قلت: هذا ثمرة المحنة المحمودة، أنَّها ترفع العبد عند المؤمنين، وبكلِّ حال فهي بما كسبت أيدينا، ويعفو الله عن كثير، «**مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيرًا يُصِب مِنهُ**»(١)، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**كُلُّ قَضَاءِ المُؤمِنِ خَيرٌ لَهُ**»(٢)، وقال الله تعالىٰ: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ**﴾(٣)، وأنزل الله تعالىٰ في وقعة أُحدٍ قوله: ﴿**أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾(٤)، وقال: ﴿**وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ**﴾(٥)،

---

(١) رواه البخاري (٥٣٢١).

(٢) رواه أحمد في المسند (٥/ ٢٤) بلفظ: «**عجبًا للمُؤمِن! لَا يقضي الله له شيئًا إلا كان خيرًا له**». وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٧).

(٣) [محمد: ٣١].

(٤) [آل عمران: ١٦٥].

(٥) [الشورىٰ: ٣٠].

فالمؤمن إذا امتُحن صبر واتَّعظ واستغفر، ولم يتشاغل بذمِّ من انتقم منه، فالله حكمٌ مُقسطٌ، ثم يحمدُ الله علىٰ سلامةِ دينه، ويعلم أنَّ عقوبةَ الدَّنيا أهونُ وخيرٌ له»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٧٩-٨١).

(٢) محنة الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت:٢٠٤هـ)

هو الإمام، عالمُ العصر، ناصرُ الحديث، فقيهُ الملَّة، أبو عبد الله محمدُ بنُ إدريس القرشي ثمَّ المطَّلِبي، قال الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أفرد الدارقطنيُّ كتاب من له رواية عن الشافعي في جزأين، وصنَّف الكبارُ في مناقب هذا الإمام قديمًا وحديثًا، ونال بعضُ الناس منه غَضًّا[١]، فما زاده ذلك إلَّا رفعةً وجلالةً، ولاح للمُنصفين أن كلام أقرانه فيه بهوىٰ، وقَلَّ من برز في الإمامة، وردَّ علىٰ من خالفه، إلَّا وعُودي، نعوذ بالله من الهوىٰ»[٢].

عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، سمعت محمد بن داود يقول: «لم يحفظ في دهر الشافعي كلِّه أنَّه تكلَّم في شيء من الأهواء، ولا نُسب إليه، ولا عُرف به، مع بُغضه لأهل الكلام والبدع»[٣].

وله رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرٌ من الأقوال في السنَّة والحثِّ عليها، والحذر والتحذير من أهل الأهواء والبدع.

---

(١) غَضًّا: من الغض وهو النقص؛ أي: أنقصوا من قدره. «مختار الصحاح» (ص:١٩٩).

(٢) «السير» (١٠/ ٨-٩).

(٣) «السير» (١٠/ ٢٦).

قال الشافعيُّ: «لَأَن يلقىٰ اللهَ العبدُ بكلِّ ذنب إلَّا الشرك خيرٌ من أن يلقاه بشيء من الأهواء»[١].

ويقول: «لو علم الناسُ ما في الكلام من الأهواء؛ لفرُّوا منه كما يفرُّون من الأسد»[٢].

وعن يونس قال: قلتُ للشافعي: صاحبُنا اللَّيثُ يقول: لو رأيتُ صاحبَ هوىٰ يمشي علىٰ الماء ما قبلتُه، قال: «قصَّرَ، لو رأيتُه يمشي في الهواء لما قبلتُه»[٣].

وقال الشافعيُّ: «حُكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد، ويُحملوا علىٰ الإبل، ويُطاف بهم في العشائر، يُنادىٰ عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنَّة، وأقبل علىٰ الكلام»[٤].

وقال أبو عبد الرحمن الأشعري صاحبُ الشافعي: قال الشافعيُّ: «مذهبي في أهل الكلام تقنيعُ رءوسهم بالسياط، وتشريدُهم في البلاد»[٥].

وقد اتُّهم رَحِمَهُ اللَّهُ بالتشيُّع، ولا يصحُّ عنه ذلك، فهو صاحب سنَّة، فعن أحمد ابن حنبل وسُئل عن الشافعي فقال: «لقد مَنَّ الله علينا به، لقد كنَّا تعلَّمنا كلام

---

(١) «السير» (١٠/ ١٦).

(٢) «السير» (١٠/ ١٦).

(٣) «السير» (١٠/ ٢٣).

(٤) «السير» (١٠/ ٢٩).

(٥) «السير» (١٠/ ٢٩).

القوم، وكتبنا كتبهم، حتَّىٰ قدم علينا، فلمَّا سمعنا كلامه، علمنا أنَّه أعلمُ من غيره، وقد جالسناه الأيام والليالي، فما رأينا منه إلَّا كلَّ خير»، فقيل له: يا أبا عبد الله، كان يحيىٰ وأبو عبيد لا يرضَيانه -يشير إلىٰ التشيُّع وأنَّهما نسباه إلىٰ ذلك-، فقال أحمد بن حنبل: «ما ندري ما يقولان، والله ما رأينا منه إلَّا خيرًا». قال الذهبيُّ معلِّقًا: «من زعم أنَّ الشافعي يتشيَّع فهو مُفتَرٍ لا يدري ما يقول»[1].

ومن أسباب الكلام علىٰ الشافعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ من بعض النَّاس ما قاله الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا ريب أنَّ الإمام لمَّا سكن مصر، وخالف أقرانه من المالكية، ووهَّىٰ بعض فروعهم بدلائل السنَّة، وخالف شيخه في مسائل، تألَّمُوا منه، ونالوا منه، وجَرَت بينهم وحشة -غفر الله للكلِّ-، وقد اعترف الإمام سحنون وقال: لم يكن في الشافعيِّ بدعة، فصدق والله، فرحم الله الشافعيَّ، وأين مثلُ الشافعي، واللهِ في صدقه وشرفه ونُبله وسَعة علمه وفرط ذكائه ونصره للحقِّ وكثرة مناقبه، رحمه الله تعالىٰ؟!»[2].

وقد كِيد له رَحِمَهُ اللَّهُ عند هارون الرشيد لمَّا خَرَج إلىٰ اليمن مع مُصعب بن عبد الله، ذكر الذهبيُّ ذلك عن الشافعيِ: «قال لي مُصعبٌ: إنَّ الرَّشيد كتب إليَّ أن أَصير إلىٰ اليمن قاضيًا، فتخرج معنا لعلَّ الله أن يعوِّضك، فخرجت معه، وجالسنا النَّاس، فكتب مطرِّف بنُ مازن إلىٰ الرَّشيد: إن أردتَ اليمن لا يفسد عليك ولا يخرج من يدك، فأخرج عنه محمدَ بن إدريس، وذكر أقوامًا من

---

(١) «السير» (١٠/ ٥٨).

(٢) «السير» ١٠/ ٩٥).

الطالبيِّين، فبعث إلىٰ حمَّاد البربري، فأُوثقتُ بالحديد حتَّىٰ قدمنا علىٰ هارون الرَّقَّة، فأُدخلت عليه وذكر اجتماعه بعدُ بمحمَّد بن الحسن، ومناظرته له»[١].

ويذكر الإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ **ما جرىٰ بينه وبين الرشيد بسنده**[٢] فقال: «حُمل الشافعي من الحجاز مع قوم من العلوية تسعة وهو العاشر إلىٰ بغداد، وكان الرَّشيد بالرَّقَّة، فحُملوا من بغداد إليه، وأدخلوا عليه، ومعه قاضيه محمد بن الحسن الشيباني، وكان صديقًا للشافعي، وأحد الذين جالسوه في العلم وأخذوا عنه، فلمَّا بلغه أنَّ الشَّافعي في القوم الذين أُخذوا من قريش بالحجاز، واتُّهموا بالطَّعن علىٰ الرشيد، والسَّعي عليه؛ اغتمَّ لذلك غمًّا شديدًا، وراعىٰ وقت دخولهم علىٰ الرَّشيد.

قال: فلمَّا أُدخلوا علىٰ الرَّشيد سألهم، وأمر بضرب أعناقهم، فضُربت أعناقهم إلىٰ أن بقي حَدَثٌ علوي من أهل المدينة وأنا، فقال للعلوي: أأنت الخارج علينا، والزاعم أني لا أصلح للخلافة؟، فقال العلوي: أعوذ بالله أن أدَّعي ذلك أو أقوله، قال: فأُمر بضرب عنقه، فقال له العلوي: إن كان لابد من قتلي فأنظرني أكتب إلىٰ أُمي بالمدينة، فهي عجوز لم تعلم بخبري، فأمر بقتله فقتل، ثم قُدِّمتُ، ومحمد بن الحسن جالسٌ معه، فقال لي مثل ما قال للفتىٰ. فقلت: يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي، وإنَّما أُدخلت في القوم بَغيًا علي، وإنما أنا رجلٌ من بني المطلب بن عبد مناف بن قصي، ولي مع ذلك حَظٌّ

(١) «السير» (١٠/ ٨٦).

(٢) «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء» (ص:٩٧).

من العلم والفقه، والقاضي يعرفُ ذلك، أنا محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف. فقال لي: أنت محمد بن إدريس، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ما ذكرك لي محمد بن الحسن، ثم عطف علىٰ محمد بن الحسن، فقال: يا محمد، ما يقول هذا هو كما يقوله؟، قال: بلىٰ، وله من العلم محلٌّ كبيرٌ، وليس الذي رُفع عليه من شأنه. قال: فخُذه إليك حتىٰ أنظر في أمره، فأخذني محمد، وكان سبب خلاصي لما أراد الله ﷻ منه».

(٣) محنة الإمام محمد بن نوح (ت: ٢١٨هـ)

هو الإمام محمد بنُ نوح بن ميمون بن عبد الحميد بن أبي الرجال، العجلي، المعروف والده بالمضروب، أحد المشهورين بالسنَّة[١].

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ممَّن ابتُلي فمات في فتنة خلق القرآن، وكان قد قُيِّد مع الإمام أحمد وسِير به فمات في الطريق، فصلَّىٰ عليه الإمام أحمد وأثنىٰ عليه.

قال الخطيب البغدادي: «وكان المأمون كتب وهو بالرَّقَّة إلىٰ إسحاق بن إبراهيم صاحب الشرطة ببغداد، بحمل أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح إليه بسبب المحنة، فأُخرجا من بغداد، علىٰ بعير متزامِلَين، ثمَّ إنَّ محمد بن نوح أدركه المرض في طريقه»[٢].

قال صالح: «لمَّا صَدَر أبي ومحمد بن نوح إلىٰ طَرَسُوسَ رُدَّا في أقيادهما، فلمَّا صار إلىٰ الرَّقَّة حُملا في سفينة، فلمَّا وصلا إلىٰ عانة، توفِّي محمَّد، وفُكَّ قيده، وصَلَّىٰ عليه أبي».

وقال حنبل: «قال أبو عبد الله: ما رأيت أحدًا علىٰ حداثة سِنِّهِ، وقَدر علمه

(١) «تاريخ بغداد» (٣/ ٣٢٢).
(٢) «تاريخ بغداد» (٣/ ٣٢٣).

أقوم بأمر الله من محمد بن نوح، إنِّي لأرجو أن يكون قد خُتم له بخير، قال لي ذات يوم: يا أبا عبد الله، اللهَ، اللهَ، إنَّك لستَ مثلي، أنت رجل يُقتدىٰ بك، قد مدَّ الخلق أعناقَهم إليك، لِما يكون منك، فاتَّق اللهَ، واثبُت لأمر الله، أو نحو هذا، قال أبو عبد الله: فعَجِبتُ من تَقويته لي وموعظته إيَّاي، ثم قال أبو عبد الله: انظر بما خُتم له، فلم يزل ابنُ نوح كذلك، ومرض حتَّىٰ صَار إلىٰ بعض الطَّريق فمات، وصلَّيت عليه، ودفنتُه، أظنُّ قال: بعانَة»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «تاريخ بغداد» (٣/ ٣٢٣)، و«السير» (١١/ ٢٤٢).

(٤) محنة الإمام أبي مسهر (ت: ٢١٨هـ)

أبو مسهر شيخ أهل الشام وعالمُهم: عبدُ الأعلىٰ بنُ مُسهر الغسَّاني الدمشقي الحافظ، يُعرف بابن أبي ذرامة[١].

قال أبو داود: سمعت أحمد بنَ حنبل يقول: «رحم اللهُ أبا مُسهر ما كان أثبتَه، وجعل يُطريه».

وقال أبو زرعة الدمشقيُّ: قال يحيىٰ بنُ مَعين: «منذ خرجتُ من بغداد إلىٰ أن رجعتُ لم أرَ مثلَ أبي مسهر».

وكان أبو مسهر ممَّن امتحنه المأمون، وأكرهه علىٰ أن يقول القرآن مخلوق، فأصرَّ وصمَّم، فوضعه في النَّطع ليضرب عنقه، فأجاب وقال: القرآن مخلوق، فأُقيم من النَّطع، فرجع في الحال، فسجنه المأمون نحوًا من مائة يوم، وجاءه الأجل فمات في سنة ثماني عشرة ومائتين رَحِمَهُ اللَّهُ[٢].

قال ابنُ سعدٍ: «وكان أُشخص من دمشق إلىٰ المأمون بالرَّقَّة، فسأله عن القرآن، فقال: هو كلام الله. وأبىٰ أن يقول: مخلوق، فدعا له بالسيف والنَّطع

(١) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٣٨١).

(٢) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٣٨١).

ليضرب عنقه، فلمَّا رأىٰ ذلك، قال: مخلوق، فتركه من القتل، وقال: أمَّا إنَّك لو قلتَ ذاك قبل أن أدعو لك بالسيف لقَبِلتُ منك، ورددتك إلىٰ بلادك وأهلك، ولكنَّك تخرج الآن فتقول: قلتُ ذاك فَرَقًا من القتل، أشخِصوه إلىٰ بغداد فاحبسوه بها حتَّىٰ يموت، فأُشخص من الرَّقَّة إلىٰ بغداد في شهر ربيع الآخر سنة ثماني عشرة ومائتين، فحبس قِبلَ إسحاق بن إبراهيم، فلم يلبث في الحبس إلا يسيرًا حتىٰ مات فيه في غرَّة رجب سنة ثماني عشرة ومائتين، فأخرج ليدفن فشهده قومٌ كثيرٌ من أهل بغداد»[1].

وقال الذهبيُّ: «أبو الدحداح أحمد بنُ محمد: حدَّثنا الحسن بنُ حامد النيسابوريُّ، حدَّثني أبو محمد: سمعتُ أصبغ وكان مع أبي مسهر هو وابنُ أبي النجا خرجا معه يخدمانه، فحدَّثني أصبغ: أنَّ أبا مسهر دخل علىٰ المأمون بالرَّقَّة، وقد ضرب رقبةَ رجل وهو مطروح، فأَوقفَ أبا مسهر في الحال فامتحنه فلم يُجبه، فأمر به فوضع في النَّطع ليضرب عنقه، فأجاب إلىٰ خلق القرآن، فأُخرج من النَّطع، فرجع عن قوله، فأُعيد إلىٰ النَّطع، فأجاب، فأمر به أن يوجَّه إلىٰ العراق، ولم يَثِق بقوله، فما حذر، وأقام عند إسحاق بن إبراهيم؛ يعني: نائب بغداد، أيامًا لا تبلغ مائة يوم ومات رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[2].

قال أبو داود السجستانيُّ: «رحم الله أبا مسهر، لقد كان من الإسلام بمكان،

(١) «الطبقات» (٧/ ٤٧٣).

(٢) «السير» (١٠/ ٢٣٤).

حُمل على المحنة فأبىٰ، وحُمل علىٰ السيف فمدَّ رأسه، وجُرِّد السيف فأبىٰ، حُمل علىٰ المحنة فأبىٰ، وحُمل علىٰ السيف فمدَّ رأسه، وجُرِّد السيف فأبىٰ، فلمَّا رأوا ذلك منه حُمل إلىٰ السجن فمات»[1].

❋ ❋ ❋

(١) «السير» (١٠/ ٢٣٦).

(٥) محنة الإمام أبي نعيم
(ت: ٢١٨ أو ٢١٩هـ)

هو الحافظ الكبير شيخ الإسلام، الفضلُ بنُ دُكَين، واسمُه عمرو بنُ حمَّاد ابن زهير بن درهم التيميُّ الطلحيُّ القُرَشي مولاهم، الكوفي المُلائي، الأحول، مولىٰ آل طلحة بن عبيد الله[(١)]، امتُحن رَحِمَهُ اللَّهُ في فتنة خلق القرآن، قال الذهبيُّ: «وقام في أمر الامتحان بما لم يَقُم غيرُه، عافاه الله»[(٢)].

وقال أحمد بنُ سنان: «لمَّا امتُحن أبو نعيم الفضل بنُ دكين وأحمد بنُ يونس وأصحابُه، ثبت أبو نُعيم»[(٣)].

وكان الإمام أحمد يقول: «شيخين كان يتكلَّمون فيهما ويذكرونهما، وكنَّا نلقىٰ من النَّاس في أمرهما ما اللهُ به عليم، قاما لله بأمر لم يقُم به أحدٌ، أو كثيرُ أحد، مثل ما قاما به: عفَّان وأبو نُعيم».

علَّق الخطيب البغداديُّ علىٰ ذلك قائلًا: «يعني أبو عبد الله بذلك: امتناعَهما

(١) «السير» (١٠/ ١٤٢).
(٢) «العبر» (١/ ٣٧٧).
(٣) «الحجَّة في بيان المحجَّة» (١/ ٣٦٨).

من الإجابة إلىٰ القول بخلق القرآن عند امتحانهما، وكان امتحانُ أبي نُعيم بالكوفة، قرأتُ علىٰ البَرقانيِّ عن أبي إسحاق المزكِّي، قال: أخبرنا محمد بن إسحاق الثقفيُّ، قال: سمعت محمد بنَ يونس، قال: لمَّا أُدخل أبو نُعيم علىٰ الوالي ليمتحنه، وثَمَّ ابنُ أبي حنيفة وأحمد بنُ يونس وأبو غسَّان وعِدَادٌ، فأوَّلُ مَن امتُحِن ابنُ أبي حنيفة فأجاب، ثم عطف علىٰ أبي نُعيم، فقال: قد أجاب هذا فقال ما يقول، واللهِ ما زلتُ أتَّهم جدَّه بالزندقة، ولقد أخبرني يونس بنُ بكير: أنَّه سمع جدَّ هذا يقول: لا بأس أن ترميَ الجمرة بالقوارير، أدركتُ الكوفة وبها أكثر من سبعمائة شيخ، الأعمش فمَن دونه، يقولون: القرآنُ كلامُ الله، وعُنُقي أهونُ عندي من زِرِّي هذا، فقام إليه أحمد بنُ يونس: فقبَّل رأسَه، وكان بينهما شَحناء، وقال: جزاك الله من شيخ خيرًا.

أخبرنا محمد بن أحمد بن أبي طاهر الدَّقَّاق، أخبرنا أبو بكر أحمد بن سلمان النَّجَّاد، حدَّثنا الكديميُّ محمد بنُ يونس، قال: سمعتُ أبا بكر بنَ أبي شيبة يقول: لمَّا أن جاءت المحنة إلىٰ الكوفة، قال لي أحمد بنُ يونس: القَ أبا نُعَيم فقل له، فلقيتُ أبا نعيم فقلتُ له، فقال: إنَّما هو ضَربُ الأسياط. قال ابنُ أبي شيبة: فقلتُ له: ذهب حديثُنا عن هذا الشيخ، فقيل لأبي نُعيم، فقال: أدركتُ ثلثمائة شيخ كلُّهم يقولون: القرآن كلامُ الله ليس بمخلوق، وإنَّما قال هذا قومٌ من أهل البدع، كانوا يقولون: لا بأس أن تُرمىٰ الجِمَار بالزُّجاج، ثم أخذ زِرَّه فقطعه، ثم قال: رأسي أهونُ علي من زِرِّي»[1].

(١) «تاريخ بغداد» (١٢/ ٣٤٩).

ولصبره وثباته ارتفع قدرُه ومنزلتُه عند العلماء، وعلا شأنُه عندهم، وهذا ثوابُ الله للصابرين.

روىٰ المرُّوذيُّ عن أحمد بن حنبل قال: «إنَّما رفع الله عفَّان وأبا نُعيم بالصدق، حتَّىٰ نُوِّهَ بذكرهما»[1].

* * *

(١) «السير» (١٠/ ١٥٠).

(٦) محنة الإمام عَفَّان بن مسلم
(ت: بعد ٢١٩هـ)

الإمام الحافظ، محدِّثُ العراق، أبو عثمان عَفَّان بنُ مسلم الأنصاري، البصري الصفَّار، وقال أحمد بنُ عبد الله العِجليُّ: «عفَّان يُكنىٰ أبا عثمان، ثقةٌ ثبتٌ صاحبُ سنَّةٍ»[1].

وكان عفَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوَّلُ مَن امتُحِن في خلق القرآن، قال حنبل: «حضرت أبا عبد الله وابنَ معين عند عفَّان بعدما دعاه إسحاق بنُ إبراهيم للمحنة، وكان أوَّل من امتُحِن من النَّاس عفَّان، فسأله يحيىٰ من الغد بعدما امتُحن، وأبو عبد الله حاضر ونحن معه، فقال: أخبِرنا بما قال لك إسحاق، قال: يا أبا زكريَّا لم أُسوِّد وجهَك، ولا وجوه أصحابك، إنِّي لم أُجِب. فقال له: فكيف كان؟ قال: دعاني، وقرأ عليَّ الكتاب الذي كتب به المأمون من الجزيرة، فإذا فيه: امتَحِن عفَّان، وادعُه إلىٰ أن يقول: القرآن كذا وكذا، فإن قال ذلك، فأقِرَّه علىٰ أمره، وإن لم يُجبك إلىٰ ما كتبتُ به إليك، فاقطع عنه الَّذي يُجرىٰ عليه، وكان المأمون يُجري علىٰ عفَّان كلَّ شهر خمسمائة درهم، فلمَّا قرأ عليَّ الكتاب، قال لي

(١) «السير» (١٠/ ٢٤٣).

إسحاق: ما تقول ؟ فقرأت عليه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[١]، حتىٰ ختمتُها، فقلت: أمخلوقٌ هذا؟! فقال: يا شيخ، إنَّ أمير المؤمنين يقول: إنَّك إن لم تجبه إلىٰ الَّذي يدعوك إليه يقطع عنك ما يُجرىٰ عليك، فقلت: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[٢]، فسكت عنِّي، وانصرفتُ، فَسُرَّ بذلك أبو عبد الله ويحيىٰ»[٣].

علَّق الذهبيُّ قائلًا: «هذه الحكاية تدلُّ علىٰ جلالة عفَّان، وارتفاع شأنه عند الدولة؛ فإنَّ غيرَه امتُحن وقُيِّد وسُجن، وعفَّان فما فعلوا معه غير قطع الدراهم عنه».

وانظر كيف عوَّضه الله تعالىٰ، فمن ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه.

يقول إبراهيم بنُ ديزيل: «لمَّا دُعي عفَّان للمحنة، كنتُ آخذًا بلجام حماره، فلمَّا حَضَر عرض عليه القول، فامتنع أن يجيب، فقيل له: يُحبس عطاؤك، قال: وكان يعطَىٰ في كلِّ شهر ألفَ درهم، فقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[٤]، فلمَّا رجع إلىٰ داره عَذَلَه نساؤه ومن في داره، قال: وكان في داره نحو أربعين إنسانًا، فدُقَّ عليه الباب، فدخل عليه رجلٌ شبَّهتُه بسمَّان أو زيَّات، ومعه كيسٌ فيه ألفُ درهم، فقال: يا أبا عثمان، ثبَّتك الله كما ثَبَّتَ الدِّين، وهذا في كلِّ شهر»[٥].

---

(١) [الإخلاص:١].

(٢) [الذاريات:٢٢].

(٣) «السير» (١٠/ ٢٤٤).

(٤) [الذاريات:٢٢].

(٥) «السير» (١٠/ ٢٤٥).

(٧) محنة الإمام نُعيم بن حمَّاد الخُزاعي (ت: ٢٢٨هـ)

الإمام أبو عبد الله نُعَيم بنُ حمَّاد الخزاعي المروزيُّ، صاحبُ التصانيف، كالفتن والمسند، لقي ما لقي غيرُه من العلماء الصابرين في محنة خلق القرآن، حيث حُبس وسُجن ومَات في السجن، لِمَا كان يتَّصف به رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الشدَّة علىٰ الجهمية وأهل الرأي.

قال أحمد: «كان نُعيمٌ كاتبًا لأبي عصمة؛ يعني: نوحًا، وكان شديد الرَّد علىٰ الجهمية وأهل الأهواء، ومنه تعلَّم نُعيم»[(١)].

قال صالح بنُ مسمار: سمعت نُعيمَ بنَ حمَّاد يقول: «أنا كنت جهميًّا؛ فلذلك عرفتُ كلامهم، فلمَّا طلبت الحديث عرفتُ أنَّ أمرهم يرجع إلىٰ التعطيل».

وله رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثلاثة عشر كتابًا في الرَّدِّ علىٰ الجهمية[(٢)]، ومن كلماته المشهورة قوله: «من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسولُه تشبيه»[(٣)].

---

(١) «السير» (١٠/ ٥٩٧).

(٢) «السير» (١٠/ ٥٩٩).

(٣) «السير» (١٠/ ٦١٠).

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ في محنة خلق القرآن قد حُمل مع البُويطيِّ مقيَّدين، فمات نُعيم في العسكر[١]، قال ابنُ عديٍّ: «وقد كان أحد من يتصلَّب في السُّنَّة، ومات في محنةِ القرآن في الحَبس»[٢].

وقال أحمد بنُ محمد بن سهل الخالديُّ: سمعت أبا بكر الطرسوسي يقول: «أُخذ نُعيم بنُ حمَّاد في أيام المحنة سنة ثلاث أو أربع وعشرين ومائتين، وألقوه في السجن، ومات في سنة تسع وعشرين ومائتين، وأوصىٰ أن يدفن في قيوده، وقال: إنِّي مخاصم»[٣]؛ يعني: أنه رَحِمَهُ اللَّهُ جلس في السجن مدَّةً تزيد علىٰ خمسة أو ستَّة أعوام، فما أعظمها من محنة! وما أشدَّه من صبر رَحِمَهُ اللَّهُ!

وقال محمد بنُ سعد: «طلب نُعيم الحديث كثيرًا بالعراق والحجاز، ثم نزل مصر، فلم يزل بها حتَّىٰ أُشخص منها في خلافة أبي إسحاق؛ يعني: المعتصم، فسُئل عن القرآن، فأبىٰ أن يجيب فيه بشيء ممَّا أرادوه عليه، فحبس بسامراء، فلم يزل محبوسًا بها حتَّىٰ مات في السجن، سنة ثمان وعشرين ومائتين»[٤].

وقال إبراهيم بنُ عرفة نفطويه: «وكان مقيَّدًا محبوسًا؛ لامتناعه من القول بخلق القرآن، فجُرَّ بأقياده، فألقي في حفرة، ولم يكفَّن، ولم يُصَلَّ عليه، فَعَل به ذلك صاحبُ ابن أبي دؤاد»[٥].

---

(١) «السير» (١٠/ ٥٩٩).

(٢) «الكامل» (٧/ ١٩).

(٣) «السير» (١٠/ ٦١٠).

(٤) «طبقات ابن سعد» (٧/ ٥١٩).

(٥) «السير» (١٠/ ٦١٢).

(٨) محنة الإمام أحمد بن نصر الخزاعي (ت: ٢٣١هـ)

الإمام الكبير أبو عبد الله أحمد بنُ نصر بن مالك الخزاعيُّ المروزيُّ، ثمَّ البغدادي، قال ابنُ الجنيد: سمعت يحيىٰ بنَ معين يترحم عليه، وقال: «ختم الله له بالشهادة»[(١)].

قال الذهبيُّ: «وكان أحمد أمَّارًا بالمعروف، قوَّالًا بالحق»[(٢)].

وكان من خَبَره رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما حَكاه الصولي قال: كان هو وسهلُ بنُ سلامة[(٣)] حين كان المأمون بخراسان بايعا النَّاس علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثمَّ قدم المأمون فبايَعه سهل، ولزم ابنُ نصر بيتَه، ثمَّ تحرَّك في آخر أيام الواثق، واجتمع إليه خلق يأمرون بالمعروف، قال: إلىٰ أن ملكوا بغداد، وتعدَّىٰ رجلان

---

(١) «السير» (١١/ ١٦٧).

(٢) «السير» (١١/ ١٦٦).

(٣) هو رجلٌ من أهل الحربية، أنصاريٌّ، من أهل خراسان، يُكنىٰ: أبا حاتم، دعا النَّاس إلىٰ الخروج علىٰ الوُلاة بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبايع الناسَ علىٰ قتال السلطان في خلافة المأمون، وذلك في سنة (٢٠٢هـ). انظر ترجمته في: «تاريخ الطبري» (٨/ ٥٥٢-٥٥٣).

موسران من أصحابه فبذلا مالًا، وعزما علىٰ الوثوب في سنة إحدىٰ وثلاثين، فنُمَّ الخبر إلىٰ نائب بغداد إسحاق بن إبراهيم، فأخذ أحمد وصاحبيه وجماعة، وَوَجد في منزل أحدهما أعلامًا، وضرب خادمًا لأحمد، فأقرَّ بأن هؤلاء كانوا يأتون أحمد ليلًا، ويُخبرونه بما عملوا، فحُملوا إلىٰ سامرَّاء مُقيَّدين، فجلس الواثق لهم، وقال لأحمد الخزاعي: دَع ما أُخِذت له، ما تقول في القرآن؟ قال: كلامُ الله، قال:أفمخلوق هو؟ قال: كلامُ الله، قال: فترىٰ ربَّك في القيامة؟ قال: كذا جاءت الرواية، قال: وَيحَك يُرىٰ كما يُرىٰ المحدود المتجسِّم، ويحويه مكان، ويحصره ناظر، أنا كفرت بمن هذه صفتُه، ما تقولون فيه؟

فقال قاضي الجانب الغربي: هو حلال الدم، ووافقه فقهاء، فأظهر أحمد بنُ أبي دؤاد أنَّه كاره لقتله، وقال: شيخ مختلٌّ، تغيَّر عقلُه، يؤخَّر.

قال الواثق: ما أراه إلا مؤدِّيًا لكفره قائمًا بما يعتقده، ودعا بالصمصامة، وقام وقال: أحتسب خطاي إلىٰ هذا الكافر، فَضَرب عنقه بعد أن مدُّوا له رأسه بحبل وهو مقيَّد، ونَصَب رأسه بالجانب الشرقي وتتبَّع أصحابه فسُجنوا، وعلَّق في أذن أحمد بن نصر ورقةً فيها: هذا رأس أحمد بن نصر، دعاه الإمام هارون إلىٰ القول بخلق القرآن ونفي التشبيه، فأبىٰ إلا المعاندة، فعجَّله الله إلىٰ ناره، وكتب محمد بنُ عبد الملك.

قال المروذيُّ سمعت أحمد ذكر أحمد بن نصر فقال: «رحمه الله! لقد جاد بنفسه»[1].

---

(١) «السير» (١١/ ١٦٧-١٦٨).

قال الذهبيُّ: «بقي رأسُه منصوبًا، والبدن مصلوبًا بسامراء ستَّ سنين، إلىٰ أن أُنزل وجُمع في سنة سبع وثلاثين، فدُفن رحمه الله»[١].

والإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ مع ثنائه عليه لمَّا جاد بنفسه، فإنَّه كذلك أنكر أمر سهل ابن سلامة وخروجه علىٰ المأمون، فعن أبي بكر المرُّوذيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: سمعت أبا عبد الله يأمر بكفِّ الدِّماء، وينكر الخروج إنكارًا شديدًا، وأنكر أمرَ سهل بن سلامة، وقال: «كان بيني وبين حمدون بن شبيب أُنسٌ، وكان يكتب لي، فلمَّا خرج مع سهل جفوتُه بعدُ، وكان قد خرج ذاك الجانب، فذهبت أنا وابنُ مسلم[٢] فعاتبناه، وقلتُ: إيش حَمَلك؟! فكأنَّه ندم أو رجع»[٣].

ومن إنكاره أمر سهل بن سلامة وخروجه علىٰ السلطان، ما جاء عن المرُّوذيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: أَدخَلتُ إبراهيم الحصري علىٰ أبي عبد الله، وكان رجلًا صالحًا، فقال: إنَّ أمِّي رأت لك منامًا هو كذا وكذا، وذكرت الجنَّة، فقال: «يا أخي، إنَّ سهل بن سلامة كان النَّاس يُخبرونه بمثل هذا، وخرج إلىٰ سفك الدِّماء»، وقال: «الرُّؤيا تسرُّ المؤمن، ولا تغرُّه»[٤].

بل دلَّت هذه الحادثة أنَّه جاد لله بنفسه في صبره علىٰ قول الحقِّ في مسألة كلام الله وصفاته، وبسبب هذا الصبر علىٰ هذا البلاء أثنىٰ عليه الإمام أحمد،

---

(١) «السير» (١١/ ١٦٩).

(٢) لعلَّه عفَّان بن مسلم، وقد مرَّ الحديث عنه.

(٣) رواه الخلَّال في «السنَّة» (١/ ١٤٠).

(٤) انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١١/ ٢٢٧).

فقال: «رحمه الله، ما أسخاه! لقد جاد بنفسه»، ولم يتعرَّض الإمام أحمد لمسألة خروجه ومبايعة الناس له، بل إن الإمام أحمد كان ينهىٰ عن هذا الفعل غايةَ النَّهي والآثار عنه في ذلك كثيرة.

❊ ❊ ❊

(٩) محنة الإمام أبي يعقوب يوسف البُويطي (ت: ٢٣١هـ)

الإمام العلَّامة أبو يعقوب يوسف بنُ يحيىٰ المصري البُوَيطيُّ صاحبُ الإمام الشافعي، لازمه مدَّةً وتخرَّج به وفاق الأقران، قال الحافظ الذهبيُّ: «وكان إمامًا في العلم، قدوةً في العمل، زاهدًا ربانيًّا متهجدًا، دائم الذكر والعكوف علىٰ الفقه، بلغنا أنَّ الشافعي قال: ليس في أصحابي أحدٌ أعلم من البويطيِّ»[١].

وقال الخطيب البغدادي: «وكان قد حُمل إلىٰ بغداد في أيَّام المحنة، وأُريد علىٰ القول بخلق القرآن، فامتنع من الإجابة إلىٰ ذلك، فحبس ببغداد، ولم يزل في الحبس إلىٰ حين وفاته، وكان صالحًا متعبِّدًا زاهدًا»[٢].

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ ممَّن مات في محنة خلق القرآن في عهد الواثق، وكان قد سعىٰ به قومٌ إلىٰ والي مصر، منهم ابنُ أبي دؤاد، فامتحنه فلم يُجب، وكان الوالي حسن الرأي فيه، فقال له: قل فيما بيني وبينك، قال: إنَّه يقتدي بي مائة ألف، ولا يدرون المعنىٰ، قال: وقد كان أُمِر أن يُحمَل إلىٰ بغداد في أربعين رطل حديد.

---

(١) «السير» (١٢/ ٥٩).

(٢) «تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٠٠).

قال الرَّبيع بنُ سليمان: «كان البُويطيُّ أبدًا يحرِّك شفتيه بذكر الله، وما بصرت أحدًا أنزع بحجَّة من كتاب الله من البُويطيِّ، ولقد رأيتُه علىٰ بغل في عنقه غلٌّ، وفي رجليه قيدٌ، وبينه وبين الغلِّ سلسلة فيها لبنةٌ وزنُها أربعون رطلًا، وهو يقول: إنَّما خَلَق الله الخلق بـ «كن»، فإذا كانت مخلوقة فكأنَّ مخلوقًا خُلق بمخلوق، ولئن أُدخلتُ عليه لأصدُقنَّه -يعني: الواثق-، ولأموتنَّ في حديدي هذا، حتَّىٰ يأتي قومٌ يعلمون أنَّه قد مات في هذا الشأن قومٌ في حديدهم»[(١)].

وقال الرَّبيع: «دخلتُ علىٰ البويطيِّ أيَّام المحنة، فرأيته مقيَّدًا إلىٰ أنصاف ساقيه، مغلولةً يدُه إلىٰ عنقه»[(٢)].

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ من شدَّة طول مدَّة مكوث هذه الأثقال علىٰ بدنه؛ يكاد لا يُحسُّ بها، قال الرَّبيع: «وكتب إليَّ من السجن: إنَّه ليأتي عليَّ أوقات ما أُحسُّ بالحديد أنَّه علىٰ بدني حتَّىٰ تمسَّه يدي»[(٣)].

مات الإمام البويطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في قيده مسجونًا بالعراق، في سنة إحدىٰ وثلاثين ومائتين.

* * *

(١) «السير» (١٢/ ٥٩).

(٢) «تاريخ بغداد» (١٢/ ٣٠١).

(٣) «تاريخ بغداد» (١٢/ ٣٠٢).

(١٠) محنة الإمام سحنون (ت: ٢٤٠هـ)

هو الإمام العلَّامة فقيهُ المغرب أبو سعيد عبدالسلام بن التَّنُوخيُّ الحمصي الأصل، المغربي القيرواني، المالكي، قاضي القيروان، وصاحب المدوَّنة، ويُلقَّب بسحنون.

يقول الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قرأتُ في تاريخ القيروان لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكيِّ قال: قال أبو العرب: اجتَمَعَت في سحنون خلالٌ قلَّما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والوَرَع الصادق، والصَّرامة في الحقِّ، والزَّهادة في الدنيا، والتخشُّن في الملبس والمطعم، والسَّمَاحة، كان ربَّما وَصَل إخوانَه بالثلاثين دينارًا، وكان لا يَقبل من أحدٍ شيئًا، ولم يَكُن يَهَابُ سلطانًا في حقٍّ، شديدًا علىٰ أهل البدع، انتشرت إمامتُه، وأجمعوا علىٰ فضله»[1].

ومن نفائس أقواله في السُّنَّة رَحِمَهُ اللَّهُ، ما جاء عن يحيىٰ بن عون قال: دخلتُ مع سحنون علىٰ ابن القصَّار وهو مريض. فقال: ما هذا القَلَق؟ قال له: الموت والقدوم علىٰ الله! قال له سحنون: «ألستَ مصدِّقًا بالرُّسل، والبعث، والحساب، والجنَّة، والنَّار، وأنَّ أفضل هذه الأمَّة أبو بكر ثمَّ عمر، والقرآن كلامُ الله غيرُ

(١) «السير» (١٢/ ٦٩).

مخلوق، وأنَّ الله يُرىٰ يوم القيامة، وأنَّه علىٰ العرش استوىٰ، ولا تخرج علىٰ الأئمَّة بالسيف وإن جاروا». قال: إي والله! فقال: «مت إذا شئتَ، مت إذا شئتَ»[١].

وأمَّا عن محنته فقد جاء ذِكرُها في كتاب «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لأبي زيد الدبَّاغ»[٢]، والعجيب أنَّ محنتَه في خلق القرآن مُواكبةٌ لمحنة الإمام أحمد بن حنبل، لكنَّ أحمد في المشرق، وهو في المغرب، وأهلُ السُّنَّة وإن تباعدت بهم الأقطار، فقولُهم واحدٌ، وموقفُهم واحد، ومرجعُهم واحدٌ، يجمعهم الحقُّ علىٰ كتاب الله وسنَّة النَّبيِّ ﷺ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال غيرُ واحدٍ من العلماء بالأثر: كان سحنون قد حضر جنازة وهب -وكان أخاه من الرَّضاعة- فتقدَّم ابنُ أبي الجواد الَّذي كان قاضيًا قبلَه، وكان يذهب إلىٰ رأي الكوفيِّين، ويقول بالمخلوق، فصلَّىٰ عليها، فرجع سحنون ولم يُصلِّ خلفه، فبلغ ذلك الأمير زيادة الله، فأمر أن يُوجَّه إلىٰ عامل القيروان أن يضرب سحنونًا خمسمائة سوط، ويحلق رأسه ولحيته، فبلغ ذلك وزيره عليَّ بنَ حميد، فأمر الوزير أن يتوقَّف، وتلطَّف حتَّىٰ دخل علىٰ الأمير وقتَ القائلة -وقد نام- فقال له: ما شيءٌ بلغني في كذا؟ قال: نعم. قال: لا تفعل؛ فإن الغير[٣] إنَّما هلك بضربه البُهلولَ بنَ راشد[٤]. فقال: وهذا مثلُ بُهلول؟ قال:

---

(١) «السير» (١٢/ ٦٧).

(٢) (٢/ ٩٣-٩٦).

(٣) في حاشية الكتاب: في «الرياض» (١/ ٢٨٥)، و«المدارك» (٢/ ٦٠٩): (العكِّي): وهو محمد بن مقاتل الأمير المعروف.

(٤) هو البهلول بنُ راشد، أبو عمرو الحجري الرعينيُّ بالولاء، من علماء الزهاد، من أهل القيروان، =

نعم، وقد حبستُ البريد شفقةً علىٰ الأمير. فشكره ولم ينفِّذ أمره.

وبينما سحنون يُقرئ النَّاس إذ أتاه الخبر بما أراح الله منه، وقيل له: لو ذهبتَ إلىٰ عليِّ بن حميد فشكرتَه؟ قال: لا أفعل. قيل له: لو وجَّهتَ ابنك لذلك؟ فأبىٰ، قال: ولكنِّي أحمدُ الله الَّذي حرَّك ابنَ حميد لهذا، فهو أولىٰ بالشكر، وأقبل علىٰ إسماعه، فقال له قومٌ من أصحابه: لهذا كُتِب -واللهِ- اسمك بالحبر علىٰ الرُّقوق. قال ابنُ وضَّاح: كنتُ عند سحنون فجاءه إنسان فسارَّه شيئًا، فتغيَّر لونُه، ثم جاءه آخر فسارَّه فرجعت إليه نفسُه، ثمَّ قال: لم أبلُغ أنا مبلغ مَن ضُرب؛ إنما يُضرب مثلُ مالك وابن المسيب.

ولمَّا وَلِيَ أحمد بنُ الأغلب الإمارة، وأخذ الناس بالمحنة بالقرآن، وخُطب به بالقيروان توجَّه سحنون إلىٰ عبد الرحيم الزاهد بقصر زياد فارًّا، فكان عنده، فوجَّه في طلبه إلىٰ هنالك رجلًا يقال له ابنُ سلطان، وكان مبغَّضًا في سحنون بُغضًا عظيمًا، اختاره لذلك في خيل وجَّهها معه، فلمَّا وصل إلىٰ سحنون قال له ابنُ سلطان: وجَّهني الأمير إليك، وقصدني لبغضي فيك لأبلغ منك، وقد حالت

=

أخباره في الزهد كثيرة، له كتاب في (الفقه) علىٰ مذهب الإمام مالك، وقد يميل إلىٰ أقوال الثوري، وقيل: إن أصحابه دوَّنوا الكتاب عنه، وكان أمير إفريقية في زمنه محمد بن مقاتل العكِّي يلاطف الطاغية (ملك الإسبانيول) فطلب الطاغية من الأمير أن يرسل إليه حديدًا ونحاسًا وسلاحًا، فعزم علىٰ ذلك، وعلم به البهلول، فعارض العكِّيَّ ووعظه وألحَّ عليه في أن يمتنع، فبعث إليه العكِّيُّ مَن قيَّده وجرَّده وضربه عشرين سوطًا وحبسه، ثم أطلقه، فبقيَ أثر السياط في جسمه، ونغل، فكان ذلك سبب موته. «الأعلام» للزركلي (٢/ ٧٧).

نيَّتي عن ذلك، وأنا أبذل دمي دون دمك، فاذهب حيث شئتَ من البلاد أو أقم فأنا معك. فشكره سحنون، وقال: ما كنتُ أُعرِّضُك لهذا، بل أذهب معك. فخرج وشيَّعه أصحابُه، وقال عبد الرحيم للرسول: قل للأمير: أوحشتَنا من صاحبنا وأخينا في الشهر العظيم -وكان شهر رمضان- سلبك الله ما أنت فيه وأوحشك.

وفي رواية: عارضتني في ضيفي فوالله لأعرضنك علىٰ ربِّ العالمين.

فلمَّا وصل إلىٰ الأمير جمع قوَّاده وقاضيَه ابنَ أبي الجواد، وغيره، وسأله عن القرآن؟ فقال سحنون: أمَّا شيء أبتدئه من نفسي فلا، ولكنِّي سمعتُ مَن تعلَّمت منه، وأخذتُ عنه، كلُّهم يقولون: القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوق. فقال ابنُ أبي الجواد: كَفَر، اقتُله ودمُه في عنقي. وقال غيرُه مثلَه ممَّن يرىٰ رأيه، وقال بعضهم: يقطع أرباعًا، ويحمل كل رُبع بموضع من المدينة، ويقال: هذا جزاءُ مَن لم يقل بكذا.

فقال الأمير لداود بن حمزة: ما تقول أنت؟ قال: قَتله بالسيف راحة. ويقال: إنَّ قائل هذا عليُّ بنُ حميد ومحمدُ بنُ أحمد الحضرمي، ورجال السنَّة من أصحاب السلطان، ولكن اقتله قتل الحياة: تأخذ عليه الضمناء ويُنادىٰ عليه بسماط القيروان ألَّا يُفتي، ولا يُسمِعَ أحدًا، ويلزم داره، ففعل ذلك، وأُخذ عليه عشرة حُملاء.

ويقال: إنَّ ابن أبي الجواد، هو الذي أمر بأخذ الحملاء عليه. قال سهل: فدخلت عليه -ومعي دراهم أشتري بها ثيابي من الحرس إن أخذوني فعافاني الله- فقلتُ: البدعةُ فاشية، وأهلُها أعزَّاء. فقال لي: **أما علمتَ أن الله إذا أراد قطع بدعة أظهرها؟**

وما كان إلَّا زمن قليل ومات الأمير.

هذا نقلُ الأكثر.

وقال المازريُّ في شرح الجوزقي: لمَّا انصرف الحاجبُ بسحنون ومشوا به، وبقي بينه وبين القيروان قدر الميل، وإذا بصوت كصوت الغرانيق -هول الخيل- يخبرهم: إنَّ أميركم قد مات. قال سحنون: فدخلتُ بحمد الله سالمًا».

❊ ❊ ❊

(١١) محنة إمام أهل السنَّة والجماعة أحمد بن حنبل (ت:٢٤١هـ)

هو الإمام حقًّا، وشيخُ الإسلام صدقًا، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الذُّهلي الشيباني المروزي، ثمَّ البغدادي أحدُ الأئمَّة الأعلام[١]، وإمام أهل السنَّة والجماعة، امتُحِن في عقيدته، فصبر وثبت ثبوت الجبال الرواسي، فلم يتزعزع ولم يَلِن ويتنازل عن دينه، حتَّىٰ إن الثبات والصبر إذا ذُكرا ذُكر الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ-.

ولثباته وعلمه وديانته كان إمامًا لأهل السنَّة قاطبة، وأثنىٰ عليه بذلك أهلُ العلم أجمع.

قال قُتيبة بنُ سعيد: «خيرُ أهل زماننا ابنُ المبارك، ثمَّ هذا الشابُّ، يعني: أحمد بن حنبل، وإذا رأيت رجلًا يحبُّ أحمد، فاعلم أنَّه صاحب سنَّة، ولو أدرك عصر الثوري والأوزاعي واللَّيث لكان هو المقدَّم عليهم»[٢].

وقال أيضًا: «لولا الثوريُّ لمات الورع، ولولا أحمد لأحدثوا في الدين،

---

(١) انظر: «السير» (١١/ ١٧٧).

(٢) «السير» (١١/ ١٩٥).

أحمدُ إمامُ الدنيا»[١].

وقال الشافعيُّ: «خرجتُ من بغداد فما خَلَّفت بها رجلًا أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقىٰ من أحمد بن حنبل»[٢].

وقال أبو عمير بن النحَّاس عيسىٰ بن محمد بن عيسىٰ: «رحم الله أحمد بن حنبل، عن الدنيا ما كان أصبرَه، وبالماضين ما كان أشبهَه، وبالصالحين ما كان ألحقَه، عرضت له الدنيا فأباها، والبدع فنفاها»[٣].

وقال بشر الحافي: «قام أحمد مقام الأنبياء، وأحمد عندنا امتحِن بالسَّرَّاء والضَّرَّاء؛ فكان فيهما معتصمًا بالله»[٤].

وقال النَّسائيُّ: «جمع أحمد بنُ حنبل المعرفةَ بالحديث والفقه، والورع والزهد والصبر»[٥].

وقال عليُّ بنُ المديني: «إنَّ الله أعزَّ هذا الدِّين برجلين ليس لهما ثالث: أبو بكر الصِّدِّيق يوم الرِّدَّة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة»[٦].

وقال المزنيُّ: «أحمد بنُ حنبل يوم المحنة، أبو بكر يوم الرِّدَّة، وعمرُ يوم

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه ابنُ عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/ ٢٩١)، والذهبيُّ في «السير» (١١/ ١٩٨).

(٤) «السير» (١١/ ٢٠٢).

(٥) «السير» (١١/ ١٩٩).

(٦) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (٤/ ٤١٨).

السقيفة، وعثمانُ يوم الدار، وعليٌّ يوم صِفِّين»[١].

وقد أفرد محنتَه وخبرَها بعض العلماء بمصنَّفات، منها: ابنُ عمِّه حنبلُ بن إسحاق بن حنبل «ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل»، وعبدُ الغنيِّ بن عبد الواحد المقدسي «محنة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل»، وكلُّ من ترجم له أو كتب في مناقبه ذَكَرَ محنتَه وأثنىٰ عليه بها.

يقول شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولكن لمَّا امتُحِن النَّاسُ بمحنة الجهمية، وطُلب منهم تعطيل الصفات، وأن يقولوا بأن القرآن مخلوق، وأنَّ الله لا يُرىٰ في الآخرة، ونحو ذلك، ثَبَّتَ الله الإمام أحمد في تلك المحنة، فدفع حجج المعارضين النُّفاة، وأظهر دلالة الكتاب والسنَّة، وأنَّ السلف كانوا علىٰ الإثبات، فآتاه الله من الصبر واليقين ما صار به إمامًا للمتَّقين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٢].

ولهذا قيل فيه رَحِمَهُ اللَّهُ: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته البدع فنفاها، والدنيا فأباها، فلمَّا ظهر به من السنَّة ما ظهر كان له من الكلام في بيانها وإظهارها أكثر وأعظم ممَّا لغيره، فصار أهلُ السنَّة من عامَّة الطوائف يعظِّمونه وينتسبون إليه»[٣].

وقال أيضًا: «وكلامُ الإمام أحمد في هذا الباب جَارٍ علىٰ كلام مَن تقدَّم من

---

(١) «السير» (١١/ ٢٠١).

(٢) [السجدة: ٢٤].

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ٨٠).

أئمَّة الهدىٰ، ليس له قولٌ ابتدعَه، ولكن أظهر السنَّة وبيَّنها وذبَّ عنها، وبيَّن حال مخالفيها، وجاهد عليها، وصبر علىٰ الأذىٰ فيها لمَّا أُظهرت الأهواء والبدع، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1]، فالصبر واليقين بهما تُنال الإمامة في الدِّين، فلمَّا قام بذلك قُرنت باسمه من الإمامة في السُّنَّة ما شُهر به، وصار متبوعًا لمن بعده كما كان تابعًا لمَن قبله»[2].

وسأذكر للقارئ هنا مختصرًا لمحنته رَحِمَهُ ٱللَّهُ من «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أوَّلًا: المحنة في عهد المأمون:

كان النَّاس أمَّة واحدة، ودينُهم قائمًا في خلافة أبي بكر وعمر.

فلمَّا استُشهد قُفل باب الفتنة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وانكسر الباب، قام رءوس الشرِّ علىٰ الشهيد عثمان حتَّىٰ ذُبح صبرًا، وتفرَّقت الكلمة، وتمَّت وقعة الجمل، ثمَّ وقعة صفِّين، فظهرت الخوارج، وكفَّرت سادةَ الصحابة، ثمَّ ظهرت الروافض والنواصب.

وفي آخر زمن الصحابة ظهرت القدريَّة، ثمَّ ظهرت المعتزلة بالبصرة، والجهمية والمجسِّمة بخراسان في أثناء عصر التابعين، مع ظهور السنَّة وأهلها

---

(١) [السجدة: ٢٤].

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٥٨).

إلى بعد المائتين، فظهر المأمون الخليفة فاستجلب كتب الأوائل، وعرَّب حكمة اليونان، وقام في ذلك وقعد، وخبَّ ووضع، ورفعت الجهمية والمعتزلة رءوسها، بل والشيعة.

وآل به الحالُ أن حمل الأمَّة على القول بخلق القرآن، وامتحن العلماء، فلم يُمهَل، وهلك لِعامِه، وخلَّى بعده شرًّا وبلاءً في الدين، فإنَّ الأمة ما زالت على أن القرآن العظيم كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله، لا يعرفون غير ذلك، حتَّى نبغ لهم القول بأنه مخلوق مجعول، وأنَّه إنَّما يُضاف إلى الله تعالى إضافة تشريف، كبَيت الله، وناقة الله.

فأنكر ذلك العلماء.

ولم تكن الجهمية يُظهرون في دولة المهدي والرشيد والأمين، فلمَّا وَلِيَ المأمون، كان منهم، وأظهر المقالة[1].

قال أبو الفرج بنُ الجوزي: خالطه قومٌ من المعتزلة، فَحَسَّنوا له القول بخلق القرآن، وكان يتردَّد ويراقب بقايا الشيوخ، ثمَّ قوي عزمُه، وامتحن الناس.

وروى بسنده عن ابن أكثم، قال: قال لنا المأمون: لولا مكانُ يزيدَ بن هارون، لأظهرتُ أنَّ القرآن مخلوق.

فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، ومَن يَزيدُ حتَّى يُتَّقى؟

فقال: ويحك! إنِّي أخاف إن أظهرته فيردَّ عليَّ، يختلف الناس، وتكون

---

(١) «السير» (١١/ ٢٣٦).

فتنة، وأنا أكره الفتنة.

فقال الرجل: فأنا أَخبُرُ ذلك منه.

قال له: نعم.

فخرج إلىٰ واسط، فجاء إلىٰ يزيد، وقال: يا أبا خالد، إن أمير المؤمنين يقرئك السلام، ويقول لك: إنِّي أريد أن أُظهر خلق القرآن.

فقال: كذبتَ علىٰ أمير المؤمنين، أميرُ المؤمنين لا يحمل النَّاس علىٰ ما لا يعرفونه، فإن كنت صادقًا، فاقعد، فإذا اجتمع الناس في المجلس، فقل.

قال: فلمَّا أن كان الغد، اجتمعوا، فقام، فقال كمقالته.

فقال يزيد: كذبتَ علىٰ أمير المؤمنين، إنَّه لا يحمل الناس علىٰ ما لا يعرفونه، وما لم يقُل به أحد.

قال: فقدم، وقال: يا أمير المؤمنين، كنتَ أعلمَ، وقصَّ عليه.

قال: ويحكَ يلعب بك!

قال صالح بن أحمد: سمعت أبي يقول: لمَّا دخلنا علىٰ إسحاق بن إبراهيم للمحنة، قرأ علينا كتاب الَّذي صار إلىٰ طَرَسُوس -يعني: المأمون- فكان فيما قرئ علينا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[2].

---

(١) [الشورىٰ: ١١].

(٢) [الزمر: ٦٢].

فقلتُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

قال صالح: ثمَّ امتُحِن القوم، ووجَّه بمن امتنع إلىٰ الحبس، فأجاب القوم جميعًا غير أربعة: أبي، ومحمد بن نوح، والقواريري، والحسن بن حماد سجَّادة، ثمَّ أجاب هذان، وبقي أبي ومحمد في الحبس أيامًا، ثم جاء كتابٌ من طَرَسوس بحملهما مقيَّدين زَمِيلَين.

وعن أبي معمر القطيعي، قال: لمَّا أُحضرنا إلىٰ دار السلطان أيام المحنة، وكان أحمد بن حنبل قد أُحضر، فلمَّا رأىٰ النَّاس يُجيبون، وكان رجلًا ليِّنًا، فانتفخت أودَاجُهُ، واحمرَّت عيناه، وذَهب ذلك اللِّين.

فقلت: إنَّه قد غضب لله، فقلتُ: أبشر، حدَّثنا ابنُ فضيل، عن الوليد بن عبد الله بن جميع، عن أبي سلمة، قال: كان من أصحاب رسول الله ﷺ من إذا أُريد علىٰ شيءٍ من أمر دينه، رأيتَ حَمَاليق عينيه في رأسه تدور كأنَّه مجنون.

وقيل للإمام أحمد أيام المحنة: يا أبا عبد الله، أَوَلا تَرىٰ الحقَّ كيف ظهر عليه الباطل؟ قال: كلَّا، إن ظهور الباطل علىٰ الحقِّ أن تنتقل القلوب من الهدىٰ إلىٰ الضلالة، وقلوبُنا بَعدُ لازمةٌ للحق.

وقال أبو جعفر الأنباريُّ: لمَّا حُمل أحمد إلىٰ المأمون، أُخبرتُ، فعَبَرتُ الفرات، فإذا هو جالس في الخَان، فسلَّمتُ عليه، فقال: يا أبا جعفر، تعنَّيت. فقلت: يا هذا، أنت اليوم رأسٌ، والنَّاس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلىٰ خلق

---

(١) [الشورىٰ: ١١].

القرآن، ليجيبنَّ خلق، وإن أنت لم تُجِب، ليمتنعنَّ خلق من النَّاس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنَّك تموت، لابدَّ من الموت، فاتَّق الله ولا تُجب.

فجعل أحمد يبكي، ويقول: ما شاء الله.

ثمَّ قال: يا أبا جعفر، أَعد عليَّ، فأعدتُ عليه، وهو يقول: ما شاء الله.

قال محمد بن إبراهيم البوشنجيُّ: جعلوا يُذاكرون أبا عبد الله بالرَّقَّة في التقيَّة وما رُوي فيها. فقال: كيف تصنعون بحديث خبَّاب: «**إِنَّ مَن كَانَ قَبلَكُم كَانَ يُنشَرُ أَحَدُهُم بِالمِنشَارِ، لَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَن دِينِهِ**»(١). فأَيِسنا منه. وقال: لستُ أبالي بالحبس، ما هو ومنزلي إلَّا واحد، ولا قتلًا بالسيف، إنَّما أخاف فتنة السَّوط. فسمعه بعضُ أهل الحبس، فقال: لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلَّا سَوطان، ثمَّ لا تدري أين يقع الباقي، فكأنَّه سُرِّيَ عنه.

قال صالح بن أحمد: حُمِل أبي ومحمد بنُ نوح من بغداد مقيَّدين، فصرنا معهما إلىٰ الأنبار. فسأل أبو بكر الأحول أبي: يا أبا عبد الله، إن عُرضتَ علىٰ السيف، تُجيب؟ قال: لا، ثُمَّ سُيِّرا، فسمعتُ أبي يقول: صرنا إلىٰ الرحبة، ورحلنا منها في جوف الليل، فعَرَض لنا رجل، فقال: أيُّكم أحمد بنُ حنبل؟ فقيل له: هذا. فقال للجمَّال: علىٰ رسلك. ثمَّ قال: يا هذا، ما عليك أن تُقتل هاهنا، وتدخل الجنَّة؟ ثمَّ قال: أستودعك اللهَ، ومضىٰ. فسألتُ عنه، فقيل لي: هذا رجل من العرب من ربيعة يعمل الشعر في البادية، يقال له: جابر بن عامر، يُذكر بخير.

---

(١) تقدَّم تخريجُه.

وقال أحمد بنُ حنبل: ما سمعت كلمةً منذ وقعتُ في هذا الأمر أقوىٰ من كلمة أعرابي كلَّمني بها في رحبة طوق. قال: يا أحمد، إن يقتلك الحقُّ متَّ شهيدًا، وإن عشت عشت حميدًا، فقوَّىٰ قلبي.

قال صالح بن أحمد: قال أبي: فلمَّا صرنا إلىٰ أَذَنَة، ورحلنا منها في جوف الليل، وفتح لنا بابُها، إذا رجل قد دخل، فقال: البشرىٰ! قد مات الرجل -يعني: المأمون-.

قال أبي: وكنت أدعو اللهَ ألَّا أراه.

قال أحمد بنُ حنبل: تبيَّنتُ الإجابة في دعوتين: دعوتُ الله ألَّا يجمع بيني وبين المأمون، ودعوتُه ألَّا أرىٰ المتوكِّل.

فلم أرَ المأمون، مات بالبذندون.

قال الذهبيُّ: وهو نهرُ الروم، وبقيَ أحمد محبوسًا بالرَّقَّة حتَّىٰ بُويع المعتصمُ إثر موت أخيه، فرُدَّ أحمد إلىٰ بغداد.

وأمَّا المتوكِّل فإنَّه نَوَّه بذكر الإمام أحمد، والتمس الاجتماع به، فلمَّا أن حضر أحمد دار الخلافة بسامرَّاء ليُحدِّث ولد المتوكِّل، جلس له المتوكِّل في طاقة، حتَّىٰ نظر هو وأمُّه منها إلىٰ أحمد، ولم يرَهُ أحمد.

قال صالح: لمَّا صدر أبي ومحمد بنُ نوح إلىٰ طَرَسُوس، رُدَّا في أقيادهما.

فلمَّا صار إلىٰ الرَّقَّة، حُملا في سفينة، فلمَّا وصلا إلىٰ عانة، تُوفِّي محمد، وفُكَّ قيدُه، وصَلَّىٰ عليه أبي.

وقال حنبل: قال أبو عبد الله: ما رأيتُ أحدًا علىٰ حداثة سنِّه، وقدر علمه أقومَ بأمر الله من محمد بن نوح، إنِّي لأرجو أن يكون قد خُتم له بخير. قال لي ذات يوم: يا أبا عبد الله، اللَّـهَ اللَّـهَ، إنَّك لستَ مثلي، أنت رجلٌ يُقتدىٰ بك، قد مدَّ الخلق أعناقُهم إليك، لِمَا يكون منك، فاتَّق الله، واثبُت لأمر الله، أو نحو هذا، فمات، وصلَّيت عليه، ودفنتُه.

قال صالح: وصار أبي إلىٰ بغداد مُقيَّدًا، فمكث بالياسرية أيَّامًا، ثمَّ حبس في دار اكتُريَت عند دار عمارة، ثم حُوِّل إلىٰ حبس العامَّة في درب الموصليَّة.

فقال: كنت أصلِّي بأهل السجن، وأنا مُقيَّد.

ثانيًا: المحنة في عهد المعتصم.

فلمَّا كان في رمضان سنة تسع عشرة، وذلك بعد موت المأمون بأربعة عشر شهرًا، حُوِّل إلىٰ دار إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد.

وأمَّا حنبل، فقال: حُبس أبو عبد الله في دار عمارة ببغداد، في إصطبل الأمير محمد بن إبراهيم؛ أخي إسحاق بن إبراهيم، وكان في حبس ضيِّق، ومرض في رمضان، ثم حوِّل بعد قليل إلىٰ سجن العامَّة، فمكث في السجن نحوًا من ثلاثين شهرًا.

وكنَّا نأتيه، ورأيتُه يصلِّي بهم في القيد، فكان يُخرج رجله من حلقة القيد وقتَ الصلاة والنوم.

قال صالح بنُ أحمد: قال أبي: كان يوجَّه إليَّ كلَّ يوم برجلين، أحدهما يقال

له: أحمد بن أحمد بن رباح، والآخر أبو شعيب الحجام، فلا يزالان يناظراني، حتىٰ إذا قاما دُعي بقيد، فزيد في قيودي، فصار في رجلي أربعة أقياد.

فلمَّا كان في اليوم الثالث، دخل عليَّ، فناظرني، فقلتُ له: ما تقول في علم الله؟

قال: مخلوق.

قلتُ: كفرتَ بالله.

فقال الرسول الَّذي كان يحضر من قبل إسحاق بن إبراهيم: إن هذا رسولُ أمير المؤمنين.

فقلتُ: إن هذا قد كَفَر.

فلمَّا كان في الليلة الرابعة، وجَّه -يعني: المعتصم- ببغا الكبير إلىٰ إسحاق، فأمره بحملي إليه، فأدخلت علىٰ إسحاق، فقال: يا أحمد، إنَّها -والله- نفسُك، إنَّه لا يقتلك بالسيف، إنَّه قد آلىٰ -إن لم تُجبه- أن يضربك ضربًا بعد ضرب، وأن يقتلك في موضع لا يُرىٰ فيه شمس ولا قمر، أليسَ قد قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[1]، أفيكون مجعولًا إلَّا مخلوقًا؟

فقلتُ: فقد قال تعالىٰ: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[2]، أفَخَلَقَهم؟

قال: فسكت.

---

(١) [الزخرف: ٣].

(٢) [الفيل: ٥].

فلمَّا صرنا إلىٰ الموضع المعروف بباب البستان، أُخرجت، وجيء بدابَّة، فأُركبت وعليَّ الأقياد، ما معي من يُمسكني، فكدتُ غير مرَّة أن أخرَّ على وجهي لثقل القيود.

فجيء بي إلىٰ دار المعتصم، فأُدخلت حجرة، ثمَّ أُدخلت بيتًا، وأُقفل الباب عليَّ في جوف الليل ولا سراج، فأردتُ الوضوء، فمددت يدي، فإذا أنا بإناء فيه ماء، وطست موضوع، فتوضَّأت وصلَّيت.

فلمَّا كان من الغد، أَخرجتُ تكَّتي، وشددتُ بها الأقياد أحملها، وعطفت سراويلي.

فجاء رسولُ المعتصم، فقال: أجب.

فأخذ بيدي، وأدخلني عليه، والتَّكَّة في يدي، أحمل بها الأقياد، وإذا هو جالس، وأحمد بنُ أبي دؤاد حاضر، وقد جمع خلقًا كثيرًا من أصحابه.

فقال لي المعتصم: ادنُه، ادنُه.

فلم يزل يُدنيني حتَّىٰ قربت منه، ثمَّ قال: اجلس.

فجلست، وقد أثقلتني الأقياد، فمكثت قليلًا، ثمَّ قلتُ: أتأذن في الكلام؟

قال: تكلَّم.

فقلتُ: إِلَامَ دعا الله ورسولُه؟

فسكت هنيَّة، ثمَّ قال: إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله.

فقلتُ: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله.

ثمَّ قلتُ: إن جَدَّك ابن عبَّاس يقول: لمَّا قدم وفدُ عبد القيس علىٰ رسول الله ﷺ سألوه عن الإيمان، فقال: «**أَتَدرُونَ مَا الإِيمَانُ؟**». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ. قَالَ: «**شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَن تُعطُوا الخُمُسَ مِنَ المَغنَمِ**»[(١)].

قال أبي: فقال -يعني: المعتصم-: لولا أنِّي وجدتك في يد من كان قبلي، ما عرضتُ لك.

ثمَّ قال: يا عبد الرحمن بن إسحاق، ألم آمُرك برفع المحنة؟

فقلت: الله أكبر! إنَّ في هذا لفرجًا للمسلمين.

ثمَّ قال لهم: ناظروه، وكلِّموه، يا عبد الرحمن كَلِّمه.

فقال: ما تقول في القرآن؟

قلتُ: ما تقول أنت في علم الله؟

فسكتَ، فقال لي بعضُهم: أليس قال الله تعالىٰ: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾[(٢)]، والقرآن أليس شيئًا؟

فقلتُ: قال الله: ﴿**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[(٣)]، فدمَّرت إلَّا ما أراد الله؟

---

(١) رواه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٨).

(٢) [الرعد: ١٦].

(٣) [الأحقاف: ٢٥].

فقال بعضُهم: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[١]، فيكون محدثً

إلَّا مخلوقًا؟

فقلتُ: قال اللهُ: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[٢]، فالذِّكرُ هو القرآن، وتلك ليس

فيها ألف ولام.

وذكر الذهبيُّ بعض ما احتجُّوا به، وكيف ردَّ عليهم الإمام أحمد.

قال صالح: قال أبي: وكان يتكلَّم هذا، فأردُّ عليه، ويتكلَّم هذا، فأردُّ عليه، فإذا انقطع الرَّجل منهم، اعترض ابنُ أبي دؤاد، فيقول: يا أمير المؤمنين، هو واللهِ ضالٌّ مُضلٌّ مبتدع!

فيقول: كَلِّموه، ناظروه.

فيكلِّمني هذا، فأردُّ عليه، ويكلِّمني هذا، فأردُّ عليه، فإذا انقطعوا، يقول المعتصم: ويحَك يا أحمد! ما تقول؟

فأقول: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنَّة رسول الله ﷺ حتَّىٰ أقول به.

فيقول أحمد بنُ أبي دؤاد: أنت لا تقول إلَّا ما في الكتاب أو السنَّة؟

فقلت له: تأوَّلتَ تأويلًا، فأنتَ أعلم، وما تأوَّلتَ ما يُحبسُ عليه، ولا يُقيَّدُ عليه.

---

(١) [الأنبياء: ٢].

(٢) [ص: ١].

قال حنبل: قال أبو عبد الله: لقد احتجُّوا عليَّ بشيء ما يقوىٰ قلبي، ولا ينطلق لساني أن أحكيَه، أنكروا الآثار، وما ظننتهم علىٰ هذا حتَّىٰ سمعتُه، وجعلوا يرغون، يقول الخصم كذا وكذا، فاحتججت عليهم بالقرآن بقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾[1]، أفهذا منكرٌ عندكم؟

فقالوا: شَبَّه، يا أمير المؤمنين، شَبَّه.

قال محمد بن إبراهيم البوشنجيُّ: حدَّثني بعضُ أصحابنا: أنَّ أحمد بن أبي دؤاد أَقبَلَ علىٰ أحمد يكلِّمه، فلم يلتفت إليه، حتَّىٰ قال المعتصم: يا أحمد، ألا تُكلِّم أبا عبد الله؟

فقلتُ: لستُ أعرفه من أهل العلم فأكلِّمَه.

قال صالح: وجعل ابنُ أبي دؤاد يقول: يا أمير المؤمنين، والله لئن أجابك، لهو أحبُّ إليَّ من ألف دينار، ومائة ألف دينار، فيعُدُّ من ذلك ما شاء الله أن يَعدَّ.

فقال: لئن أجابني لأطلقنَّ عنه بيدي، ولأركبنَّ إليه بجندي، ولأطأنَّ عقبه.

ثمَّ قال: يا أحمد، واللهِ إنِّي عليك لشفيق، وإنِّي لأشفق عليك كشفقتي علىٰ ابني هارون، ما تقول؟

فأقول: أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنَّة رسوله.

فلمَّا طال المجلس ضجر، وقال: قوموا، وحبسني -يعني عنده- وعبد الرحمن

---

(١) [مريم: ٤٢].

ابنُ إسحاق يكلِّمني، وقال: ويحك! أجبني.

وقال: ويحك! ألم تكن تأتينا؟

فقال له عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين، أعرفه منذ ثلاثين سنة، يرىٰ طاعتك والحجَّ والجهاد معك.

فيقول: واللهِ إنَّه لعالم، وإنَّه لفقيه، وما يسوؤني أن يكون معي يردُّ عنِّي أهل المِلَل.

ثمَّ قال: ما كنتَ تعرف صالحًا الرشيدي؟

قلتُ: قد سمعتُ به.

قال: كان مؤدِّبي، وكان في ذلك الموضع جالسًا -وأشار إلىٰ ناحية من الدار- فسألني عن القرآن، فخالفني، فأمرت به، فوُطئ وسُحب! يا أحمد، أجبني إلىٰ شيءٍ لك فيه أدنىٰ فرج حتَّىٰ أُطلق عنك بيدي.

قلتُ: أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنَّة رسوله.

فطال المجلس، وقام، ورُددت إلىٰ الموضع.

فلمَّا كان بعد المغرب، وجَّه إلي رجلين من أصحاب ابن أبي داؤد، يبيتان عندي ويناظراني ويقيمان معي، حتَّىٰ إذا كان وقت الإفطار، جيء بالطعام، ويجتهدان بي أن أُفطر فلا أفعل. قال الذهبيُّ: وكانت ليالي رمضان.

قال: ووجَّه المعتصم إليَّ ابنَ أبي دؤاد في الليل، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: ما تقول؟

فأردُّ عليه نحوًا ممَّا كنت أردُّ.

فقال ابنُ أبي دؤاد: واللهِ، لقد كتب اسمك في السبعة: يحيىٰ بن معين وغيره، فمحوتُه، ولقد ساءني أخذُهم إيَّاك.

ثم يقول: إنَّ أمير المؤمنين قد حلف أن يضربك ضربًا بعد ضرب، وأن يُلقيك في موضع لا ترىٰ فيه الشمس.

ويقول: إن أجابني، جئتُ إليه حتَّىٰ أُطلق عنه بيدي، ثمَّ انصرف.

فلمَّا أصبحنا، جاء رسولُه، فأخذ بيدي حتَّىٰ ذهب بي إليه، فقال لهم: ناظروه، وكلِّموه.

فجعلوا يناظروني، فأردُّ عليهم، فإذا جاءوا بشيءٍ من الكلام ممَّا ليس في الكتاب والسنَّة، قلتُ: ما أدري ما هذا.

قال: فيقولون: يا أمير المؤمنين، إذا توجَّهت له الحجَّة علينا، ثبت، وإذا كلَّمناه بشيءٍ، يقول: لا أدري ما هذا.

فقال: ناظروه.

فقال رجل: يا أحمد، أراك تذكر الحديث وتنتحله.

فقلتُ: ما تقول في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾[1]؟

---

(١) [النساء: ١١].

قال: خصَّ الله بها المؤمنين.

قلت: ما تقول: إن كان قاتلًا أو عبدًا؟

فسكت، وإنَّما احتججت عليهم بهذا، لأنَّهم كانوا يحتجُّون بظاهر القرآن، فحيث قال لي: أراك تنتحل الحديث، احتججت بالقرآن -يعني: وإن السنَّة خصَّصت القاتل والعبد، فأخرجتهما من العموم-.

قال: فلم يزالوا كذلك إلىٰ قرب الزوال.

فلمَّا ضجر، قال: قوموا.

ثمَّ خلا بي، وبعبد الرحمن بن إسحاق، فلم يزل يكلِّمني، ثمَّ قام ودخل، ورُددتُ إلىٰ الموضع.

قال: فلمَّا كانت اللَّيلة الثالثة، قلتُ: خليقٌ أن يحدث غدًا من أمري شيء، فقلت للمُوكَل بي: أُريد خيطًا. فجاءني بخيط، فشددت به الأقياد، ورددتُ التَّكَّة إلىٰ سراويلي مخافةَ أن يحدث من أمري شيء، فأتعرَّىٰ.

فلمَّا كان من الغد، أُدخلت إلىٰ الدار، فإذا هي غاصَّةٌ، فجعلت أدخل من موضع إلىٰ موضع، وقوم معهم السيوف، وقوم معهم السِّياط، وغير ذلك.

ولم يكن في اليومين الماضيين كبيرُ أحدٍ من هؤلاء، فلمَّا انتهيت إليه، قال: اقعُد.

ثمَّ قال: ناظروه، كلِّموه.

فجعلوا يناظروني، يتكلَّم هذا، فأردُّ عليه، ويتكلَّم هذا، فأردُّ عليه، وجعل صوتي يعلو أصواتهم.

فجعل بعضُ مَن هو قائمٌ علىٰ رأسي يُومئ إليَّ بيده، فلمَّا طال المجلس، نحَّاني، ثمَّ خَلا بهم، ثمَّ نحَّاهم، ورَدَّني إلىٰ عنده، وقال: ويحك يا أحمد! أجبني حتَّىٰ أُطلق عنك بيدي.

فرددتُ عليه نحو ردِّي، فقال: عليك -وذكر اللَّعن- خُذُوه، اسحبوه، خلِّعوه.

فسُحبت، وخُلِّعت.

قال: وقد كان صار إليَّ شعرٌ من شعر النَّبيِّ ﷺ في كمِّ قميصي، فوجَّه إليَّ إسحاق بن إبراهيم يقول: ما هذا المصرور؟

قلتُ: شعرٌ من شعر رسول الله ﷺ، وسعىٰ بعضُهم ليخرق القميص عنِّي.

فقال المعتصم: لا تخرقوه.

فنزع، فظننت أنَّه إنَّما دُرِئ عن القميص الخرق بالشعر.

قال: وجلس المعتصم علىٰ كرسي، ثمَّ قال: العقابين والسياط.

فجيء بالعقابين، فمدَّت يداي، فقال بعضُ من حضر خلفي: خُذ ناتئ الخشبتين بيديك، وشُدَّ عليهما، فلم أفهم ما قال، فتخلَّعت يداي.

قال محمد بن إبراهيم البوشنجيُّ: ذكروا أنَّ المعتصم ألان في أمر أحمد

لمَّا عُلِّق في العقابين، ورأىٰ ثباته وتصميمه وصلابته، حتَّىٰ أغراه أحمد بنُ أبي دؤاد، وقال: يا أمير المؤمنين، إن تركتَه، قيل: قد ترك مذهب المأمون، وسخط قوله، فهاجه ذلك علىٰ ضربه.

وقال صالح: قال أبي: ولمَّا جيء بالسياط، نظر إليها المعتصم، فقال: ائتوني بغيرها.

ثم قال للجلَّادين: تقدَّموا.

فجعل يتقدَّم إليَّ الرجل منهم، فيضربني سوطين، فيقول له: شُدَّ، قطع الله يدك!

ثمَّ يتنحَّىٰ ويتقدَّم آخر، فيضربني سوطين، وهو يقول في كلِّ ذلك: شُدَّ، قَطَع الله يدك!

فلمَّا ضُربتُ سبعةَ عشر سوطًا، قام إليَّ -يعني: المعتصم- فقال: يا أحمد، عَلَامَ تقتل نفسك؟ إنِّي واللهِ عليك لشفيق.

وجعل عجيف ينخسني بقائمة سيفه، وقال: أتُريد أن تغلب هؤلاء كلَّهم؟

وجعل بعضُهم يقول: ويلك! إمامُك علىٰ رأسك قائم.

وقال بعضُهم: يا أمير المؤمنين، دمُه في عنقي، اقتُله.

وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين، أنت صائم، وأنت في الشمس قائم!

فقال لي: ويحك يا أحمد، ما تقول؟

فأقول: أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنَّة رسول الله أقولُ به.

فرجع، وجلس، وقال للجلَّاد: تقدَّم، وأوجِع، قطع الله يدك.

ثمَّ قام الثانية، وجعل يقول: ويحك يا أحمد! أجبني.

فجعلوا يُقبلون عليَّ، ويقولون: يا أحمد، إمامُك علىٰ رأسك قائم!

وجعل عبد الرحمن يقول: من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟

والمعتصم يقول: أجبني إلىٰ شيءٍ لكفيه أدنىٰ فرج حتَّىٰ أُطلق عنك بيدي.

ثمَّ رجع، وقال للجلَّاد: تقدَّم.

فجعل يضربُني سوطين، ويتنحَّىٰ، وهو في خلال ذلك يقول: شُدَّ، قطع الله يدك.

فذهب عقلي، ثم أفقتُ بعد، فإذا الأقياد قد أُطلقت عَنِّي.

فقال لي رجل ممَّن حضر: كببناك علىٰ وجهك، وطرحنا علىٰ ظهرك بارية ودُسناك!

قال أبي: فما شعرتُ بذلك، وأتوني بسويق، وقالوا: اشرب وتقيَّأ.

فقلت: لا أفطر.

ثم جيء بي إلىٰ دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرت الظهر، فتقدَّم ابن سماعة، فصلَّىٰ، فلمَّا انفتل من صلاته، وقال لي: صلَّيتَ، والدم يسيل في ثوبك؟

قلتُ: قد صلَّىٰ عمر، وجرحُه يثعب دمًا.

قال صالح: ثمَّ خُلِّي عنه، فصار إلىٰ منزله.

وكان مكثه في السجن منذ أُخذ إلىٰ أن ضُرب وخُلِّي عنه، ثمانية وعشرين شهرًا.

ثالثًا: المحنة في عهد الواثق:

قال حنبل: لم يزل أبو عبد الله بعد أن برئ من الضرب يحضر الجمعة والجماعة، ويُحدِّث ويُفتي، حتَّىٰ مات المعتصم، وولي ابنُه الواثق، فأظهر ما أظهر من المحنة، والميل إلىٰ أحمد بن أبي دؤاد وأصحابه.

فلمَّا اشتدَّ الأمر علىٰ أهل بغداد، وأظهرت القضاةُ المحنة بخلق القرآن، وفرَّق بين فضل الأنماطي وبين امرأته، وبين أبي صالح وبين امرأته، كان أبو عبد الله يشهد الجمعة، ويعيد الصلاة إذا رجع، ويقول: تؤتىٰ الجمعة لفضلها، والصلاة تُعادُ خلف من قال بهذه المقالة.

وجاء نفرٌ إلىٰ أبي عبد الله، وقالوا: هذا الأمر قد فَشَا وتفاقم، ونحن نخافه علىٰ أكثر من هذا -وذكروا ابنَ أبي دؤاد- وأنَّه علىٰ أن يأمر المعلِّمين بتعليم الصبيان في المكاتب: القرآن كذا وكذا، فنحن لا نرضىٰ بإمارته.

فمنعهم من ذلك، وناظرهم.

وحكىٰ أحمد قصده في مناظرتهم، وأمرهم بالصبر. قال: فبينا نحن في أيام الواثق، إذ جاء يعقوب ليلًا برسالة الأمير إسحاق بن إبراهيم إلىٰ أبي عبد الله يقول لك الأمير: إن أمير المؤمنين قد ذكرك، فلا يجتمعنَّ إليك أحدٌ، ولا تساكنِّي

بأرض ولا مدينة أنا فيها، فاذهب حيثُ شئتَ من أرض الله.

قال: فاختفىٰ أبو عبد الله بقيَّة حياة الواثق.

وكانت تلك الفتنة، وقتلُ أحمد بن نصر الخزاعي.

رابعًا: عهد المتوكِّل:

قال حنبل: وليَ المتوكِّل جعفر، فأظهر الله السُّنَّة، وفرَّج عن الناس، وكان أبو عبد الله يحدِّثنا ويحدِّث أصحابه في أيام المتوكِّل.

وسمعتُه يقول: ما كان الناس إلىٰ الحديث والعلم أحوج منهم إليه في زماننا[1].

وممَّا ابتلي به الإمام أحمد من أهل البدع في عهد المتوكِّل، كذبُهم عليه وإغراءُ قلب المتوكِّل عليه:

يقول الذهبي ناقلًا عن حنبل: «ثمَّ إنَّ رافعًا رفع إلىٰ المتوكِّل: إنَّ أحمد ربَّص علويًّا في منزله، يريد أن يخرجه ويبايع عليه.

قال: ولم يكن عندنا علمٌ، فبينا نحن ذات ليلة نيام في الصيف، سمعنا الجلبة، ورأينا النيران في دار أبي عبد الله، فأسرعنا، وإذا به قاعد في إزار، ومظفر بن الكلبي صاحب الخبر وجماعة معهم، فقرأ صاحب الخبر كتاب المتوكِّل: ورد علىٰ أمير المؤمنين أن عندكم علويًّا ربَّصته لتبايع له وتظهره...، في كلام طويل.

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٣٦-٢٦٥).

ثم قال له مظفر: ما تقول؟

قال: ما أعرف من هذا شيئًا، وإنِّي لأرىٰ له السَّمع والطَّاعة في عُسري ويُسري، ومنشطي ومكرهي، وأثرةٍ عليَّ، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق في الليل والنهار...، في كلام كثير.

فقال مظفر: قد أمرني أمير المؤمنين أن أُحلفك.

قال: فأحلفه بالطلاق ثلاثًا أنَّ ما عنده طلبة أمير المؤمنين.

ثمَّ فتَّشوا منزل أبي عبد الله والسرب والغرف والسطوح، وفتَّشوا تابوت الكتب، وفتَّشوا النساء والمنازل، فلم يروا شيئًا، ولم يُحسُّوا بشيء، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم، وكتب بذلك إلىٰ المتوكِّل، فوقع منه موقعًا حسنًا، وعلم أنَّ أبا عبد الله مكذوبٌ عليه.

وكان الذي دسَّ عليه رجلٌ من أهل البدع، ولم يمُت حتَّىٰ بيَّن الله أمره للمسلمين، وهو ابنُ الثلجي»[1].

فائدة: تثبيت ابنتي عاصم بن عليٍّ لأبيهما:

قال الذهبيُّ: «كان عاصمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ ممَّن ذبَّ عن الدين في المحنة، فروىٰ الهيثم بنُ خلف الدوري: أنَّ محمد بن سويد الطحَّان حدَّثه، قال: كنَّا عند عاصم ابن علي ومعنا أبو عبيد وإبراهيم بن أبي الليث وجماعة، وأحمد بن حنبل

(١) «السير» (١١/ ٢٦٦-٢٦٧).

يضرب، فجعل عاصمٌ يقول: ألَا رجل يقوم معي، فنأتي هذا الرجل فنكلمه، قال: فما يجيبه أحدٌ، ثمَّ قال ابنُ أبي الليث: أنا أقوم معك يا أبا الحسين، فقال: يا غلام خُفِّي، فقال ابنُ أبي الليث: يا أبا الحسين، أبلغ إلىٰ بناتي، فأوصيهم، فظننَّا أنه ذهب يتكفَّن ويتحنَّط، ثمَّ جاء فقال: إنِّي ذهبتُ إليهنَّ فبكَين، قال: وجاء كتابُ ابنتَي عاصم من واسط: يا أبانا، إنَّه بلغنا أن هذا الرجل أخذ أحمد بنَ حنبل فضربه علىٰ أن يقول: القرآن مخلوق، فاتَّق الله ولا تُجِبه، فواللهِ لأن يأتينا نعيُك، أحبُّ إلينا من أن يأتينا أنَّك أجبتَ»[1].

* * *

(١) «السير» (٩/ ٢٦٤).

(١٢) محنة عبدالله بن محمد بن إسحاق الجزري الأذرمي

ذكر ابنُ بطَّة رَحِمَهُ اللَّهُ في «الإبانة» محنةَ شيخ من أهل أَذَنَة بحضرة الواثق ورجوع الواثق عن مذهبه، وقال الخطيب في «التاريخ»: «كَانَ الواثق باللهِ أشخصَ شيخًا من أهل أَذَنَة للمحنة، وناظرَ ابنَ أَبي دؤاد بحضرته واستعلىٰ عليه الشيخ بحجَّته، فأطلقه الواثقُ وردَّه إِلَىٰ وطنه، ويُقال: إنَّه كان أبا عَبد الرَّحمَن الأذرميَّ»[(١)].

وهذا نصُّ الحكاية، قال ابنُ بطَّة في «الإبانة الكبرىٰ»[(٢)]: «حدَّثنا أبو الحسن

---

(١) «التاريخ» (١٠/ ٧٤).

(٢) الكتاب الثالث (٢/ ٢٦٩)، ورواها كذلك الآجرِّيُّ في «الشريعة» (١/ ٥٤٠)، والخطيب في «التاريخ» (١٠/ ٧٤-٧٩)، وابنُ الجوزي في «مناقب أحمد» (ص:٤٣١-٤٣٦)، وابن قدامة في «كتاب التوَّابين» (ص:١٩٤).

وقال شيخ الإسلام ابنُ تيمية في «التسعينية» (٢/ ٥١٦): «وكذلك احتجاج أبي عبد الرحمن الأذرميِّ، وهو الشيخ الأَذَني الَّذي قدَّمه ابنُ أبي دؤاد علىٰ الواثق، فناظره أمامه كما حكاه ابنُ المهتدي، وقطعه الأذَنِيُّ في المناظرة، والقصَّة مشهورة».

وقال ابنُ حجر في «تهذيب التهذيب» (٦/ ٥): «القصَّة مشهورة حكاها المسعوديُّ وغيرُه ورواها السياريُّ في «الألقاب» بإسناد له قال فيه: إن الشيخ المُنَاظِر هو الأذرميُّ».

أحمد بنُ مطرِّف القاضي البُستيُّ، وحدَّثني أبو صالح بن ثابت، وأخبرني أبو بكر محمد بن الحسن، قالوا: حدَّثنا أبو عبد الله جعفر بن إدريس القزويني، قال: حدَّثنا أحمد بنُ الممتنع بن عبد الله القرشي التيميُّ، قال: أخبرنا أبو الفضل صالح بن عليِّ بن يعقوب بن المنصور الهاشميُّ، وكان من وجوه بني هاشم وأهل الجلالة والسنِّ منهم، قال: حضرتُ المُهتديَ بالله أميرَ المؤمنين -رحمةُ الله عليه- وقد جلس ينظر في أمور المسلمين في دار العامَّة، فنظرت إلىٰ قصص النَّاس تُقرأ عليه من أوَّلها إلىٰ آخرها، فيأمرنا بالتوقيع فيها، وإنشاء الكُتب لأصحابها، وتُختم وتُدفع إلىٰ صاحبه بين يديه، فيسرُّني ذلك، وجعلتُ أنظر إليه، ففطن ونظر إليَّ، فغضضت عنه حتَّىٰ كان ذلك منِّي ومنه مرارًا ثلاثًا، إذا نظر إليَّ غضضت وإذا اشتغل نظرتُ. فقال لي: يا صالحُ، قلتُ: لبَّيك يا أمير المؤمنين، وقمت قائمًا، فقال: في نفسك منَّا شيءٌ تحبُّ أن تقوله؟ أو قال: تريد أن تقوله؟ قلتُ: نعم يا سيِّدي يا أمير المؤمنين، فقال: عُد إلىٰ موضعك، فعُدتُ، وعاد في النظر حتَّىٰ إذا قام قال للحاجب: لا يبرح صالح، فانصرف النَّاس، ثمَّ أذن لي وقد همَّتني نفسي، فدخلتُ دعوتُ له، فقال لي: اجلس، فجلست، فقال: «يا صالح، تقول لي ما دار في نفسك أو أقول أنا ما دار في نفسك أنه دار في نفسك؟». قلت: يا أميرَ المؤمنين، ما تعزم عليه وما تأمر به؟ فقال: وأقول أنا، كأنِّي بك وقد استحسنت ما رأيتَ منَّا، فقلت: أيُّ خليفةٍ خليفتُنا إن لم يكن يقول: القرآن مخلوق، فورد علىٰ قلبي أمرٌ عظيم، وهمَّتني نفسي، ثمَّ قلتُ: يا نفسُ هل تموتين إلَّا مرَّةً واحدةً، وهل تموتين قبل أجَلِك، وهل يجوز الكذب في جدٍّ أو هزلٍ، فقلت: والله يا أمير المؤمنين ما دار في نفسي إلَّا ما قلتُ، أطرق

مليًّا، ثمَّ قال: ويحك، اسمع منِّي ما أقول لك، فواللهِ لتسمعُنَّ الحق، فسُرِّي عنِّي، وقلت: يا سيِّدي ومن أولىٰ بالحقِّ منك وأنت خليفةُ ربِّ العالمين، وابنُ عمِّ سيِّد المرسلين من الأوَّلين والآخرين؟ فقال لي: ما زلتُ أقولُ: إن القرآن مخلوق صدرًا من خلافة الواثق، حتَّىٰ أقدم علينا ابنُ أبي دؤاد شيخًا من أهل الشام من أهل أَذَنَة، فأُدخل الشيخ علىٰ الواثق وهو جميل الوجه، تامُّ القامة، حسنُ الشَّيبة، فرأيتُ الواثق قد استحيا منه وَرَقَّ له، فما زال يُدنيه ويُقرِّبه حتَّىٰ قرُب منه، فسلَّم الشيخُ فأحسن السلام، ودعا فأبلغ وأوجز، فقال له الواثق: اجلس، ثمَّ قال له: يا شيخ، ناظر ابنَ أبي دُؤاد علىٰ ما يُناظرك عليه، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين ابنُ أبي دؤاد يَقِلُّ ويَضعُف عن المناظرة، فغضب الواثقُ وعاد مكان الرِّقَّة له غضبًا عليه، فقال: أبو عبد الله ابنُ أبي دؤاد يصبو، ويقلُّ ويضعُف عن مناظرتك أنت؟ فقال الشيخ: هوِّن عليك يا أمير المؤمنين ما بك، وأذن لي في مناظرته، فقال الواثق: ما دعوتُك إلَّا لمناظرته. فقال الشيخ: يا أحمد، إلىٰ ما دعوتَ النَّاس ودعوتني إليه؟ فقال: إلىٰ أن تقول: القرآن مخلوق. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين إن رأيتَ أن تحفظ عليَّ وعليه ما نقول. قال: أفعل. فقال الشيخ: يا أحمد أخبرني عن مقالتك هذه، واجبةٌ داخلةٌ في عقدة الدين، فلا يكون الدِّين كاملًا حتَّىٰ يقال فيه ما قلت؟ قال الشيخ: يا أحمد أخبرني عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله ﷻ إلىٰ عباده، هل ستر رسولُ الله ﷺ ممَّا أمره الله به في دينه؟ قال: لا. قال الشيخ: فدعا رسول الله ﷺ الأمَّة إلىٰ مقالتك هذه؟ فسكت ابنُ أبي دؤاد. فقال الشيخ: تكلَّم. فسكت، فالتفت الشيخ إلىٰ الواثق، فقال: يا أمير المؤمنين واحدة. فقال الواثق: واحدة. فقال الشيخ:

يا أحمد أخبرني عن الله سبحانه حين أنزل القرآن علىٰ رسول الله ﷺ، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]، كان الله عز وجل الصادق في إكمال دينه أم أنت الصادق في نقصانه، فلا يكون الدِّين كاملًا حتَّىٰ يقال فيه بمقالتك هذه؟ فسكت ابنُ أبي دؤاد، فقال الشيخ: أجب يا أحمد، فلم يُجبه. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين اثنتان. فقال الواثق: اثنتان. فقال الشيخ: يا أحمد أخبرني عن مقالتك هذه، عَلِمَها رسولُ الله ﷺ أم جَهِلَها؟ فقال ابنُ أبي دؤاد: عَلِمَها. قال الشيخ: فدعا النَّاسَ إليها؟ فسكت ابنُ أبي دؤاد، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين ثلاثٌ. فقال الواثق: ثلاثٌ. فقال الشيخ: يا أحمد فاتَّسع لرسول الله ﷺ إذ عَلِمَها كما زعمتَ، ولم يُطالب أمَّته بها؟ قال: نعم. قال الشيخ: واتَّسع لأبي بكر الصِّدِّيق، وعمرَ بنِ الخطاب، وعثمانَ بن عفَّان، وعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنهم ؟ فقال ابنُ أبي دؤاد: نعم.

فأعرض الشيخ عنه، وأقبل علىٰ الواثق، فقال: يا أمير المؤمنين قدَّمتُ القول أن أحمد يصبو ويقلُّ ويضعف عن المناظرة، يا أمير المؤمنين إن لم يتَّسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتَّسع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، فلا وسَّع الله علىٰ من لم يتَّسع له ما اتَّسع لهم من ذلك. فقال الواثق: نعم، إن لم يتَّسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتَّسع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ، فلا وسَّع الله علينا، اقطعوا قيد هذا الشيخ. لمَّا قطع ضربَ الشيخ بيده إلىٰ القيد ليأخذه، فجاذبه الحدَّاد عليه، فقال الواثق: دع

---

(١) [المائدة: ٣].

الشيخ ليأخذه، فأخذه الشيخ فوضعه في كمِّه، فقال الواثق: لم جاذبت عليه؟ قال الشيخ: لأنِّي نويتُ أن أتقدَّم إلىٰ من أوصي إليه إذا أنا متُّ أن يجعله بيني وبين كفني حتَّىٰ أخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة، وأقول: يا ربِّ سل عبدَك هذا لِمَ قيَّدني، ورَوَّع أهلي وولدي وإخواني بلا حقٍّ أوجب ذلك عليَّ؟ وبكىٰ الشيخ، فبكىٰ الواثق فبكينا، ثم سأله الواثق أن يجعله في حلٍّ وسَعةٍ ممَّا ناله، فقال الشيخ: واللهِ يا أمير المؤمنين لقد جعلتُك في حلٍّ وسَعةٍ من أوَّل يوم إكرامًا لرسول الله ﷺ، إذ كنت رجلًا من أهله. فقال الواثق: لي إليك حاجةٌ. فقال الشيخ: إن كانت ممكنةً فعلت. فقال الواثق: تُقيم قِبَلَنا، فينتفع بك فتيانُنا. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين إنَّ ردَّك إيَّاي إلىٰ الموضع الَّذي أخرجني منه هذا الظالم أنفعُ لك من مقامي عليك، وأُخبرك بما في ذلك أصيرُ إلىٰ أهلي وولدي، فأكفَّ دعاءهم، فقد خلَّفتُهم علىٰ ذلك. فقال الواثق: فتقبلُ منَّا صلةً تستعين بها علىٰ دهرك. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين لا تحلُّ لي، أنا عنها غنيٌّ، وذو مرَّةٍ سويٍّ، قال: فاسأل حاجتك. قال: أوَتقضيها يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: تُخلِّي سبيلي الساعةَ وتأذنُ لي فيه. قال: قد أذنتُ لك. فسلَّم عليه الشيخ وخرج. قال صالح: قال المهتدي بالله: فرجعتُ عن هذه المقالة من ذلك اليوم، وأظنُّ الواثق بالله كان رَجَع عنها من ذلك الوقت».

* * *

(١٣) محنة الإمام بقيِّ بن مخلد الأندلسي (ت: ٢٧٦هـ)

هو الإمام القدوة، شيخ الإسلام، بقيُّ بنُ مخلد الأندلسيُّ، أبو عبد الرحمن الحافظ، إمامٌ في الحديث، له رحلةٌ في طلب العلم، صاحبُ التفسير والمسند اللَّذين لا نظير لهما، سمع أبا عبد الله أحمدَ بنَ حنبل، وأبا بكر بنَ أبي شيبة، وأحمدَ بنَ إبراهيم الدورقي، وخلقًا كثيرًا يزيدون علىٰ مائتي رجل، وكتب المصنَّفات الكبار، وأدخلها الأندلس، ونشر علم الحديث بها[1].

وممَّا حصل له بسبب التعصُّب المذهبي أنَّه لمَّا دخل الأندلس بكتاب مصنَّف أبي بكر بن أبي شيبة، وقُرئ عليه، أنكر جماعةٌ من أهل الرأي ما فيه من الخلاف، واستشنعوه وبسطوا العامَّة عليه، ومنعوه من قراءته، إلىٰ أن اتَّصل ذلك بالأمير محمد فاستحضره وإيَّاهم، واستحضر الكتابَ كلَّه وجعل يتصفحه جزءًاجزءًا إلىٰ أن أتىٰ علىٰ آخره، وقد ظنُّوا أنَّه يوافقهم في الإنكار عليه، ثم قال لخازن الكتب: «هذا كتابٌ لا تستغني خزائنُنا عنه، فانظر في نسخةٍ لنا»، ثمَّ قال لبقيٍّ: «انشر علمَك، وارو ما عندك من الحديث، واجلس للنَّاس ينتفعوا بك»،

(١) «تاريخ دمشق» (١٠/ ٣٥٧) عن ابن ماكولا.

أو كما قال، قال: ونهاهم أن يتعرَّضوا له[١].

قال الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال أبو الوليد بنُ الفَرَضي في تاريخه: ملأ بقيُّ بنُ مخلد الأندلس حديثًا، فأنكر عليه أصحابُه الأندلسيُّون: أحمد بن خالد ومحمد بن الحارث وأبو زيد ما أدخله من كتب الاختلاف وغرائب الحديث، فأغرَوا به السلطان، وأخافوه به، ثمَّ إنَّ الله أظهره عليهم، وعصمه منهم، فنشر حديثَه، وقرأ للنَّاس روايته، ثمَّ تلاه ابنُ وضَّاح، فصارت الأندلس دار حديث وإسناد، وممَّا انفرد به ولم يُدخله سواه: مصنَّف أبي بكر بن أبي شيبة بتمامه، وكتاب الفقه للشافعيِّ بكماله يعني الأم، وتاريخ خليفة، وطبقات خليفة، وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز لأحمد بن إبراهيم الدورقي، وليس لأحدٍ مثلُ مسنده»[٢].

ونقل عن أبي عبد الملك القرطبي قوله: «وكان بقيٌّ أوَّل من كثَّر الحديث بالأندلس، ونشره، وهاجم به شيوخ الأندلس، فثاروا عليه؛ لأنَّهم كان علمهم بالمسائل، ومذهب مالك، وكان بقيٌّ يُفتي بالأثر، فشذَّ عنهم شذوذًا عظيمًا فعقدوا عليه الشهادات، وبدَّعوه، ونسبوا إليه الزندقة، وأشياء نزَّهه الله منها، وكان بقيٌّ يقول: لقد غرست لهم بالأندلس غرسًا لا يُقلع إلَّا بخروج الدَّجَّال»[٣].

(١) «تاريخ مدينة دمشق» (١٠/ ٣٥٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٨٧).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٩٠).

(١٤) محنة الإمام الحسن بن علي البربهاري (ت:٣٢٩هـ)

من أئمَّة أهل السنَّة الحنابلة الَّذين حصل لهم الابتلاء والكيد من أهل البدع: العالمُ الزاهد الفقيه الحنبليُّ الواعظ الحسنُ بنُ عليِّ بن خلف أبو محمد البربهاريُّ[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال ابنُ أبي يعلىٰ: «شيخُ الطائفة في وقته ومتقدِّمُها في الإنكار علىٰ أهل البدع والمباينة لهم باليد واللِّسان»[(٢)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان شديدًا علىٰ أهل البدع والمعاصي، وكان كبير القدر، تُعظِّمه الخاصَّة والعامَّة، وقد عطس يومًا وهو يعظُ فشمَّته الحاضرون، ثمَّ شمَّته من سمعهم حتَّىٰ شمَّته أهلُ بغداد، فانتهت الضَّجَّة إلىٰ دار الخلافة، فغار الخليفة من ذلك»[(٣)].

وقال الذهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان قوَّالًا بالحق، داعيةً إلىٰ الأثر، لا يخاف في الله

---

(١) انظر ترجمته في: «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلىٰ (٢/ ١٨)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١١/ ٢٠١)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١٢/ ٩٠)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٥/ ٩٠)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٢/ ٣١٩).

(٢) «طبقات الحنابلة» (٢/ ١٨).

(٣) «البداية والنهاية» (١١/ ٢٠١).

لومة لائم»[١].

وهذه المنزلة العظيمة في قلوب النَّاس لهذا العالم الجليل، وأخذهم من علمه، والاستماع لنصحه وحديثه، مع ما له من المقالات السنيَّة والردِّ على المخالفين وأهل البدع وشدَّته عليهم؛ أغاظت قلوبَ أهل البدع عليه، فكادوا له بما يستطيعون، واستمالوا قلبَ الوالي عليه في عصره.

قال ابنُ أبي يعلىٰ: «وكان له مجاهدات ومقامات في الدين كثيرة، وكان المخالفون يغيظون قلب السلطان عليه»[٢].

ومن أقواله النفيسة في بيان مخاطر البدع وأهلها، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مثل أصحاب البدع مثلُ العقارب، يدفنون رءوسهم وأبدانهم في التراب، ويخرجون أذنابهم، فإذا تمكَّنوا لدغوا، وكذلك أهل البدع هم مختفون بين الناس، فإذا تمكَّنوا بلغوا ما يريدون»[٣].

ومن تدبَّر كتابه الجليل النفيس «شرح السنَّة» وما فيه من إظهار السنَّة ونصرها، عَلِم ما كان في قلوب أعدائه من الغيظ له، ومحاولات كيده، وإلحاق الأذىٰ به.

ومن أقواله السَّنية السُّنِّيَّة في هذا الكتاب:

يقول: «واحذر صغارَ المحدثات من الأمور، فإنَّ صغار البدع تعود حتى تصير كبارًا، وكذلك كلُّ بدعة أُحدثت في هذه الأمَّة، كان أوَّلُها صغيرًا يشبه

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٩٠).

(٢) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤).

(٣) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤).

الحق، فاغترَّ بذلك من دخل فيها، ثمَّ لم يستطع المخرج منها، فعظُمت وصارت دينًا يُدان بها، فخالف الصراط المستقيم، فخرج من الإسلام»[١].

ويقول: «وكان الأمر مستقيمًا حتَّىٰ كانت الطبقة الرابعة في خلافة فلان، انقلب الزمان، وتغيَّر الناس جدًّا، وفشت البدع، وكثر الدعاة إلىٰ غير سبيل الحق والجماعة، ووقعت المحنة في كلِّ شيءٍ لم يتكلَّم به رسولُ الله ﷺ ولا أحدٌ من الصحابة، ودعوا إلىٰ الفرقة، وقد نهىٰ الله ﷻ عن الفرقة، وكفَّر بعضُهم بعضًا، وكلٌّ دعا إلىٰ رأيه، وإلىٰ تكفير من خالفه، فضلَّ الجُّهال والرعاع، ومن لا علم له، وأطمعوا الناس في شيء من أمر الدنيا، وخوَّفوهم عقاب الدنيا، فاتَّبعهم الخلق علىٰ خوفٍ في دينهم، ورغبةٍ في دنياهم، فصارت السنَّة وأهل السنَّة مكتومين، وظهرت البدعة وفشت، وكفَروا من حيث لا يعلمون من وجوه شتَّىٰ، ووضعوا القياس، وحملوا قدرة الربِّ وآياته وأحكامَه وأمرَه ونهيَه علىٰ عقولهم وآرائهم، فما وافق عقولهم قبلوه، وما خالف عقولهم ردُّوه، فصار الإسلام غريبًا، والسنَّة غريبةً، وأهل السنَّة غرباء في جوف ديارهم»[٢].

وقال لمَّا ذكر الجهميَّة: «فدامت لهم المدَّة، ووجدوا من السلطان معونةً علىٰ ذلك، ووضعوا السيف والسوط علىٰ من دون ذلك، فدُرس علمُ السنَّة والجماعة، وأوهنوها، فصاروا مكتومين، لإظهار البدع والكلام فيها ولكثرتهم، فاتَّخذوا المجالس، وأظهروا آراءهم، ووضعوا فيها الكتب، وأطمعوا النَّاس،

---

(١) «شرح السنة» (ص:٢٣).

(٢) «شرح السنَّة» (ص:٤٠).

وطلبوا لهم الرياسة، فكانت فتنة عظيمة لم ينجُ منها إلَّا من عصم الله، فأدنىٰ ما كان يصيب الرَّجل من مجالستهم أن يشكَّ في دينه أو يتابعهم، أو يرىٰ رأيهم علىٰ الحق، ولا يدري أنَّهم علىٰ حق أو علىٰ باطل، فصار شاكًّا، فهلك الخلق حتَّىٰ كانت أيام جعفر -الَّذي يقال له: المتوكِّل-، فأطفأ الله به البدع، وأظهر به الحقَّ، وأظهر به أهل السنَّة، وطالت ألسنتهم مع قلَّتهم، وكثرة أهل البدع إلىٰ يومنا هذا»[1].

ويقول: «وإذا سمعت الرَّجل يطعن علىٰ الآثار، أو يردُّ الآثار، أو يريد غير الآثار؛ فاتَّهمه علىٰ الإسلام، ولا تشكَّ أنَّه صاحب هوىٰ مبتدع»[2].

إلىٰ غير ذلك من العبارات في هذا الكتاب النفيس، الذي ينبغي علىٰ طالب العلم المُتمسِّك بالسنَّة أن يقرأه ويتدبَّره ويفهمه، ليسلم من الوقوع في الفتن والانحراف.

وأمَّا المحنة والفتنة الَّتي حصلت له رَحِمَهُ ٱللَّهُ فكانت علىٰ فترتين، كما يحكيها ابنُ أبي يعلىٰ حيث يقول: «ففي سنة إحدىٰ وعشرين وثلثمائة، في خلافة القاهر ووزيره ابن مُقلة، تقدَّم بالقبض علىٰ البربهاريِّ، فاستتر، وقبض علىٰ جماعة من كبار أصحابه، وحُملوا إلىٰ البصرة، وعاقب الله تعالىٰ ابنَ مقلة علىٰ فعله ذلك، بأن أسخط عليه القاهر، وهرب ابنُ مقلة، وعزله القاهر عن وزارته، وطُرح في داره النَّار، فقبض علىٰ القاهر بالله يوم الأربعاء لستٍّ من شهر

---

(١) «شرح السنَّة» (ص:٤٣).

(٢) «شرح السنَّة» (ص:٥١).

جمادىٰ الآخرة سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة، وحُبس وخُلع وسُملت عيناه في هذا اليوم حتَّىٰ سالتا جمعًا فعمي، ثمَّ تفضَّل الله تعالىٰ وأعاد البربهاريَّ إلىٰ حشمته، وزادت حتَّىٰ إنَّه لمَّا توفِّي أبو عبد الله بنُ عرفة المعروف بنفطويه، وحضر جنازته أماثلُ أبناء الدنيا والدين، كان المقدَّم علىٰ جماعتهم في الإمامة البربهاريِّ، وذلك في صفر سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة.

وفي هذه السنة ازدادت حشمةُ البربهاريِّ، وعَلَت كلمتُه، وظهر أصحابُه، وانتشروا في الإنكار علىٰ المبتدعة، فبلغنا أنَّ البربهاريَّ اجتاز بالجانب الغربيِّ، فعطس فشمَّته أصحابُه، فارتفعت ضجَّتُهم حتَّىٰ سمعها الخليفة وهو في روشنه، فسأل عن الحال فأُخبر بها فاستهولها، ولم تزل المبتدعة ينقلون قلبَ الرَّاضي علىٰ البربهاري، فتقدَّم الراضي إلىٰ بدر الحرسيِّ صاحب الشرطة بالركوب والنداء ببغداد: ألَّا يجتمع من أصحاب البربهاريِّ نفسان، فاستتر وكان ينزل بالجانب الغربيِّ بباب محول، فانتقل إلىٰ الجانب الشرقيِّ مستترًا، فتوُفِّي في الاستتار في رجب سنة تسع وعشرين وثلثمائة»[(١)].

وقال الذهبيُّ في «السير» بعد نقله لكلام ابن أبي يعلىٰ: «وفي تاريخ محمد بن مهدي: أنَّ في سنة ثلاث وعشرين أوقع بأصحاب البربهاريِّ فاستتر، وتُتُبِّع أصحابُه ونُهبت منازلُهم»[(٢)].

فكانت وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ وحيدًا حيث لم يُصلِّ عليه إلَّا رجلٌ واحدٌ، وهذا لاشكَّ

(١) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٩٣).

أنَّه من الابتلاء الَّذي نحسب أنَّ له به الأجر العظيم عند الله تعالىٰ.

يقول الحافظ ابنُ كثير: «فاختفىٰ عند أخت بوران شهرًا، ثمَّ أخذه القيامُ داءٌ فمات عندها، فأمرت خادمها فصلَّىٰ عليه، فامتلأت الدَّار رجالًا عليهم ثياب بياض، ودفنته عندها، ثمَّ أوصت إذا ماتت أن تُدفن عنده، وكان عمره يوم مات ستًّا وتسعين سنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٢٠١).

(١٥) محنة الإمام القدوة أبي بكر بن النابلسي (ت :٣٦٣هـ)

هو الإمام القدوة الشهيد -نحسبه كذلك- أبو بكرمحمد بن أحمد بن سهل الرَّملي، والمعروف بابن النابلسي، حصل له بلاءٌ عظيمٌ من جهة الباطنية العُبيدية الزنادقة حتَّىٰ قُتل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال الذهبيُّ في بيان محنته: «قال أبو ذرٍّ الحافظ: سجنه بنو عُبيد، وصَلَبوه علىٰ السنَّة، سمعتُ الدارقطنيَّ يذكره ويبكي، ويقول: كان يقول -وهو يُسلخ- ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾[1].

قال أبو الفرج بنُ الجوزي: أقام جوهرٌ القائد لأبي تميم صاحبِ مصر أبا بكر النابلسيَّ، وكان ينزل الأكواخ، فقال له: بلغنا أنَّك قلتَ:إذا كان مع الرَّجل عشرةُ أسهم، وجب أن يَرمي في الروم سهمًا، وفينا تسعةً، قال: ما قلتُ هذا، بل قلت: إذا كان معه عشرة أسهم، وجب أن يرميَكم بتسعة، وأن يرميَ العاشر فيكم أيضًا، فإنَّكم غيَّرتم الملَّة، وقتلتم الصالحين، وادَّعيتم نورَ الإلهية، فشهره ثمَّ ضربه، ثمَّ أمر يهوديًّا فسلخه.

---

(١) [الإسراء: ٥٨].

قال ابنُ الأكفانيِّ: توفِّي العبد الصالح الزَّاهد أبو بكر بنُ النابلسي، كان يرىٰ قتال المغاربة، هرب من الرَّملة إلىٰ دمشق، فأخذه متولِّيها أبو محمود الكتامي، وجعله في قفص خشب، وأرسله إلىٰ مصر، فلمَّا وصل قالوا: أنت القائل: لو أنَّ معي عشرة أسهُم، وذكر القصَّة، فسُلخ وحُشِيَ تبنًا، وصُلب.

قال معمر بنُ أحمد بن زياد الصوفي: أخبرني الثِّقة، أنَّ أبا بكر سُلخ من مَفرق رأسه حتَّىٰ بلغ الوجه، فكان يذكر الله ويصبر، حتَّىٰ بلغ الصدر فرحمه السَّلَّاخ، فوكزه بالسِّكين موضع قلبه فقضىٰ عليه.

وأخبرني الثِّقة أنَّه كان إمامًا في الحديث والفقه، صائم الدهر، كبير الصَّولة عند العامَّة والخاصَّة، ولمَّا سُلخ كان يُسمع من جسده قراءة القرآن، فغلب المغربيُّ بالشام، وأظهر المذهب الرديء، وأبطل التراويح والضحىٰ، وأمر بالقنوت في الظهر، وقتل النابلسيَّ سنة ثلاث، وكان نبيلًا رئيس الرَّملة، فهرب، فأُخذ من دمشق.

وقيل: قال شريف ممَّن يعانده لمَّا قدم مصر: الحمد لله علىٰ سلامتك، قال: الحمد لله علىٰ سلامة ديني، وسلامة دنياك.

قلتُ -أي: الذهبي-: لا يوصف ما قَلَب هؤلاء العبيدية الدِّينَ ظهرًا لبطن، واستولوا علىٰ المغرب، ثمَّ علىٰ مصر والشام، وسبُّوا الصحابة.

حكىٰ ابنُ السعساع المصري، أنَّه رأىٰ في النوم أبا بكر بن النابلسي بعدما صُلب وهو في أحسن هيئة، فقال: ما فعل الله بك ؟ فقال:

حَبَانِي مَالِكِي بِدَوَامِ عِزٍّ وَوَاعَدَنِي بِقُرْبِ الإِنْتِصَارِ
وَقَرَّبَنِي وَأَدنَانِي إِلَيهِ وَقَالَ انعَم بِعَيشٍ فِي جِوَارِي»[1]

والفاطميُّون لمَّا ملكوا مصر والمغرب عاثوا قتلًا وتعذيبًا لأهل الإسلام والسنَّة، ومن ذلك ما قاله أبو الحسن القابسيُّ صاحبُ الملخص: إنَّ الذين قتلهم عبيد الله وبنوه أربعة آلاف في دار النحر في العذاب، من عالم وعابد، لبردِّهم عن التَّرضِّي عن الصحابة، فاختاروا الموت، فقال سهل الشاعر:

وَأَحَلَّ دَارَ النَّحرِ فِي أَغلَالِهِ مَن كَانَ ذَا تَقوَىٰ وَذَا صَلَوَاتِ

ودُفن سائرُهم في المنستير، وهو بلسان الفرنج: المعبدُ الكبير[2].

* * *

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ١٤٨-١٥٠)، وانظر: «تاريخ الإسلام» (٢٦/ ٣١١).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ١٤٥).

(١٦) محنة الإمام حكم بن محمد المقرئ (ت: ٣٧٠هـ)

ومن أهل الابتلاء: الإمام أبو القاسم حكمُ بنُ محمَّد بن هشام القرشيُّ المقرئ، من أهل القيروان.

وكان من خبره رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قدم الأندلس في أوَّل ولاية المستنصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فوصل إليه وأكرمه، ثمَّ استأذنه في الجواز إلىٰ بلده، وألحَّ في ذلك، فأذن له فجاز إلىٰ القيروان، ثم امتُحِن مع عبيد الله الشيعيِّ بأن سجنه من أجل صلابة كانت فيه في السُّنَّة، وإنكارٍ شديدٍ علىٰ أهل البدع.

ثمَّ انطلق فجاز إلىٰ الأندلس مرَّةً ثانية، فأكرمه أميرُ المؤمنين، وأجرىٰ عليه العطاء في ديوان قريش، إلىٰ أن مات ليلة الأحد لإحدىٰ عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة سبعين وثلثمائة، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، ودفن في مقبرة الربض، صلَّىٰ عليه أبو جعفر أحمد بن عون الله[(١)].

* * *

(١) انظر: «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفَرَضي (١/ ١٤٣).

(١٧) محنة الإمام أبي عمر أحمد بن محمد الطَّلمنكي (ت: ٤٢٩هـ)

ومن هؤلاء الأئمَّة الذين ابتُلوا بأهل البدع: الإمام المحدِّث الحافظ الأثريُّ أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد الله المعافريُّ الأندلسيُّ الطلمنكيُّ.

قال عنه الذهبي: «كان من بحور العلم... أدخل الأندلس علمًا جمًّا نافعًا، وكان عجبًا في حفظ علوم القرآن، قراءته ولغته وإعرابه وأحكامه ومنسوخه ومعانيه، صنَّف كتبًا كثيرةً في السنَّة، يلوح فيها فضلُه وحفظُه وإمامتُه واتِّباعه للأثر». ونقل عن أبي عمرو الدانيِّ: «وكان فاضلًا ضابطًا شديدًا في السُّنَّة»، وعن ابن بشكوال قوله: «كان سيفًا مجرَّدًا علىٰ أهل الأهواء والبدع، قامعًا لهم، غيورًا علىٰ الشريعة، شديدًا في ذات الله»[1].

ولشدَّة تمسُّكه بالسُّنَّة وشدَّة إنكاره علىٰ أهل الأهواء والبدع فقد ابتُليَ بكذبهم عليه، واتَّهموه بالخروج وأنَّه يرىٰ السيف.

يحكي ذلك الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول: «وقد امتُحِن لفرط إنكاره، وقام عليه طائفةٌ من أضداده، وشهدوا عليه بأنه حروريٌّ، يرىٰ وضع السَّيف في صالحي

---

(١) «السير» (١٧/ ٥٦٧).

المسلمين، وكان الشهود عليه خمسةَ عشر فقيهًا، فنصره قاضي سرقسطة في سنة خمس وعشرين وأربعمائة، وأشهد علىٰ نفسه بإسقاط الشهود، وهو القاضي محمد بن عبد الله بن قرنون»[١].

❊ ❊ ❊

(١) «السير» (١٧/ ٥٦٨).

(١٨) محنة الإمام أبي إسماعيل الأنصاري (ت: ٤٨١هـ)

إذا قرأت في سيرة الحافظ الكبير أبي إسماعيل عبدالله بن محمد الأنصاري الهروي، مصنِّف كتاب «ذمِّ الكلام»؛ وجدت أنَّه من العلماء الَّذين أصابهم الأذىٰ والكيد من أهل البدع، لِمَا كان يتحلَّىٰ به من الشدَّة تجاه أهل البدع، وسلِّ سيف الرَّدِّ عليهم وعلىٰ ضلالهم.

قال أبو سعد السمعانيُّ: «كان أبو إسماعيل مُظهرًا للسنَّة، داعيًا إليها، محرِّضًا عليها»[١].

حتَّىٰ أنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ ترك الرواية عن الحِيري لمَّا رأىٰ أنه يخالف السنَّة في اعتقاده، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «تركتُ الحِيريَّ لله»، قال المؤتمن: «وإنَّما تركه؛ لأنه سمع منه شيئًا يخالف السُّنَّة».

ثم علَّق الذهبيُّ قائلًا: «قلتُ: كان يدري الكلام علىٰ رأي الأشعري، وكان شيخ الإسلام أثريًّا قحًّا ينال من المتكلِّمة، فلهذا أعرض عن الحيريِّ، والحيريُّ: فثقةٌ عالمٌ، أكثرَ عنه البيهقيُّ والنَّاسُ»[٢].

---

(١) «السير» (١٨/ ٥١٤).

(٢) «السير» (١٨/ ٥٠٦).

وهو المأثور عنه رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الأبيات:

«أَنَا حَنبَلِيٌّ مَا حَيِيتُ وَإِن أَمُت ... فَوَصِيَّتِي ذَاكُمْ إِلَى الإِخوَانِ

إِذ دِينُهُ دِينِي وَدِينِي دِينُهُ ... مَا كُنتُ إِمَّعَةً لَهُ دِينَانِ»

ومن قوَّته في الحقِّ ونصره للسنَّة كان يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «عُرضتُ على السيف خمس مرَّات، لا يُقال لي: ارجع عن مذهبك، لكن يُقال لي: اسكُت عمَّن خالفك، فأقول: لا أسكت»[١].

يقول عنه الحافظ أبو النَّضر الفاميُّ: «كان بكر الزمان، وواسطة عقد المعاني، نضرة الدِّين والسنَّة، من غير مداهنةٍ ولا مراقبةٍ لسلطان ولا وزير، وقد قاسى بذلك قصد الحُسَّاد في كلِّ وقت، وسَعَوا في رُوحه مرارًا، وعمدوا إلى هلاكه أطوارًا، فوقاه الله شرَّهم، وجعل قصدهم أقوى سببٍ لارتفاع شأنه»[٢].

ويقول الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كان هذا الرجل سيفًا مسلولًا على المتكلِّمين، له صولةٌ وهيبةٌ واستيلاءٌ على النفوس ببلده، يعظِّمونه ويتغالَون فيه، ويبذلون أرواحهم فيما يأمر به، كان عندهم أطوعَ وأرفعَ من السلطان بكثير، وكان طودًا راسيًا في السُّنَّة، لا يتزلزل ولا يلين، لولا ما كدَّر كتابه «الفاروق» في الصفات بذكر أحاديث باطلة، يجب بيانُها وهتكُها، والله يغفر له بحسن قصده، وصنَّف الأربعين في التوحيد، وأربعين في السنَّة، وقد امتُحِن مرَّات، وأوذي ونُفي من بلده»[٣].

---

(١) «السير» (١٨/ ٥٠٩).

(٢) «تاريخ الإسلام» (٣٣/ ٥٤).

(٣) «السير» (١٨/ ٥٠٩).

وكان ممَّا ابتُلي به هذا الإمام ما ذكره ابنُ طاهر رَحِمَهُ اللَّهُ: «حكىٰ لي أصحابنا: أن السلطان ألب آرسلان قدم هراة، ومعه وزيره نظام الملك، فاجتمع إليه أئمة الحنفية وأئمة الشافعية للشكوىٰ من الأنصاري، ومطالبته بالمناظرة، فاستدعاه الوزير، فلمَّا حضر قال: إنَّ هؤلاء قد اجتمعوا لمناظرتك، فإن يكن الحق معك رجعوا إلىٰ مذهبك، وإن يكن الحق معهم رجعت أو تسكت عنهم، فوثب الأنصاري وقال: أناظر علىٰ ما في كُمِّي. قال: وما في كُمِّك؟ قال: كتاب الله، وأشار إلىٰ كُمِّه اليمين، وسنَّة رسول الله، وأشار إلىٰ كُمِّه اليسار، وكان فيه الصحيحان، فنظر الوزير إليهم، مستفهماتهم[1]، فلم يكن فيهم من ناظره من هذا الطريق»[2].

وقال أيضًا: «قال: وسمعت أصحابنا بهراة يقولون: لمَّا قدم السلطان ألب آرسلان هراة في بعض قدماته، اجتمع مشايخُ البلد ورؤساؤه، ودخلوا علىٰ أبي إسماعيل، وسلَّموا عليه، وقالوا: وَرَد السلطان، ونحن علىٰ عزم أن نخرج ونسلِّم عليه، فأحببنا أن نبدأ بالسلام عليك، وكانوا قد تواطئوا علىٰ أن حملوا معهم صنمًا من نُحاس صغيرًا، وجعلوه في المحراب تحت سجادة الشيخ، وخرجوا وقام الشيخ إلىٰ خلوته، ودخلوا علىٰ السلطان، واستغاثوا من الأنصاريِّ، وأنه مُجَسِّم، وأنَّه يترك في محرابه صنمًا، يزعم أنَّ الله تعالىٰ علىٰ صورته، وإن بَعَث السلطان الآن يجده، فعظُم ذلك علىٰ السلطان، وبعث غلامًا وجماعة

---

(١) قال في الحاشية في «تذكرة الحفاظ»: مستفهمًا لهم.

(٢) «السير» (١٨/ ٥١١).

فدخلوا وقصدوا المحراب، فأخذوا الصنم، فألقىٰ الغلام الصنم، فبعث السلطان من أحضر الأنصاريَّ، فأتىٰ فرأىٰ الصنم والعلماء وقد اشتدَّ غضبُ السلطان، فقال له السلطان: ما هذا؟ قال: صنم يُعمل من الصُّفر، شبه اللُّعبة، قال: لستُ عن ذا أسألك. قال: فَعَمَّ يسألني السلطان؟! قال: إنَّ هؤلاء يزعمون أنَّك تعبد هذا، وأنَّك تقول: إنَّ الله علىٰ صورته، فقال شيخ الإسلام -بصولةٍ وصوت جهوريٍّ-: سبحانك هذا بهتان عظيم! فوقع في قلب السلطان أنَّهم كذبوا عليه، فأُمر به فأُخرج إلىٰ داره مكرَّمًا، وقال لهم: اصدُقوني، وهَدَّدَهم، فقالوا: نحن في يد هذا في بليَّةٍ من استيلائه علينا بالعامَّة، فأردنا أن نقطع شرَّه عنَّا، فأَمَر بهم، ووكَّل بهم، وصادرهم، وأَخَذ منهم، وأهانهم»[1].

وقال: «وسمعتُ خادمَه أحمد بن أميرجه يقول: حضرتُ مع الشيخ للسلام علىٰ الوزير نظام الملك، وكان أصحابنا كَلَّفوه الخروج إليه، وذلك بعد المحنة، ورجوعه إلىٰ وطنه من بلخ، يعني: أنَّه كان قد غُرِّب، قال: فلمَّا دخل عليه أكرمه وبجَّلَه، وكان هناك أئمَّة من الفريقين، فاتَّفقوا علىٰ أن يسألوه بين يدي الوزير، فقال العلويُّ الدَّبوسيُّ: يأذن الشيخ الإمام أن أسأل؟ قال: سل. قال: لِمَ تلعن أبا الحسن الأشعريَّ؟ فسكت الشيخ، وأطرق الوزير، فلمَّا كان بعد ساعة قال الوزير: أجبه، فقال: لا أعرف أبا الحسن، وإنَّما ألعن من لم يعتقد أن الله في السماء، وأن القرآن في المصحف، ويقول: إنَّ النَّبيَّ ﷺ اليوم ليس بنبيٍّ، ثمَّ قام وانصرف، فلم يمكن أحدًا أن يتكلَّم من هيبته، فقال الوزير للسائل: هذا أردتم

---

(١) «السير» (١٨/ ٥١٢).

أن نسمع ما كان يذكره بهراة بآذاننا، وما عسىٰ أن أفعل به، ثمَّ بعث إليه بصلة وخلع فلم يقبلها، وسافر من فوره إلىٰ هراة»[1].

* * *

(١) «السير» (١٨/ ٥١١).

(١٩) محنة الإمام عبدالغني المقدسي (٦٠٠هـ)

من العلماء الذين ابتُلوا بكيد أهل البدع ومكرهم: الإمام الحافظ تقيُّ الدين أبو محمد عبد الغنيِّ بن عبد الواحد المقدسيُّ الجمَّاعيليُّ، ثمَّ الدمشقيُّ الصالحيُّ الحنبليُّ. قال عنه الذهبيُّ: «العابد الأثريُّ المتَّبع»[١]، وله رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرٌ من المؤلَّفات في الاعتقاد مثل: «الصفات»، و«ذمِّ الرياء»، و«اعتقاد الشافعيِّ».

ومن مصنَّفاته في المحنة والابتلاء: كتابه «محنة الإمام أحمد» في جزأين، قال الضياء: سمعت أبا محمد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبار، سمعت الحافظ يقول: «سألتُ اللهَ أن يرزقني مثل حال الإمام أحمد، فقد رزقني صلاتَه، ثمَّ ابتُلي بعد ذلك وأُوذي»[٢].

وقال الضياء: أخبرني خالي موفَّق الدين[٣] قال: «كان الحافظ عبد الغنيِّ جامعًا للعلم والعمل، وكان رفيقي في الصِّبا، وكان رفيقي في طلب العلم، وما كنَّا نستبق إلىٰ خير إلَّا سبقني إليه إلَّا القليل، وكمَّل الله فضيلته بابتلائه بأذىٰ أهل

---

(١) «السير» (٢١/ ٤٤٣).

(٢) «السير» (٢١/ ٤٥٨).

(٣) هو ابنُ قدامة صاحبُ «المغني» ابنُ خالة عبدالغنيِّ.

البدعة وعداوتهم، ورُزق العلم وتحصيل الكتب الكثيرة إلَّا أنَّه لم يُعمر».

وانظر كيف عدَّ الإمام موفَّق الدين ابنُ قدامة من فضائله عداوةَ أهل البدع له، لمواقفه الجليلة الثابتة تجاه أهل البدع ومقالاتهم، ولشدَّته عليهم وعلىٰ منكراتهم ومنكرات أهل المعاصي، وكان قد وَضَع الله له هيبةً في النفوس، بل في نفس السلطان في وقته، يقول الضياء: «كان لا يرىٰ مُنكرًا إلَّا غيَّره بيده أو بلسانه، وكان لا تأخذه في الله لومةُ لائم»[١]، وكان هو يقول عن نفسه رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنا إذا رأيت شيئًا لا أقدر أصبر»[٢]، ولشدَّة تمسُّكه بالسنَّة ومحافظته عليها وتديُّنه قال الضياء: «ما أعرف أحدًا من أهل السنَّة رآه إلَّا أحبَّه ومدحه كثيرًا»[٣].

ولأجل هذه المواقف الثابتة في التمسُّك بدين الله، واعتقاد السلف الصالح، ونشره لأحاديث الصفات وآثار الاعتقاد؛ اجتهد أهل البدع في كيده ومحاولة الإيقاع بينه وبين الملك العادل، قال الضياء: «كانوا قد وَغَروا عليه صدر العادل، وتكلَّموا فيه، وكان بعضُهم أرسل إلىٰ العادل يبذل في قتل الحافظ خمسة آلاف دينار».

وعلَّق الذهبيُّ قائلًا: «قلتُ: جرَّ هذه الفتنة نشرُ الحافظ أحاديثَ النزول والصفات، فقاموا عليه ورموه بالتَّجسيم، فما دَارَىٰ كما كان يُداريهم الشيخ الموفَّق»[٤].

---

(١) «السير» (٢١/ ٤٥٤).

(٢) «السير» (٢١/ ٤٥٦).

(٣) «السير» (٢١/ ٤٥٦).

(٤) «السير» (٢١/ ٤٥٥).

وقد كثُر البلاء علىٰ هذا الإمام من أهل البدع، فمن ذلك ما كان في أصبهان علىٰ ما حكاه الضياء أنَّ الحافظ عبدالغنيّ لمَّا نقد كتاب الحافظ أبي نعيم في الصحابة، وأخذ عليه نحوًا من مائتين وتسعين موضعًا، فلمَّا سمع بذلك الصدر الخُجَندِيُّ طلب عبدَ الغنيِّ وأراد هلاكه فاختفىٰ، ونقل عن محمود بن سلامة قوله: «ما أخرجنا الحافظ من أصبهان إلَّا في إزار، وذلك أن بيت الخجندي أشاعرة، كانوا يتعصَّبون لأبي نعيم، وكانوا رؤساء البلد»[1].

وكذلك في الموصل من الأحناف المتعصبة علىٰ ما يبدو، فيقول الحافظ: «كنَّا بالموصل نسمع الضعفاء للعقيليِّ، فأخذني أهلُ الموصل، وحبسوني وأرادوا قتلي، من أجل ذكر شيء فيه[2]، فجاءني رجل طويل ومعه سيف، فقلت: يقتلني وأستريح. قال: فلم يصنع شيئًا ثم أطلقوني، وكان يسمع معه ابن البَرني الواعظ، فقلع الكراس الذي فيه ذلك الشيء، فأرسلوا وفتشوا الكتاب فلم يجدوا شيئًا، فهذا سببُ خلاصه»[3].

وحصلت له فتنة عظيمة في دمشق تدلُّ علىٰ خطورة أهل البدع، وأنَّهم يبذلون شتَّىٰ الوسائل في صرف الناس عن الحق وأهله، وهذه الحادثة يذكر تفاصيلها الضياء كذلك:

«كان الحافظ يقرأ الحديث بدمشق، ويجتمع عليه الخلق فوقع الحسد،

---

(١) «السير» (٢١/ ٤٥٩).

(٢) لعلَّه ذكرُ أبي حنيفة في ذلك الكتاب، وهذا ما جزم به المعلِّقون علىٰ «السير».

(٣) «السير» (٢١/ ٤٥٩).

فشرعوا: عملوا لهم وقتًا لقراءة الحديث، وجمعوا النَّاس فكان هذا ينام، وهذا بلا قلب فما اشتفوا، فأمروا الناصح ابن الحنبلي بأن يعظ تحت النسر يوم الجمعة وقت جلوس الحافظ، فأول ذلك أنَّ الناصح والحافظ أرادا أن يختلفا الوقت، فاتفقا أنَّ الناصح يجلس بعد الصلاة، وأن يجلس الحافظ العصر، فدسُّوا إلىٰ النَّاصح رجلًا ناقص العقل من بني عساكر، فقال للناصح في المجلس ما معناه: إنك تقول الكذب علىٰ المنبر فضُرب وهَرب، فتمَّت مكيدتُهم ومشوا إلىٰ الوالي وقالوا: هؤلاء الحنابلة قصدهم الفتنة، واعتقادهم يخالف اعتقادنا، ونحو هذا، ثم جمعوا كُبراءهم ومضوا إلىٰ القلعة إلىٰ الوالي، وقالوا: نشتهي أن تُحضر عبد الغني، فانحدر إلىٰ المدينة خالي الموفَّق، وأخي الشمس البخاري، وجماعة، وقالوا: نحن نناظرهم، وقالوا للحافظ: لا تجئ فإنَّك حدّ نحن نكفيك، فاتَّفق أنهم أخذوا الحافظ وحده، ولم يَدر أصحابُنا فناظروه، واحتدَّ وكانوا قد كتبوا شيئًا من الاعتقاد، وكتبوا خطوطهم فيه، وقالوا له: اكتب خطَّك فأبىٰ، فقالوا للوالي: الفقهاء كلُّهم قد اتَّفقوا علىٰ شيء وهو يخالفهم، واستأذنوه في رفع منبره، فبعث الأسرىٰ فرفعوا ما في جامع دمشق من منبر وخزانة ودرابزين، وقالوا: نريد ألَّا تجعل في الجامع إلَّا صلاة الشافعية، وكسروا منبر الحافظ، ومنعونا من الصلاة، ففاتتنا صلاة الظهر.

ثم إنَّ النَّاصح جمع البنويَّة وغيرهم، وقالوا: إن لم يخلُّونا نصلِّي باختيارهم صلَّينا بغير اختيارهم، فبلغ ذلك القاضي وكان صاحب الفتنة فأذن لهم، وحمىٰ الحنفية مقصورتهم بأجناد، ثم إنَّ الحافظ ضاق صدرُه ومضىٰ إلىٰ بعلبك، فأقام بها

مدَّة، فقال له أهلُها: إن اشتهيت جئنا معك إلىٰ دمشق نؤذي من آذاك، فقال: لا.

وتوجَّه إلىٰ مصر فبقي بنابلس مدَّة يقرأ الحديث، وكنت أنا بمصر فجاء شاب من دمشق بفتاوٍ إلىٰ صاحب مصر الملك العزيز، ومعه كتب أن الحنابلة يقولون: كذا وكذا، ممَّا يشنِّعون به عليهم، فقال وكان يتصيَّد: إذا رجعنا أخرجنا من بلادنا من يقول بهذه المقالة، فاتَّفق أنَّه عدا به الفرس فشبَّ به فسقط فخسف صدره، كذلك حدَّثني يوسف بنُ الطفيل شيخُنا، وهو الَّذي غسَّله، فأقيم ابنُه صبيٌّ فجاء الأفضل من صرخد، وأخذ مصر وعسكر وكرَّ إلىٰ دمشق، فلقي الحافظ عبد الغني في الطريق فأكرمه إكرامًا كثيرًا ونفذ يوصي به بمصر، فتُلقي الحافظ بالإكرام، وأقام بها يسمع الحديث بمواضع، وكان بها كثيرٌ من المخالفين، وحصر الأفضل دمشق حصرًا شديدًا، ثمَّ رجع إلىٰ مصر فسار العادل عمُّه خلفه، فتملَّك مصر وأقام، وكثر المخالفون علىٰ الحافظ فاستُدعي، وأكرمه العادل، ثمَّ سافر العادل إلىٰ دمشق، وبقي الحافظ بمصر وهم ينالون منه، حتَّىٰ عزم الملك الكامل علىٰ إخراجه، واعتقل في دار أسبوعًا، فسمعت أبا موسىٰ يقول: سمعت أبي يقول: ما وجدت راحةً في مصر مثل تلك الليالي، قال: وكانت امرأةٌ في دار إلىٰ جانب تلك الدار، فسمعتها تبكي، وتقول: بالسرِّ الَّذي أودعته قلبَ موسىٰ حتَّىٰ قوي علىٰ حمل كلامك، قال: فدعوتُ به فخلُصت تلك الليلة.

سمعت أحمد بن محمد بن عبد الغنيِّ، حدَّثني الشجاع بنُ أبي زكري الأمير، قال: قال لي الملك الكامل يومًا: ها هنا فقيهٌ قالوا: إنه كافر، قلتُ: لا أعرفه، قال: بلىٰ هو محدِّث، قلت: لعلَّه الحافظ عبدُ الغني؟ قال: هذا هو، فقلتُ: أيُّها الملك،

العلماء أحدُهم يطلب الآخرة، وآخر يطلب الدنيا، وأنت هنا باب الدنيا، فهذا الرجل جاء إليك أو تشفَّع يطلب شيئًا؟ قال: لا، فقلت: والله هؤلاء يحسدونه، فهل في هذه البلاد أرفعُ منك؟ قال: لا، فقلت: هذا الرجل أرفعُ العلماء، كما أنت أرفعُ الناس، فقال: جزاك الله خيرًا كما عَرَّفتني، ثم بعثتُ رقعةً إليه أوصيه به، فطلبني فجئت، وإذا عنده شيخ الشيوخ ابنُ حمويه، وعزُّ الدين الزّنجاري، فقال لي السلطان: نحن في أمر الحافظ، فقال: أيُّها الملك، القومُ يحسدونه، وهذا الشيخ بيننا -يعني: شيخَ الشُّيوخ- وحلَّفته هل سمعتَ من الحافظ كلامًا يخرج عن الإسلام؟ فقال: لا واللهِ وما سمعت عنه إلَّا كلَّ جميل، وما رأيته. وتكلَّم ابن الزَّنجاريِّ فمدح الحافظ كثيرًا وتلامذته، وقال: أنا أعرفهم ما رأيتُ مثلَهم، فقلت: وأنا أقول شيئًا آخر لا يصل إليه مكروه حتَّىٰ يُقتل من الأكراد ثلاثة آلاف، قال: فقال: لا يُؤذَىٰ الحافظ، فقلتُ: اكتُب خطَّك بذلك، فكتب.

وسمعتُ بعض أصحابنا يقول: إنَّ الحافظ أمر أن يكتب اعتقاده، فكتب: أقول كذا لقول الله كذا، وأقول كذا لقول الله كذا؛ لقول النبيِّ ﷺ كذا، حتَّىٰ فرغ من المسائل الَّتي يخالفون فيها، فلمَّا رآها الكامل قال: أيش أقول في هذا، يقول بقول الله وقول رسوله ﷺ؟![1].

* * *

---

(١) «السير» (٢١/ ٤٥٩-٤٦٣).

(٢٠) محنة عبد اللطيف بن علي المحدِّث المعدل (ت: ٦٤٧هـ)

عبد اللطيف بن علي بن النفيس بن نوراندان بن الحسام البغدادي، المحدِّث المعدل، أبو محمد بن أبي الحسن بن أبي المفاخر بن أبي منصور، ويلقَّب نور الدين.

قال ابنُ رجب في «ذيل طبقات الحنابلة»[1]: «وُلد في صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وسمع من أبيه أبي الحسن، وأبي محمد جعفر بن محمد بن أموسان، وعبد العزيز بن منينا، وأجاز له ذاكر بن كامل، وعُني بهذا الشأن، وقرأ الكثير علىٰ عمر بن كرم، ومَن بَعدَه، وكتب الكثير بخطه.

قال الذهبيُّ في «تاريخه» عنه: الحافظ المفيد، كتب الكثير، وأفاد، وسمع منه الحافظ الدمياطي، وذكره في معجمه، وأجاز لسليمان بن حمزة، وأبي بكر ابن عبد الدائم، وعيسىٰ المطعم، وغيرهم، وشهد عند محمود الزنجاني.

ثمَّ إنَّه امتُحِن لقراءته شيئًا من أحاديث الصفات بجامع القصر، فسعىٰ به

---

(١) (٣/ ٥٤٧-٥٤٩).

بعضُ المتجِّهمة، وحُبس مُديدة، وأُسقطت عدالتُه، ثم أفرج عنه، وأعاد عدالته ابنُ مقبل، ثمَّ أُسقطت، ثمَّ أعاد عدالته قاضي القضاة أبو صالح، فباشر ديوان الوكالة إلىٰ آخر عمره.

توفِّي بُكرة السبت ثالث عشرين ربيع الآخر -وقيل: ثامن عشرين- سنة سبع وأربعين وستمائة، وصُلِّيَ عليه بمسجده في المأمونية، ودُفن بباب حرب».

* * *

(٢١) محنة شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحرَّاني (ت: ٧٢٨هـ)

لقد رفع الله ﷻ شأن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-، حتَّىٰ كان إمامًا لأهل السنَّة، وقدوة معظَّمًا، بما صبر علىٰ ما أصابه في ذات الله تعالىٰ من المحن والبلاء، فلقد تعرَّض هذا الإمام لعدد من الابتلاءات، وسجن كثيرًا، حتىٰ كانت وفاته في سجن القلعة في دمشق، فلم يردَّه ذلك عن دينه وعقيدته شيئًا، وسجن القلعة وهو ما يسمَّىٰ بالجبِّ كما قال المقريزيُّ: «الجُبُّ: كان بالقلعة جُبٌّ يحبس فيه الأمراء، وكان مهولًا مظلمًا كثير الوطاويط كريه الرائحة، يقاسي المسجون فيه ما هو كالموت أو أشدَّ منه»[(١)].

بل إنَّه رحمه الله عاصر فتنة التتار ودخولهم ديار الإسلام، وكان له دورٌ بارزٌ في جهادهم، وتشجيع المسلمين رعاةً ورعيةً في الصبر علىٰ قتالهم، واحتساب الأجر في جهادهم، وبيَّن لهم أسباب النَّصر والتأييد من الله ليفعلوها، وأسباب الهزيمة والخذلان ليجتنبوها، فجمع رحمه الله بين جهاد السنان وجهاد اللسان.

يقول أبو حفص سراج الدين البزَّار: «كان رضي الله عنه من أشجع النَّاس وأقواهم

---

(١) «المواعظ والاعتبار» (٣/ ٣٧١).

قلبًا، ما رأيتُ أحدًا أثبت جأشًا منه، ولا أعظم عناءً في جهاد العدوِّ منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لؤمة لائم»[١].

ومِمَّا قاله العلماء في بيان مختصر محنته ما ذكره الحافظ الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ولما صنَّف المسألة الحموية في الصفات، سنة ثمان وتسعين وستمائة، تحزَّبوا له، وآل بهم الأمر إلىٰ أن طافوا به علىٰ قصبة من جهة القاضي الحنفي، ونودي عليه بألَّا يُستفتىٰ، ثمَّ قام بنصره طائفة آخرون، وسلَّم الله.

فلمَّا كان سنة خمس وسبعمائة، جاء الأمر من مصر بأن يُسأل عن معتقده، فجُمع له القضاة والعلماء بمجلس نائب دمشق الأفرم، فقال: أنا كنتُ سُئلت عن معتقد أهل السنَّة فأجبت عنه في جزء من سنين، وطلبه من داره، فأُحضر وقرأه، فنازعوه في موضعين أو ثلاثة منه، وطال المجلس فقاموا واجتمعوا مرَّتين أيضًا لتتمَّة الجزء، وحاققوه ثمَّ وقع الاتِّفاق علىٰ أن هذا معتقدٌ سلفيٌّ جيدٌ، وبعضهم قال ذلك كرهًا.

وكان المصريُّون قد سعوا في أمر الشيخ، وملأوا الأمير ركن الدين الجاشنكير الَّذي تسلطن عليه، فطُلب إلىٰ مصر علىٰ البريد، فثاني يوم دخوله اجتمع القضاة والفقهاء بقلعة مصر، وانتصب ابنُ عدلان له خصمًا، وادَّعىٰ عليه عند ابن مخلوف القاضي المالكي، أن هذا يقول: إن الله تكلَّم بالقرآن بحرف وصوت، وأنَّه تعالىٰ علىٰ العرش بذاته، وأن الله يُشار إليه الإشارة الحسِّيَّة، وقال: أطلبُ عقوبته علىٰ ذلك.

---

(١) «الأعلام العليَّة» (ص:٦٧).

فقال القاضي: ما تقول يا فقيه؟ فحمد الله وأثنىٰ عليه.

فقيل له: أسرع، ما أحضرناك لتخطب.

فقال: أَوَمُنع الثناءُ علىٰ الله.

فقال القاضي: أجب، فقد حمدت الله.

فسكت فألحَّ عليه، فقال: مَن الحَكَم فيَّ؟

فأشار له إلىٰ القاضي ابن مخلوف.

فقال: أنت خصمي كيف تحكم فيَّ، وغضب وانزعج، وأسكت القاضي.

فأقيم الشيخ وأخواه، وسجنوا بالجبِّ بقلعة الجبل، وجرت أمور طويلة.

وكتب إلىٰ الشأم كتاب سلطانيٌّ بالخطِّ عليه فقُرئ بالجامع، وتألَّم النَّاس له، ثمَّ بقي سنةً ونصفًا، وأُخرج وكتب لهم ألفاظًا اقترحوها عليه، وهُدِّد وتُوعِّد بالقتل إن لم يكتبها.

وأقام بمصر يُقرئ العلم، ويجتمع عنده خلقٌ إلىٰ أن تكلَّم في الاتِّحادية القائلين بوحدة الوجوه، وهم ابنُ سبعين، وابنُ عربيٍّ، والقونويُّ، وأشباهُهم.

فتحزَّب عليه صوفية وفقراء، وسعوا فيه، وأنه تكلَّم في صفوة الأولياء، فعُمل له محفل، ثمَّ أخرجوه علىٰ البريد.

ثم ردُّوه علىٰ مرحلة من مصر، ورأوا مصلحتهم في اعتقاله، فسجنوه في حبس القضاة سنةً ونصفًا.

فجعل أصحابُه يدخلون إليه في السرِّ، ثمَّ كثروا، فأخرجته الدولة علىٰ البريد إلىٰ الإسكندرية، وحُبس ببرج منها، وشِيع بأنَّه قُتل، وأنه غرق غير مرَّة.

فلمَّا عاد السلطان أيَّده الله تعالىٰ من الكرك، وأباد أضداده، بادر باستحضار الشيخ إلىٰ القاهرة مكرَّمًا، واجتمع به وحادثه وسارَّه بحضرة القضاة والكبار، وزاد في إكرامه.

ثمَّ نزل وسكن في دار، واجتمع بعد ذلك بالسلطان، ولم يكن بعد السلطان يجتمع به، فلمَّا قدم السلطان لكشف العدوِّ عن الرحبة، جاء الشيخ إلىٰ دمشق سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، ثمَّ جرت أمور ومحن»[1].

وقال الشيخ الحافظ فتح الدين أبو الفتح بنُ سيِّد الناس اليعمري بعد ترجمته للحافظ المزِّيِّ: «وهو الذي حَدَاني علىٰ رؤية الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقيِّ الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، فألفيته ممَّن أدرك من العلوم حظًّا، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظًا... إن تكلَّم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتىٰ في الفقه فهو مُدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالنِّحل والملل لم يُر أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته، برز في كلِّ فَنٍّ علىٰ أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه، كان يتكلَّم في التفسير فيحضر مجلسه الجمُّ الغفير، ويَردُون من بحر علمه العذب النمير، ويرتعون من ربيع فضله في روضة

(١) «العقود الدرِّيَّة» لابن عبد الهادي (ص:٢١١-٢١٣).

وغدير، إلىٰ أن دَبَّ إليه من أهل بلده داءُ الحسد، وألَّب أهلُ النظر منهم علىٰ ما ينتقد عليه في حنبليَّته من أمور المعتقد، فحفظوا عنه في ذلك كلامًا أوسعوه بسببه ملامًا، وفوَّقُوا لتبديعه سهامًا، وزعموا أنه خالف طريقهم، وفرَّق فريقهم، فنازعهم ونازعوه، وقاطع بعضهم وقاطعوه، ثمَّ نازع طائفة أخرىٰ ينتسبون من الفقر إلىٰ طريقة، ويزعمون أنَّهم علىٰ أدقِّ باطن منها وأجلىٰ حقيقة، فكشف تلك الطرائق، وذكر لها علىٰ ما زعم بوائق، فآضت إلىٰ الطائفة الأولىٰ من منازعيه، واستعانت بذوي الضغن عليه من مقاطعيه، فوصلوا بالأمراء أمره، وأعمل كلٌّ منهم في كفره فكره، فكتبوا محاضر، وألَّبُوا الرويبضة للسعي بها بين الأكابر، وسعوا في نقله إلىٰ حضرة المملكة بالديار المصرية، فنُقل وأودع السجن ساعة حضوره واعتقل، وعقدوا لإراقة دمه مجالس، وحشدوا لذلك قومًا من عمَّار الزوايا وسكان المدارس، من مُحامل في المنازعة، مُخاتل بالمخادعة، ومن مجاهر بالتكفير مبارز بالمقاطعة، يسومونه ريب المنون، وربُّك يعلم ما تكنُّ صدورهم وما يعلنون، وليس المجاهر بكفره بأسوأ حالًا من المخاتل، وقد دبَّت إليه عقارب مكره، فردَّ الله كيد كلٍّ في نحره، فنجَّاه علىٰ يد من اصطفاه، والله غالب علىٰ أمره، ثمَّ لم يخلُ بعد ذلك من فتنة بعد فتنة، ولم ينتقل طول عمره من محنة إلَّا إلىٰ محنة، إلىٰ أن فوِّض أمره لبعض القضاة، فقلَّد ما تقلَّد من اعتقاله، ولم يزل بمحبسه ذلك إلىٰ حين ذهابه إلىٰ رحمة الله تعالىٰ وانتقاله، وإلىٰ الله ترجع الأمور، وهو المطَّلع علىٰ خائنة الأعين وما تُخفي الصدور»[1].

---

(١) «العقود الدرِّيَّة» لابن عبدالهادي (ص:٢٥-٢٧).

وجاء تفصيلُ هذه المحن، وما تعرَّض له شيخ الإسلام في سبيل الله تعالىٰ، وصبرًا علىٰ الحق والسنَّة، في كثير من الكتب، ككتاب «العقود الدرِّيَّة» لابن عبد الهادي، و«الأعلام العليَّة» للبزَّار، و«تذكرة الحفَّاظ» للذهبيِّ.

قال ابنُ عبد الهادي في ذكر وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثمَّ إن الشيخ -رحمه الله تعالىٰ- بقي مقيمًا بالقلعة سنتين وثلاثة أشهر وأيامًا، ثم توفِّي إلىٰ رحمة الله ورضوانه، وما برح في هذه المدَّة مُكبًّا علىٰ العبادة والتلاوة، وتصنيف الكتب والرَّدِّ علىٰ المخالفين.

وكتب علىٰ تفسير القرآن العظيم جملةً كثيرة، تشتمل علىٰ نفائس جليلة، ونكت دقيقة، ومعان لطيفة، وبيَّن في ذلك مواضع كثيرة أشكلت علىٰ خلق من علماء أهلِ التفسير.

وكتب في المسألة التي حُبس بسببها عدَّة مجلَّدات، منها كتاب في الرَّدِّ علىٰ ابن الأخنائي قاضي المالكية بمصر تُعرف بالأخنائية، ومنها كتاب كبير حافل في الرَّدِّ علىٰ بعض قضاة الشافعية، وأشياء كثيرة في هذا المعنىٰ أيضًا»[1].

فشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ لمَّا كان علىٰ الحقِّ والسنَّة، ما وجد خصمُه من حجَّة إلا الطعن عليه، وكيده والمكر به ورميه بالكذب والبهتان، والزور والطغيان، يقول البزَّار في «الأعلام العليَّة»[2]: «كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أعظم أهل عصره قوَّةً ومقامًا

(١) «العقود الدرِّيَّة» لابن عبد الهادي (ص:٣٧٧).
(٢) «الأعلام العليَّة» (ص:٧٥-٧٦).

وثبوتًا علىٰ الحق، وتقريرًا لتحقيق توحيد الحق، لا يصدُّه عن ذلك لومُ لائم، ولا قولُ قائل، ولا يرجع عنه لحجَّة محتج، بل كان إذا وضح له الحق يعضُّ عليه بالنواجذ، ولا يلتفت إلىٰ مباين معاند، فاتَّفق غالبُ الناس علىٰ معاداته، وجُلُّ من عاداه قد تستَّروا باسم العلماء، والزمرة الفاخرة، وهم أبلغ الناس في الإقبال علىٰ الدنيا والإعراض عن الآخرة.

وسبب عداوتهم له: أنَّ مقصودهم الأكبر، طلبُ الجاه والرئاسة، وإقبال الخلق، ورأوه قد رقاه الله إلىٰ ذروة السنام من ذلك، بما أوقع له في قلوب الخاصة والعامَّة من المواهب الَّتي منحه بها، وهم عنها بمعزل، فنصبوا عداوته، وامتلأت قلوبهم بمحاسدته، وأرادوا ستر ذلك عن النَّاس حتىٰ لا يُفطن بهم، فعمدوا إلىٰ اختلاق الباطل والبهتان عليه، والوقوع فيه خصوصًا عند الأمراء والحكَّام، وإظهارهم الإنكار عليه ما يُفتي به من الحلال والحرام، فشقَّقوا قلوب الطغام بما اجترحوه من زور الكلام، ونسوا أن لكلِّ قول مقامًا أيّ مقام، بين يدي أحكم الحكَّام، يسأله هل قُلتَه بحقٍّ أو بذام، فيجازي المحقَّ دارَ السلام، والمبطلَ دارَ الانتقام، فبعضهم صبا إلىٰ أقوالهم تقليدًا، وصار في حق هذا الإمام جبَّارًا عنيدًا، وأحسَّ بذلك من العامَّة قوم قد أصبحوا للحكَّام عبيدًا، وتصوَّروا أن أخذهم بزمام حصول المال يكون شديدًا، فأصبحوا وهم لهم مصدقين، وفي طاعتهم مستبقين، فاجتمع من هذا التركيب العديد، بحيث عاداه أكثر السادات والعبيد، كلٌّ بحسَب غرضه الفاسد، وهو مع ذلك كلَّما رأىٰ تحاشدهم في مباينته، وتعاضدهم في مناقضته، لا يزداد إلَّا للحق انتصارًا، ولكثرة حججه وبراهينه إلَّا إظهارًا».

ويذكر لنا العلَّامة ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ صبر شيخه على هذه المحن والمصائب فيقول: «وقال لي مرَّةً: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنَّتي وبستاني في صدري، إن رُحت فهي معي لا تفارقني، إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلتُ ملءَ هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة.

أو قال: ما جزيتهم على ما تسبَّبوا لي فيه من الخير، ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللَّهمَّ أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله. وقال لي مرَّةً: المحبوس من حُبس قلبُه عن ربِّه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

ولمَّا دخل إلى القلعة وصار داخل سُورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[1]، وعَلِم الله ما رأيتُ أحدًا أطيبَ عيشًا منه قطُّ، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدَّها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب النَّاس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرِّهم نفسًا، تلوح نضرةُ النعيم على وجهه»[2].

---

(١) [الحديد: ١٣].

(٢) «الوابل الصَّيِّب» (ص:٤٨).

يقول شيخنا العلامة ربيع بن هادي المدخلي -حفظه الله-: «وابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كذلك واجه صنوفًا من الأذىٰ، وسجن مرات، ومات في السجن، وكان يجاهد لإعلاء كلمة الله، واجه الفرق كلها: فرق الفتن والضلال من اليهود والنصارىٰ والملاحدة والزنادقة والصوفية الخرافيين والروافض، وخاض كل ميدان لإعلاء كلمة الله، ونصرة سنة رسول الله ﷺ، فنصره الله علىٰ ضلالاتهم وأصولهم الباطلة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1]، وقد آذوه رغم جهاده العلمي، وجهاده بالسيف، يكيدون له شتَّىٰ المكائد، فإذا قابلوه خضعوا وذلُّوا، الحكام والمحكومين، وإذا خرج تآمروا عليه، وسجن سنين، فصبر وثبت حتىٰ لقي الله -تبارك وتعالىٰ- وهو في السِّجن»[2].

فرحمه الله تعالىٰ رحمةً واسعةً، وأجزل له المثوبة في الآخرة، فلهذا الإمام فضلٌ ومنَّةٌ علىٰ كلِّ صاحب سنَّة وتوحيد جاء بعده، فلا زالوا من علومه ينهلون، ومن مَعين حججه وبراهينه يستَقُون.

---

(١) [الإسراء:٨١].

(٢) من محاضرة مفرغة بعنوان: «الثبات علىٰ السنة».

(٢٢) محنة الحافظ أبي الحجَّاج يوسف المزِّي (ت: ٧٤٢هـ)

هو الإمام الحافظ جمال الدِّين يوسف بنُ الزَّكي عبد الرحمن الحلبي الأصل المزِّيُّ أبو الحجَّاج، صاحبُ «تهذيب الكمال».

قال ابنُ حجر في «**الدُّرر الكامنة**»[1]: «وأُوذي مرَّةً في سنة ٧٠٥هـ، بسبب ابن تيمية، لأنَّه لمَّا وقعت المناظرة له مع الشافعية، وبَحَث مع الصفيِّ الهندي، ثمَّ ابن الزَّملكاني بالقصر الأبلق، شرع المزِّيُّ يقرأ كتاب «خلق أفعال العباد» للبخاريِّ، وفيه: «فصلٌ في الرَّدِّ علىٰ الجهميَّة»، فغضب بعض، وقالوا: نحن المقصودون بهذا، فبلغ ذلك القاضي الشافعي يومئذٍ، فأمر بسجنه، فتوجَّه ابنُ تيمية، وأخرجه من السجن، فغضب النائب، فأعيد ثمَّ أُفرج عنه، وأمر النائب -وهو الأفرم- بأن ينادىٰ بأن من يتكلَّم في العقائد يُقتل».

ثمَّ نقل عن الذهبيِّ قوله: «وكان مأمونَ الصحبة، حسنَ المذاكرة، خيِّر الطويَّة، محبًّا للآثار، معظِّمًا لطريقة السلف، جيِّد المعتقد، وكان اغترَّ في شبيبته وصحب العفيف التلمساني، فلمَّا تبيَّن له ضلالُه هجره، وتبرَّأ منه، وكان أوذي

---

(١) (٦/ ٢٣٠).

مرّة واختفى بسبب إسماعه لتاريخ الخطيب، وأوذي أخرى بسبب قراءته كتاب (خلق أفعال العباد)».

(٢٣) محنة العلاَّمة شمس الدين ابن قيِّم الجوزية (ت : ٧٥١هـ)

العلاَّمة محمد بنُ أبي بكر بن أيُّوب بن سعد بن حُريز الزرعيُّ، ثمَّ الدمشقي الفقيه الأصولي، المفسِّر النحويُّ، العارف، شمسُ الدين أبو عبد الله ابنُ قيِّم الجوزية.

تحدَّث عنه وعن محنته مع شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية تلميذُه العلاَّمة ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «وتفقَّه في المذهب، وبرع وأفتىٰ، ولازم الشيخ تقيَّ الدِّين وأخذ عنه، وتفنَّن في علوم الإسلام، وكان عارفًا بالتفسير لا يُجَارىٰ فيه، وبأصول الدِّين، وإليه فيهما المنتهىٰ، والحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يُلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله وبالعربية، وله فيها اليد الطُّولىٰ، وتعلَّم الكلام والنحو وغير ذلك، وكان عالمًا بعلم السلوك، وكلام أهل التصوُّف، وإشاراتهم، ودقائقهم، له في كلِّ فنٍّ من هذه الفنون اليد الطُّولىٰ.

قال الذهبيُّ في «المختصر»: عُني بالحديث ومتونه، وبعض رجاله، وكان يشتغل في الفقه، ويجيد تقريره وتدريسه، وفي الأصلين، وقد حُبس مدَّة، لإنكاره شَدَّ الرِّحال إلىٰ قبر الخليل، وتصدَّىٰ للاشتغال، وإقراء العلم ونشره.

قلت: وكان رَحِمَهُ اللَّهُ ذا عبادة وتهجُّد، وطول صلاة إلىٰ الغاية القصوىٰ، وتألُّه ولهج بالذكر، وشغف بالمحبَّة، والإنابة، والاستغفار، والافتقار إلىٰ الله، والانكسار له، والاطِّراح بين يديه علىٰ عتبة عبوديته، لم أشاهد مثلَه في ذلك، ولا رأيتُ أوسع منه علمًا، ولا أعرفَ بمعاني القرآن والسنَّة وحقائق الإيمان منه، وليس هو المعصوم، ولكن لم أرَ في معناه مثلَه.

وقد امتُحن وأوذي مرَّات، وحُبس مع الشيخ تقي الدين في المرَّة الأخيرة بالقلعة، منفردًا عنه، ولم يُفرَج عنه إلَّا بعد موت الشيخ.

وكان في مدَّة حبسه مشتغلًا بتلاوة القرآن بالتدبُّر والتفكُّر، ففُتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق، والمواجيد الصحيحة، وتسلَّط بسبب ذلك علىٰ الكلام في علوم أهل المعارف، والدخول في غوامضهم، وتصانيفُه ممتلئة بذلك، وحجَّ مرَّات كثيرة، وجاور بمكَّة، وكان أهل مكَّة يذكرون عنه من شدَّة العبادة، وكثرة الطَّواف أمرًا يُتعجَّب منه، ولازمتُ مجالسه قبل موته أزيدَ من سنة، وسمعتُ عليه -قصيدته النونيَّة الطويلة- في السنَّة، وأشياء من تصانيفه، وغيرها»[1].

❋ ❋ ❋

(١) «الذيل علىٰ طبقات الحنابلة» (٥/ ١٧٠-١٧٣).

(٢٤) محنة الإمام ابن أبي العز الدمشقي (ت:٧٩٢هـ)

أمَّا محنةُ الإمام القاضي عليِّ بن عليِّ بن محمد بن أبي العزِّ الدمشقي الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ، شارح الطحاوية، فنصُّها ما يلي[١]:

يقول القاضي ابنُ شهبة: «في شوال من سنة (٧٨٤ هـ)، كانت قضية القاضي صدر الدين ابن العز الحنفي، وذلك أن عليَّ بن أيبك الشاعر مدح النبيَّ ﷺ بقصيدة لاميةٍ حسنةٍ قديمًا، وكتب له عليها الأدباء والأعيان بوقوفهم عليها، والثناء علىٰ ناظمها، فقُدِّر في هذا الوقت أن وقف عليها القاضي صدر الدين ابن العز، فكتب عليها كتابة حسنة، ثمَّ إنَّه أخذ بعد ذلك في ورقة مفردة يعترض في أشياء لا من طريق الأدب، بل اعتراضات علميَّة، وبالغ في ذلك، وأتىٰ بأشياء منكرة[٢]، فأوقف ابن أيبك عليها بعض الفقهاء، فأخذوا في الإنكار، واشتهرت القضية، وانتهت إلىٰ السلطان، فجاء المرسوم في تاسع عشر شوال يتضمَّن: «إنه بلغنا أن عليَّ بن أيبك مدح النبيَّ ﷺ بقصيدة، وأن عليَّ بن العز اعترض عليه فيها، وأنكر أمورًا، منها التوسُّل به، والقدح في عصمته، وغير ذلك، وأن

---

(١) «تاريخ ابن قاضي شهبة» (ص:٨٩)، بواسطة: مقدِّمةتحقيق شرحه للطحاوية (١/ ٧٣).

(٢) بل الصواب معه، والأدلَّة تسنده.

علماء الديار المصرية خصوصًا الحنفية أهل مذهبه أنكروا علىٰ ابن العز المذكور مقالته، ومرسومنا يتقدَّم بطلب المذكور، والقضاة، والعلماء، والفقهاء من المذاهب، وأن يُعمل معه ما يقتضيه الشرع من التعزير وغير ذلك».

وفيه: «وبلغنا أن بدمشق جماعة ينتحلون مذهب ابن حزم، وداود الظاهري، ويدعون إليه، ويظهرون مقالته، منهم القرشي، وابن الجابي، وابن الحُسباني، والياسوفي، ومرسومنا يتقدَّم بطلب المذكورين، فإن ثبت عليهم من ذلك شيء، عُمل معهم ما يقتضيه الشرع الشريف من الضرب، والنفي، وقطع معاليمهم، ويُولَّاها من هو من أهل السنَّة والجماعة، وبلغنا أن بدمشق جماعة من الشافعية والمالكية والحنابلة يظهرون البدع، ومذهب التيميِّين» أو نحو هذه العبارات.

فقُرئ المرسوم علىٰ القضاة والعلماء، وأحضر المذكور الورقة الَّتي كتبها، وممَّا اعترض فيه قوله: «حسبي رسولُ الله»، فقال: لا يقال هذا إلَّا عن الله تعالىٰ، وقوله: «اشفع لي»، فقال: لا تُطلب منه الشفاعة، وقوله: «المعصوم من زلل»، فقال: إلَّا زلَّة العتاب، وقوله: «يا خير خلق الله»، زعم أنَّ الراجح تفضيلُ المَلَك، وأنكر أشياء أخر، فاعترف ابنُ العز بجميع ذلك، ورجع، وقال: أنا الآن أعتقد غير ذلك.

فانفصل المجلس علىٰ ذلك، ثمَّ عُقد مجلس ثان، وأعيد الكلام في ذلك، فقال بعضهم يُعزَّر، وقال بعضهم: ما وقع من كلام معه في ذلك كافٍ في تعزير مثله.

ثمَّ عُقد له مجلس ثالث ورابع، فأجابوا بالإنكار علىٰ ابن العزِّ في أكثر ما قاله...

ثمَّ عُقد مجلس خامس، وسُئل ابنُ العزِّ: ما أردتَ بما كتبتَ؟ فقال: ما أردتُ إلَّا تعظيمَ جناب النَّبيِّ ﷺ، فحكم القاضي الشافعيُّ بحبسه، ورسَّم عليه بالعذراوية، ثمَّ نُقل إلىٰ القلعة، وحكم أيضًا برفع ما سوىٰ الحبس من أنواع التعزير، ونفَّذه بقيَّة القضاة، وكُتِب بذلك محضر، وأُرسل مع البريد.

ورأيت بخطِّ القاضي شهاب الدين الزهري -رحمه الله تعالىٰ-: أنَّ المسائل الَّتي انتُقدت عليه تنقسم إلىٰ ما هو من المسائل المذكورة في مشاهير كتب الأصول، وإلىٰ غيرها، فأمَّا القسم الأول ففيه مسألتان:

إحداهما: تفضيل صالحي البشر علىٰ الملائكة.

والثانية: مسألة العصمة.

وأمَّا القسم الثاني فهو ثماني مسائل:

الأولىٰ: لا يجوز أن يقول لغير الله: حسبي.

الثانية: لا يجوز أن يقال: اشفع لي، وإنَّما يقال: اللَّهمَّ شفِّعه فيَّ.

الثالثة: أن قول الشاعر:

«لولاه ما كان فُلكٌ لا ولا ملكُ»

أن إطلاق مثل هذا يحتاج إلىٰ توقيف.

الرابعة: أن البشارة به في الزَّبور غير معلومة.

الخامسة: أنَّ لفظ العشق لا يُطلق في حقِّه ﷺ؛ لأنه الميل مع شهوة.

السادسة: قوله: إن الحلف بغير الله لا يجوز.

السابعة: أنَّ مجرَّد تأميله غير مانع من الخوف من غير متابعة.

الثامنة: أنَّ ماله غيرُ مبذول لجميع الناس».

(٢٥ ، ٢٦) محنة الإمام جمال الدين عبد الله بن الشرائحي (ت :٨٢٠هـ)، وتلميذه : إبراهيم الملكاوي (ت :٨٠٤هـ)

من مكائد أهل البدع وكيدهم لدعاة أهل السنَّة: ما حصل للإمامَين العَالِمَين الإمام جمال الدين عبد الله بن الشرائحي، وتلميذه: إبراهيم بن محمد بن راشد الملكاوي -رحمهما الله تعالىٰ-.

وإليك الحادثة والخبر:

يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه الماتع: «إنباء الغمر بأبناء العمر»[1] في حوادث سنة (٨٠٣هـ): «وفي خامس عشر المحرَّم قُرئ علىٰ المحدِّث جمال الدين عبد الله بن الشرائحي بالجامع كتاب «الردّ علىٰ الجهمية» لعثمان الدارمي، فحضر عندهم زين الدين عمر الكفيري فأنكر عليهم وشنَّع، وأخذ نسخة من الكتاب، وذهب بها إلىٰ القاضي المالكي «وهو البرهان إبراهيم بن محمد التادلي»، فطلب القارئ وهو إبراهيم الملكاوي، فأغلظ له، ثمَّ طلب ابنَ الشرائحي فآذاه بالقول، وأمر به في السجن، وقطع نسخة ابن الشرائحي، ثمَّ

(١) (٤/ ٢٢٢-٢٢٣)، وانظر: «الضوء اللامع» للسخاوي (١/ ١٤٦، ١٥٥).

طلب القارئ ثانيًا فتغيَّب، ثم أحضره فسأله عن عقيدته فقال: الإيمان بما جاء عن رسول الله ﷺ، فانزعج القاضي لذلك وأمر بتعزيره، فعُزِّر وضُرب وطِيف به، ثمَّ طلبه بعد جمعة، وكان بلغه عنه كلامٌ أغضبه فضربه ثانيًا، ونادى عليه، وحكم بسجنه شهرًا».

وفي ترجمة الكفيري الَّذي شنع عليهما قال: «ولم يلبث المشنِّع إلَّا يسيرًا ومات»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «الضوء اللَّامع» للسخاويِّ (٦/ ٩٧).

(٢٧) محنة الإمام برهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)

ومن جملة من ابتُلي بأهل الحسد والإلحاد والبدع: الإمام برهانُ الدين إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، نزيلُ القاهرة ثمَّ دمشق، وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ متَّبعًا مقتديًا بالكتاب والسُّنَّة، يقول الشوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن محاسنه... أنَّه قال في وصف نفسه أنَّه لا يخرج عن الكتاب والسنَّة، بل هو متطبِّع بطباع الصحابة، انتهىٰ، وهذه منقبة شريفة ومرتبة منيفة»[١].

وقد عانىٰ هذا الإمام كثيرًا، وأوذي أذىٰ كبيرًا، وذلك لشدَّته في الحقِّ، وردِّه علىٰ المخالفين، وكان من أسباب طعنهم عليه، وكيدهم له أنه ألَّف كتبًا في تكفير ابن عربي وابن الفارض، وردَّ علىٰ الغزالي، حتَّىٰ ألَّف رسالة بعنوان: «القول الفارق بين الصادق والمنافق»، يقول البقاعي عنها: «ذكرتُ فيها ما يبيِّن حتمًا كذب من رماني بالبدعة أو غيرها من الشنعة، ويوضِّح أنِّي علىٰ محض السنَّة، ولله الفضل والمنَّة»، وألَّف كذلك رسالة أخرىٰ ذمَّ فيها من آذوه بسبب ردِّه علىٰ الغزالي عنوانها: «المعلم بما في أذىٰ المسلم من كلِّ أمر مظلم»[٢].

---

(١) «البدر الطالع» (١/ ٢٢).

(٢) انظر: مقدِّمة بحث بعنوان «برهان الدين البقاعي ومنهجه في تفسيره دلالة البرهان القويم» =

وقد قال -رحمه الله تعالىٰ- في آخر تفسيره الكبير «نظم الدُّرر» يَحكي ما حصل له من أهل الجهل والضلال وأهل الإلحاد، من حسد وكذب وسعي في تشويهه وحربه: «ولولا معونةُ الله أضحىٰ -يعني: تفسيره- معدومًا، أو ناقصًا مخرومًا، فإنِّي بعد ما توغَّلت فيه، واستقامت لي مبانيه، فوصلت إلىٰ قريب من نصفه، فبالغ الفضلاء في وصفه بحسن سبكه، وغزارة معانيه، وإحكام رصفه، دبَّ داء الحسد في جماعة أولي النَّكد، والمكر واللَّدد، يريدون الرئاسة بالباطل، وكل منهم من جوهر العلم عاطل، مدَّ ليل الجهل فيهم ظلامه، وأثار نقع السَّفه علىٰ رءوسهم سواده وقتامه، صوَّبوا سهام الشرور، والأباطيل وأنواع الزور، فأكثروا التشييع بالتشنيع، والتقبيح والتبشيع، والتخطئة والتضليل، بالنقل من التوراة والإنجيل، فصنَّفت في ذلك «الأقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة»، بيَّنت فيه أن ذلك سنَّة مستقيمة، لتأييد الملَّة الحنيفية العظيمة، وأخرجت بذلك نصَّ الشافعي، وكلام النووي والرافعي، واستكتبت علىٰ الكتاب: العلماء الأنجاب، فكتبوا ما أودعته «مصاعد النَّظر للإشراف علىٰ مقاصد السور» فأطفأ الله نارهم، وأظهر عوارهم، وشهر خزيهم وعارهم.

ثمَّ قاموا في بدعة دائم المعروف، فصنَّفت فيها القول المعروف، وبيَّنت مخالفتهم للكتاب والسنَّة، ووقوعهم في عين الفتنة، وخرقهم لأعظم الجنَّة، وصريح نصِّ الشافعي ونقول العلماء، فكانوا كمن ألقم الحجر، أو ملئ فمه بالماء.

= للخطيب، ضمن المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل، المجلد السادس، العدد الثاني، ١٤٢٦هـ.

ثمَّ قاموا في فتنة ابن الفارض، وكلُّهم معاند معارض، وألَّبوا عليَّ رَعَاع النَّاس، فاشتدَّ شعاع الباس، فكادوا أن يطبقوا علىٰ الانعكاس، وصوَّبوا طريق الإلحاد، وبالغوا في الرفع من أهل الاتحاد، ولجُّوا بالخصام في العناد، وأفتوا بمحض الباطل، وبثُّوا السمَّ القاتل، إلَّا ناسًا قليلًا كان الله بنصرهم علىٰ ضعفهم كفيلًا، فسألتهم سؤالًا، جعلهم ضلَّالًا جهَّالًا، فتداولوه فيما بينهم وتناقلوه وعجزوا عن جوابه، بعد أن راموه أشدَّ الرَّوم وحاولوه، فظهر لأكثر الناس حالُهم، واشتهر بينهم ضلالُهم، وغيُّهم الواضح ومُحالُهم، وصنَّفت في ذلك عدَّة مصنَّفات، بانت فيها مخازيهم وظهرت المخبَّآت، منها: «صواب الجواب للسائل المرتاب»، ومنها: «القارض لتكفير ابن الفارض»، ومنها: «تدمير المعارض في تكفير ابن الفارض»، ومنها: «تنبيه الغبيِّ علىٰ تكفير ابن عربي»، ومنها: «تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد»، أنفقت فيها عمرًا مديدًا، وبدَّدوا فيها أوقاتي، بدَّدهم الله تبديدًا، وهدَّد أركانهم وأعضادهم تهديدًا، وقرعتهم بالعجز عن الجواب، الكاشف للارتياب، صباحًا ومساءً، وإعادة وإبداءً، فحملهم التقريع والتوبيخ والتبخيع، علىٰ كتابة جواب، لم يخلُ من ارتجاج واضطراب، وشكٍّ وارتياب، بيَّنت أن جامعه أخطأ في جميعه الصواب، وكفر في أربعة مواضع كفرًا صريحًا، وكذب في ثمانية فصار بذلك جريحًا، بل هالكًا طريحًا، فأطلتُ بذلك التقريع والتوبيخ والتبشيع، فذلَّت أعناقهم، وضعف شقاقهم، وخفي نفاقهم، غير أنَّه حصل في كل واحدة من هذه الوقائع، من الشرور وعجائب المقدور، ما غطَّىٰ ظلامُه الشُّموس الطوالع.

وطال الأمر في ذلك سنين، وعمَّ الكرب حتَّىٰ كثُر الأنين، والتضرُّع في الدعاء والحنين، وثبَّت الله ورزق الصبر والأناة حتَّىٰ أكمل هذا الكتاب، علىٰ ما تراه من الحسن والصواب»[(١)].

ثم عقَّب ذلك بقصيدة يحكي ما جرىٰ له ممَّا ذكره في هذه الأسطر.

ويتحدَّث الإمام الشوكاني عمَّا لقيه البقاعيُّ من أذىً ومحنةٍ، فيقول: «من أوعية العلم المُفرطين في الذكاء، الجامعين بين علمَي المعقول والمنقول، وكثيرًا ما يُشكل عليَّ شيءٌ في الكتاب العزيز، فأرجع إلىٰ مطوَّلات التفاسير ومختصراتها فلا أجد ما يشفي، وأرجع إلىٰ هذا الكتاب فأجد ما يُفيد في الغالب، وقد نال منه علماءُ عصره بسبب تصنيف هذا الكتاب، وأنكروا عليه النَّقل من التوراة والإنجيل، وتراسلوا عليه، وأَغرَوا به الرؤساء، ورأيتُ له رسالةً يجيب بها عنهم، وينقل الأدلَّة علىٰ جواز النقل من الكتابَين، وفيها ما يشفي، وقد حجَّ ورابط وانجمع، فأخذ عنه الطلبة في فنون، وصنَّف التصانيف، ولمَّا تنكَّر له الناس وبالغوا في أذاه لمَّ أطرافَه وتوجَّه إلىٰ دمشق، وقد كان بلغ جماعةٌ من أهل العلم في التعرُّض له بكلِّ ما يكره إلىٰ حدِّ التكفير، حتَّىٰ رتَّبوا عليه دعوىٰ عند القاضي المالكي أنه قال: إنَّ بعض المغاربة سأله أن يفصل في تفسيره بين كلام الله وبين تفسيره بقوله: أي، أو نحوها، دفعًا لما لعلَّه يُتوهَّم، وقد كان رام المالكيُّ الحكم بكفره، وإراقة دمه بهذه المقالة، حتَّىٰ ترامىٰ المترجم له علىٰ

---

(١) «نظم الدرر» (٨/ ٦٢٠-٦٢١).

القاضي الزيني بن مزهر، فعذره وحكم بإسلامه، وقد امتحن الله أهل تلك الديار بقضاة من المالكية، يتجرَّءون علىٰ سفك الدماء بما لا يحلُّ به أدنىٰ تعزير، فأراقوا دماء جماعة من أهل العلم جهالةً وضلالةً، وجرأةً علىٰ الله، ومخالفةً لشريعة رسول الله، وتلاعبًا بدينه، بمجرَّد نصوص فقهية، واستنباطات فروعية، ليس عليها أثارةٌ من علم، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ولم يزل المترجم له رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكابد الشدائد، ويناهد العظائم، قبل رحلته من مصر، وبعد رحلته إلىٰ دمشق، حتىٰ توفَّاه الله بعد أن تفتَّتَ كبدُه كما قيل، في ليلة السبت ثامن عشر رجب سنة (٨٨٥) خمس وثمانين وثمانمائة»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «البدر الطالع» (١/ ٢٠-٢١).

(٢٨) محنة العلاَّمة صالح المقبلي
(ت: ١١٠٨هـ)

هو العلَّامة صالح بن مهدي المقبلي ثمَّ الصنعاني ثمَّ المكِّي، أخذ العلم عن جماعة من أكابر علماء اليمن، دخل صنعاء وجرت بينه وبين علمائها مناظرات أوجبت المنافرة، لما فيه من الحدَّة والتصميم علىٰ ما تقتضيه الأدلة، وعدم الالتفات إلىٰ التقليد، ثمَّ ارتحل إلىٰ مكَّة، ووقعت له امتحانات هنالك، واستقرَّ بها حتَّىٰ مات في سنة ١١٠٨هـ.

ذكر الشوكانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ محنته فقال: «وقد كان ألزم نفسه السلوك مسلك الصحابة، وعدم التعويل علىٰ تقليد أهل العلم في جميع الفنون، ولمَّا سكن مكَّة وقف عالمُها البرزنجي محمد بن عبد الرسول المدني علىٰ «العلم الشامخ في الرَّد علىٰ الآباء والمشايخ»، فكتب عليه اعتراضات، فردَّ عليه بمؤلَّف سمَّاه: «الأرواح النوافح»، فكان ذلك سبب الإنكار عليه من علماء مكَّة، ونسبوه إلىٰ الزندقة، بسبب عدم التقليد، والاعتراض علىٰ أسلافهم، ثم رفعوا الأمر إلىٰ سلطان الروم، فأرسل بعض علماء حضرته لاختباره، فلم يرَ منه إلَّا الجميل، وسلك مسلكه، وأخذ عنه بعضُ أهل داغستان، ونقلوا بعض مؤلَّفاته»[1].

---

(١) «البدر الطالع» (١/ ٢٨٨-٢٩٠).

(٢٩) محنة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (ت: ١٢٠٦هـ)

شيخ الإسلام وداعية التوحيد ومجدِّد الملَّة الإمام محمد بن عبد الوهَّاب التميميُّ -رحمه الله تعالىٰ-، كان مثالًا يُحتذىٰ به، وقدوةً يستنار بهديه، كابد المشقَّات، وعاش المحن والابتلاءات، لأجل الدعوة إلىٰ التوحيد، وإبعاد النَّاس عن الشرك والتنديد.

ومن المحن الَّتي واجهها في حياته الدعوية ما قاله العلَّامة البسَّام في ترجمته: «ثمَّ إن الشيخ في مدَّة إقامته في البصرة أخذ ينكر علىٰ العلماء والعامَّة أعمالهم البدعية والشركية، وينهاهم عنها ويجادلهم فيها، واستحسن شيخُه المجموعيُّ هذا منه، ودخلت العقيدةُ الصحيحة في قلبه...

وأمَّا عامَّة النَّاس وخاصَّتُهم فلم يقبلوا منه، وآذوه أشدَّ الأذىٰ، وأخرجوه وقت الهاجرة، فخرج من البصرة مُيمِّمًا الزَّبير ماشيًا وحده، فأدركه العطش الشَّديد، وأشرف علىٰ الهلاك، فوافاه صاحب حمار مكاري يقال له: أبو حميدان من أهل بلد الزَّبير، وهو مشرفٌ علىٰ الهلاك، فسقاه وحمله علىٰ حماره حتَّىٰ وصل الزَّبير، فأراد مواصلة السفر إلىٰ الشام لتمام مقصده من العلم، فضاعت نفقتُه

الَّتي معه فانثنىٰ عزمه عن المسير إليها، فقصد الأحساء»[١].

وقال بعد ذكر عودته إلىٰ حريملاء: «ووجد النَّاس يهيمون، ويتعبَّدون بلا علم، وعلماؤهم يردِّدون كتب الفروع، متقيِّدين بمسائلها متمسِّكين بحرفيَّتها، فأراد لهم الإصلاح، فنادىٰ بدعوته في بلدة حريملاء، ونَدَّد بتلك العادات والعبادات الَّتي ليست علىٰ بصيرة، وأراد الرجوع بالنَّاس إلىٰ تصحيح العقيدة، وخلوص العبادة، ونقاوة الدين وصفاء التوحيد، فصادف معارضة قويَّةً، ومشادَّةً متينةً، وأذية كبيرةً، إلا أنَّ هذا لم يُثنه عن عزمه، ولم يصدَّه عن مقصده، ولم يَفُتَّ من عَضُده، شأن الدُّعاة المصلحين، وما يَلقون في سبيل دعوتهم من الاضطهاد.

وقد بدأ الشيخ بدعوته في حياة والده، فكان والده لا يريد منه الشدَّة علىٰ الناس، إلَّا أنَّ الشيخ مُصَمِّمٌ علىٰ ما أراده، ولكنه لم يجهر بدعوته، إلَّا بعد وفاة والده عام (١١٥٣هـ)، فجلس للتدريس والإفادة، وتقرير العقيدة الصحيحة، فتبعه بعضُ أهل هذه البلدة حريملاء، ثمَّ اشتهر أمرُه، وذاع صيتُه، وشاع خبرُه، فوفد عليه أناسٌ كثيرون من البلدان المجاورة، وشرعوا بالقراءة عليه في كتب التفسير والحديث والتوحيد والسيرة والفقه، فكثر أتباعُه، فصار يُنكر ما يراه مخالفًا للشريعة.

ومن ذلك: أنَّ مواليًا لرؤساء حريملاء كانوا يفسدون ويفسُقون، فأراد منعهم من الفساد والتعدِّي والأذية، فَهَمَّ هؤلاء الأوباش بالفتك به وقتله سرًّا، وتسوَّروا عليه جدار بيته، فعلم بهم النَّاس، وصاحوا بهم فهربوا.

---

(١) «علماء نجد» (١/ ١٣٢-١٣٣).

فأراد الشيخ البعد عن هؤلاء الأشرار، كما أنَّ هذه القرية لا تكفي لتكون مجالًا لدعوته ونشرها، فلا بدَّ من بلاد واسعة ومكانٍ رَحبٍ، فكانت مدينة العُيَينة، هي أكبر بلدان نجد، وأكثرها سكَّانًا، فقصدها وأميرُها يومئذ عثمان بن حمد بن عبد الله بن محمد بن معمر، فاستقبله الأمير بالحفاوة والإكرام، وقبول الدعوة والمناصرة والمؤازرة علىٰ دعوته، وألزم الخاصَّة والعامَّة بامتثال أمره وقبول قوله، فصار للشيخ زيادة نشاط في القول، وصار له نشاطٌ فعليٌّ، فقطع الأشجار المعظَّمة، وكسر الأحجار المقصودة، وهدم القباب المشيَّدة علىٰ القبور، ومنها القبَّة المقامة علىٰ القبر المنسوب لزيد بن الخطاب ﷺ، فاشتهر أمرُه وطارت أخبارُه وذاع صيتُه فكثر أتباعُه، إلا أنَّ المعارضين والمعاندين أكثر من الموالين، فأذاعوا عنه الأكاذيب، وأشاعوا عنه البهتان، ورموه بالزور، ولا غرابة في ذلك، فكلُّ دعوة إصلاحية تصاب بمثل هؤلاء الأعداء، ويقف في سبيلها المعاندون والمغرضون والحسَّاد والجاهلون، إلَّا أنَّ الدعوة في العُيَينة بلغت المسامع ووَعَتها القلوب.

بلغت دعوةُ الشيخ حاكمَ الأحساء: سليمان بن محمد بن عرير الحميدي الخالدي، وعظُم عنده القصد منها، والخوف من عواقبها علىٰ سلطانه، كما بلغته مشوَّهةً مزوَّرةً، فكتب ابن عرير إلىٰ الأمير عثمان بن معمر بإخراج الشيخ من بلده، وإن لم يفعل فسيقطع عنه مرتباته الشهريَّة، وليغزونَّه في عقر داره، فعلم أن لا طاقة له بملك الأحساء ومعاداته، فطلب من الشيخ مغادرة بلدته، ولم يصل إلىٰ الشيخ منه أذية، ولم يأمر مرافقه إلىٰ الدرعية بقتله...

وكان الحاكم عند قدوم الشيخ إليها الأمير: محمد بن سُعود، فوصل الشيخ إلىٰ الدرعيّة، ونزل ضيفًا علىٰ أحد تلاميذه، وهو الشيخ: أحمد بن سويلم العريني، ووصوله الدرعيَّة كان في عام (١١٥٨هـ)، فلمَّا استقرَّ فيها، وعلم بمقدمه أمير الدرعية محمد بن سُعود، جاءه في دار أحمد بن سويلم، فقابله بالحفاوة والتكريم، وقال له: أبشر بالأجر والعزِّ والتَّمكين والغلبة، وكلمة التوحيد من تمسَّك بها ونصرها أيَّده الله في الدنيا ومكَّنه، وأجزل أجره في الآخرة، ثمَّ أخذ الشيخ يشرح للأمير حقيقة الإسلام، ويبيِّن له أصل التوحيد، وأمر ما عليه أهل نجد من الجهل والبدع والشرك.

فلما قرَّرَ الشيخُ للأمير هذه الأمور المهمَّة، وقنع بها الأمير قال: لا شك أنَّ ما دعوتَ إليه أيُّها الشيخ هو دينُ الله الصحيح، وحقيقة العقيدة، وأنَّ ما عليه أهل نجد هو ضلال، ولكن أخشىٰ إن نحن أيَّدناك ونصرناك وجاهدنا معك أن تتركنا إلىٰ غيرنا، كما أنَّ لنا علىٰ أهل الدرعية قانونًا نأخذه عليهم وقت حصاد الزروع، وقطع الثمار، وأخشىٰ أن تحرمه علينا وتمنعنا منه، فأجابه الشيخ عن الأولىٰ: بالمعاهدة علىٰ البقاء معه مهما امتدَّت به الأيام، وتغيَّرت الأحوال، وعن الثانية: بأن الله تعالىٰ سيعوِّضه عن هذا القانون بما يقبضه من الأموال الشرعية، فتعاقدا وتعاهدا علىٰ ذلك.

ومن ذلك اليوم أصبحت الدعوة في طور جديد هو طور التنفيذ والجهاد، وصارت الكتب ترسل من الشيخ محمد إلىٰ أمراء نجد وعلمائها بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ دينه الحق، والجيوش تُبعث من الدرعية إلىٰ ما يليها من القرىٰ والمدن

والبوادي، والشيخ من وراء هذا كلِّه يجاهد بلسانه وقلمه، وينظِّم الجيوش، ويبعث البعوث مع الإمام محمد بن سُعود، فقامت الدعوة علىٰ قدم وساق، واشتهرت وانتشرت، وصار لها كيان ومركز قويٌّ بالدعاة والقوَّة المادية.

وهذه الدعوة الإسلامية الإصلاحية وجدت معارضةً ومقاومةً، شأنها شأن غيرها من الدعوات، واشتدَّت عليها المعارضة والعنف من أمراء نجد وعلمائها وأعيانها وأتباعهم من العامَّة، وجرىٰ تبادلُ القصائد بين شعراء هؤلاء وشعراء هؤلاء، كما تمَّ تبادلُ الرَّسائل العلمية والمصنَّفات بين الطائفتين من علماء الدعوة وخصومهم، ومن وراء ذلك كلِّه الجيوش بين آل سعود المؤيِّدين للدعوة وأمراء بلدان نجد المعارضين المعاندين تسند هؤلاء وهؤلاء، فصار في نجد حركة كبيرة عظيمة شغلت البلدان النجدية، وما جاورها من بلاد العرب، هذا والدعوة في طورها الأول من حيث الظهور والانتشار والفتوح»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «علماء نجد» (١/ ١٣٥-١٣٩).

(٣٠، ٣١) محنة الشيخ عبدالله ابن الشيخ محمد بن عبدالوهاب (ت :١٢٤٤هـ)، ومقتل ابنه الشيخ سليمان (ت :١٢٣٣هـ)

وابتُلي الشيخ عبد الله ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الله، وكذلك ابنُه العلَّامة سليمان، كما ورد في كتاب «علماء نجد» في ترجمة العلَّامة عبد الله[1]: «لمَّا توفِّي والدُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ خلفه في أعماله الكبيرة ومهامِّه الجليلة، وحلَّ محلَّه في زعامته الدينيَّة، ومقاماته الإصلاحية، فصار إمام المسلمين، وزعيمهم الديني، ومرجع علمائهم وقضاتهم في أعمالهم القضائية والدينية...

أخذ يوضِّح دعوة والده ويشرحها ويُظهرها علىٰ حقيقتها، خاليةً من الأكاذيب الَّتي أُلصقت بها، ومن الزُّور الَّذي وُصمت به، ويردُّ كلَّ ما يقول ويعتقد إلىٰ أصوله من الكتاب والسنَّة، ومعتقد أهل السنَّة والجماعة من الصحابة والتابعين والأئمَّة المجتهدين...

ولم يزل في الجزيرة العربية هو المرجع في أعمالها الدينية وشئونها الشرعية في عصر ثلاثة أئمَّة من حكَّام آل سعود، هم: الإمام عبد العزيز بن محمد، والإمام

---

(١) (١/ ١٧١-١٧٩).

سعود بن عبد العزيز، والإمام عبد الله بن سعود، ولم يزل علىٰ تلك الأحوال الحميدة والأعمال الجليلة، والدولة في زهرة شبابها، وعنفوان عِزِّها، من ازدِهَار العلم، وإرساء قواعد العقيدة، وتوسيع العمران، وازدحام السكان، وكثرة الوفود، وتسيير الجنود، وامتداد الحدود، حتَّىٰ رُميت بلاد نجد، وأُصيبت الدعوة المحمَّدية بالدولة العثمانية الَّتي خافت علىٰ مركزها، وأحسَّت بقلق علىٰ خلافتها وزعامتها، فبثَّت جيوشها الجرَّارة مخترقة الجزيرة العربية من غربها، حتىٰ بلغت أسوار الدرعية في ملحمة معروفة في التاريخ.

فعلىٰ قوَّة تلك الجيوش العثمانية، وكثرة إمداداتها، ووفرة سلاحها، وتفشِّي الخيانة في البادية المرتشية، ومع قلَّة الجيوش في الدرعيَّة، وانقطاع إمداداتها، وحصارها في بلدةٍ لا تملك وسائل عيشها، ولا ذخيرة دفاعها إلَّا من غيرها، صمدت بقوَّة إيمانها وصلابة يقينها، وبسالة رجالها أمام هذه الجيوش الصائلة نحو ثمانية أشهر.

وكان الشيخ عبد الله -رغم تقدُّم سنِّه، وجلال قدره- علىٰ رأس المجاهدين المدافعين في أحد ثغور مدينة الدرعيَّة، شاهرًا سيفَه يقاتل قتال الأبطال المغاوير، ويُلهب حماس المدافعين مردِّدًا كلمته المشهورة: «بطن الأرض علىٰ عزٍّ، خير من ظهرها علىٰ ذلٍّ»، حتىٰ ردَّ العساكر علىٰ أعقابهم.

فلمَّا تمَّ الصلح بين الجيشين تحت تأثير كثرة الجيوش الغازية، ومواصلة الإمدادات لها، والانتقاص في الرِّجال المدافعين.

ولمَّا استولت الجيوش العثمانية علىٰ الدرعيَّة، وعُذِّب مَن عُذِّب، وقُتل من

قُتل، كان من الشهداء الأطهار ابنُه العالم الصالح الشيخ سليمان الَّذي قُتل صبرًا دون دينه وبلاده وحُرمه، فلمَّا قتله إبراهيم باشا أراد أن يغيظ والده بقتله، فقال له: «قتلنا ابنك سليمان»، فأجابه الشيخ عبدالله -بقلب المؤمن الصابر ولسان المجاهد الواثق-: «إن لم تقتُله مات».

فنالت هذه الكلمة الصادقة من هذا الشجاع المؤمن ما لم تنله السهام الحداد، فأخذ الباشا يردِّدها بلسانه، ويتأمَّلها بعقله.

وقد قرأتُ في بعض التواريخ المصرية: أنَّ إبراهيم باشا لمَّا عاد إلىٰ القاهرة بعد حرب الدِّرعية جاءه العلماء وشيوخ الأزهر مهنِّئين، فلم يلتفت إليهم ولم يهتمَّ بهم، وحين سئل عن ذلك قال: «العلماء الحقيقيُّون هم في صحارىٰ نجد»، لِمَا رأىٰ من إيمانهم وصدقهم، وتمثُّلهم بحالات السلف الأوائل.

ولمَّا نُقل آل الشيخ إلىٰ مصر كان المترجم في مقدِّمة المنقولين، وذلك عام ١٢٣٣هـ، فاستقرَّ بالقاهرة...، حتَّىٰ توفِّي عام ١٢٤٤هـ، غريبًا بعيدًا عن وطنه، وعن مُقدِّري علمه، في بلاد هائجة مائجة لا تعرفه ولا تقدِّره...، مات في المنفىٰ فلم يحزن لموته، ولم يتألَّم لفقده إلَّا أفراد قلائل من لُحمته، وما أحقَّه بأبيات مالك بن الريب، وقد مات بعيدًا عن أهله ووطنه، فقال:

تَذَكَّرتُ مَن يَبكِي عَلَيَّ فَلَم أَجِد ... سِوَىٰ السَّيفِ وَالرُّمحِ الرُّدَينِيِّ بَاكِيَا
وَلَكِن بِأَطرَافِ السَّمينَةِ نِسوَةٌ ... عَزِيزٌ عَلَيهِنَّ العَشِيَّةَ مَا بِيَا»

وأمَّا عن صفة مقتل ابنه العلَّامة سليمان صاحب كتاب «تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد»، فقد قال ابنُ بشر: «وفي آخر هذه السنة (١٢٣٣هـ) قُتل

الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب، وذلك أنَّ الباشا لمَّا صالح أهل الدرعيَّة، كثُر عنده الواشي من أهل نجد بعضهم علىٰ بعض، فرُمي عند الباشا بالزور والبهتان والإثم والعدوان، فأرسل إليه الباشا وتهدَّده، وأمر علىٰ آلات اللهو من الرَّبَاب فجرُّوها عنده، إرغامًا له بها.

ثمَّ أرسل إليه الباشا بعد ذلك وخرج به إلىٰ المقبرة، ومعه عدد كثير من العساكر، فأمرهم أن يثوِّروا فيه البنادق والقرابين، فثوَّروها فيه، وجُمع لحمه بعد ذلك قِطَعًا، وكان رحمه الله آيةً في العلم، له المعرفة التامَّة في الحديث ورجاله وصحيحه وحسنه وضعيفه، والفقه والتفسير والنحو، وكان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، لا تأخذه في الله لومةُ لائم»[1].

* * *

(١) «عنوان المجد في تاريخ نجد» (١/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٣٢) محنة العلامة محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠هـ)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «البدر الطالع»[١] في ترجمة السيد الحسين بن يحيىٰ بن إبراهيم الديلمي الذماريِّ: «ولمَّا ألَّفتُ الرسالة الَّتي سمَّيتُها «إرشاد الغبي إلىٰ مذهب أهل البيت في صحب النَّبي»، ونقلتُ إجماعهم من ثلاث عشرة طريقة علىٰ عدم ذكر الصحابة بسبٍّ أو ما يقاربه، وقعت هذه الرسالة بأيدي جماعة من الرافضة الذين بصنعاء، المخالفين لمذاهب أهل البيت، فجالوا وصالوا وتعصَّبوا وتحزَّبوا، وأجابوا بأجوبة ليس فيها إلَّا محض السباب والمشاتمة، وكتبوا أبحاثًا نقلوها من كتب الإمامية والجارودية، وكثرت الأجوبة حتَّىٰ جاوزت العشرين، وأكثرها لا يعرف صاحبه، واشتغل النَّاس بذلك أيامًا، وزاد الشرُّ وعظُمت الفتنة، فلم يبقَ صغير ولا كبير، ولا إمام ولا مأموم، إلَّا وعنده من ذلك شيء، وأعانهم علىٰ ذلك جماعةٌ ممَّن له صولة ودولة.

ثم إنَّ تلك الرسالة انتشرت في الأقطار اليمنيَّة، وحصل الاختلاف في شأنها، وتعصَّب أهلُ العلم لها وعليها، حتَّىٰ وقعت المراجعة والمجاوبة والمكاتبة

---

(١) (٢/ ٢٣٣-٢٣٥).

في شأنها في الجهات التِّهامية، وكلُّ من عنده أدنىٰ معرفة يعلم أنِّي لم أذكر فيها إلا مجرَّد الذبِّ عن أعراض الصحابة، الذين هم خير القرون، مقتصرًا علىٰ نصوص الأئمَّة من أهل البيت، ليكون ذلك أوقع في نفوس من يكذب عليهم، وينسب إلىٰ مذاهبهم ما هم منه برآء، ولكن كان أهل العلم يخافون علىٰ أنفسهم، ويحمون أعراضهم، فيسكتون عن العامَّة، وكثيرٌ منهم كان يصوِّبهم مداراةً لهم، وهذه الدسيسة هي الموجبة لاضطهاد علماء اليمن، وتسلُّط العامَّة عليهم، وخمول ذكرهم، وسقوط مراتبهم؛ لأنَّهم يكتمون الحقَّ، فإذا تكلَّم به واحد منهم، وثارت عليه العامَّة صانعوهم وداهنوهم وأوهموهم أنَّهم علىٰ الصواب، فيتجرَّءون بهذه الذريعة علىٰ وضع مقادير العلماء، وهضم شأنهم، ولو تكلَّموا بالصواب أو نصروا من يتكلَّم به أو عرفوا العامَّة إذا سألوهم الحق وزجروهم عن الاشتغال بما ليس من شأنهم، لكانوا يدًا واحدةً علىٰ الحق، ولم يستطع العامَّة ومن يلتحق بهم من جهلة المتفقِّهة إثارةَ شيءٍ من الفتن، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

وكان تأليفي لتلك الرسالة في سنة (١٢٠٨هـ)، ومن جملة من اشتغل بها فقهاء ذمار، وقاموا وقعدوا، وكانوا يسألون صاحب الترجمة عن ذلك، ويتَّهمونه بالموافقة لما في الرسالة؛ لما يعلمونه من المودَّة الَّتي بيني وبينه، فسلك مسلك غيره ممَّن قدَّمت الإشارة إليهم من أهل العلم، بل زاد علىٰ ذلك فحرَّر جوابًا طويلًا علىٰ تلك الرسالة، موهمًا لهم أنه قد أنكر بعض ما فيها، فلمَّا بلغني أنه أجاب ازداد تعجُّبي، لعلمي أنه لا يجهل مثل ذلك، ولا يخفىٰ عليه الصواب،

فلمَّا وقفت علىٰ الجواب وهو في كراريس، رأيته لم يبعد عن الحق، ولكنَّه قد أثار فتنة بجوابه، لظنِّ العامَّة ومن شابههم أن مثل هذا العالم الذي هو لي من المحبِّين لا يجيب إلَّا وما فعلتُه مخالفٌ للصواب، فأجبتُ عليه بجواب مختصر، تناقله المشتغلون بذلك، وفيه بعضُ التخشين، ثم إنَّه -عافاه الله- اعتذر إليَّ مرَّات، ولم أشتغل بجواب علىٰ غيره؛ لأنَّهم ليسوا بأهل لذلك.

وفي الجوابات ما لا يقدر علىٰ تحريره إلَّا عالم، ولكنَّهم لم يُسمُّوا أنفسهم، فلم أشتغل بجواب من لا أعرفه، إلَّا أنه وقع في هذه الحادثة من بعض شيوخي ما يقضىٰ منه العجب، وهو أنَّه بلغني أنه من جملة المجيبين، فلم أصدِّق لعلمي أنَّه ممَّن يعرف الحق، ولا يخفىٰ عليه الصواب، وله معرفة بعلوم الكتاب والسنَّة، فبعد أيام وقفتُ علىٰ جوابه بخطِّه، فرأيت ما لا يُظنُّ بمثله من المجازفة في الكلام، والاستناد إلىٰ نقولٍ نقلها من كتب رافضة الإماميَّة والجارودية، وقرَّرها ورجَّحها، وأنا أعلم أنه يعلم أنَّها باطلة، بل يعلم أنها محض الكذب، وليته اقتصر علىٰ هذا، ولكنه جاء بعبارات شنيعة، وتحامل عليَّ تحاملًا فظيعًا، والسبب أنَّه -أصلحه الله- نظر بعض وزراء الدولة وقد قام في هذه الحادثة وقعد وأبرق وأرعد، فخدم حضرته بتلك الرسالة الَّتي جنىٰ بها علىٰ أعراض الصحابة، فضلًا عن غيرهم، فما ظفر بطائل».

(٣٣ ، ٣٤) محنة العلاَّمة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ت :١٢٨٥هـ) وابنه العلاَّمة عبد اللطيف (ت :١٢٩٣هـ)

هو الإمام الشيخ مفيد الطالبين، وقامع المبتدعين الشيخ العلَّامة عبد الرحمن ابن حسن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، تربَّىٰ في حجر جدِّه مجدِّد عقيدة السلف، ومُحيي مجد الإسلام حيث قتل والده شهيدًا في معركة غرابة، ثمَّ توفِّي جدُّه وشيخه الأوَّل وله من العمر ثلاث عشرة سنة، فلازم علماء الدرعية، وقرأ علىٰ كثير منهم، فصار من العلماء وهو في سنِّ الشباب، فاشتهر أمرُه وطار صيتُه، فرأىٰ الإمام سُعود بن عبد العزيز بعد استشارة عمِّه الشيخ عبد الله أن يتولَّىٰ قضاء الدرعية، وهي يومئذٍ قاعدةُ بلدان الجزيرة العربية، فسار في عَمَلَيه الشريفين القضاء والتدريس خير سيرة وقام فيهما أتمَّ قيام.

ولمَّا عبر طوسون البحر، وأنزل جنوده في سواحل البحر الأحمر ممَّا يلي الجزيرة العربية، يريد الانقضاض علىٰ الدعوة السلفية في وكرها، والقضاء عليها في مهدها، تلقَّاه الإمام عبد الله بن سعود في مرساه، وعاجله قبل غزوه.

وكان الشيخ عبد الرحمن مصاحبًا للإمام في هذا المسير فحضر الوقعة

الفاصلة بين الجيشين في وادي الصفراء، والَّتي أنزلت بالعساكر التركية العثمانية الخسائر الفادحة، واستمرَّ الشيخ عبد الرحمن مجاهدًا مع هذه الجيوش المدافعة بقلمه ولسانه وسنانه، وقد دوَّن هذه الحروب والرحلات بمقامات يوميَّة حفظت لنا هذه الوقائع، وسجَّلت لنا أنباء تلك الأيام.

ولمَّا انتهىٰ الأمر إلىٰ حصار الدرعيَّة، كان مع المحاصَرين المدافعين المقاتلين إلىٰ آخر ساعة من ساعات إطلاق النار، فلمَّا تمَّ الصلح أُمرت عائلة آل الشيخ بالرحيل إلىٰ مصر، فكان مع المرتحلين، ومعه زوجُه، وابنُه عبد اللطيف الذي كان في سنِّ التمييز، وقال في هذه الغربة البعيدة الطويلة الَّتي لا يُعرف لها آخر، والتي أبعدته عن موطنه الحبيب، وعن أحبابه الأعزَّاء، وعن البلاد الَّتي له فيها القول والأمر، واستبدل بها أوجهًا لا يحبُّها، ومكانًا لم يألفه، وغربةً لا يُعرف فيها قدرُه ومقامُه، فقال قصيدة مؤثِّرةً، منها هذه الأبيات:

وَلَمَّا افتَرَقنَا ظَلَّ قَلبِي بِأَرضِكُم ... وَجِسمِي بِأَرضٍ لَيسَ فِيهَا لَنَا شَكلُ

وَبُدِّلَت مِنكُم أَوجُهًا لَا تَسُرُّنِي ... سِوَىٰ عُصبَةٍ قَلُّوا فَكُنتُ بِهِم أَسلُو

فَصَبرًا عَلَىٰ بُعدِ المَدَىٰ وَاغتِرَابِنَا ... عَسَىٰ مِن إِلَهِ الحَقِّ أَن يُجمَعَ الشَّملُ

فَيَبدُو مُحَيَّا الدِّينِ بِالنُّورِ سَاطِعًا ... وَيَرجِعُ عَقدُ الشِّركِ وَالظُّلمِ يَنحَلُّ

ولمَّا قام الإمام تركيُّ بن عبد الله آل سعود جدُّ الأسرة الحاكمة اليوم بإعادة الحكم مرَّةً أخرىٰ، وتجديد الدعوة السلفية بعد اندثارها، واستعاد السلطة في كثير من بلدان نجد، وطهَّر البلاد من الجنود الأتراك المحتلِّين والغزاة الغاصبين،

وكان الإمام تركي يكاتب المشهورين من المُبعدين، كالشيخ عبد الرحمن وابن عمِّه مشاري بن عبد الرحمن آل سعود، ويُرسل إليهم القصائد الطنَّانة المثيرة، ليساعدوه علىٰ مهام الحكم، ويُعِينوه علىٰ لمِّ شعث الأمَّة المتفرِّقة والبلدان الممزَّقة.

ولمس الشيخ عبد الرحمن وهو في منفاه لينًا في المراقبة، وسهولة في المغادرة، بعد أن مكث فيها ثمان سنين، فصمَّم علىٰ الخروج، وتوجَّه من بلاد مصر إلىٰ بلاد نجد عام (١٢٤١هـ)، فلمَّا وصل إلىٰ الرياض الَّتي جعلها الإمام تركيٌّ عاصمة ملكه بعد خراب الدرعية فرح به الإمام فرحًا شديدًا، وسُرَّ به، وتلقَّاه بالإكرام والتبجيل، كما فرح بمقدمه عامَّةُ المسلمين، فقام الشيخ عبد الرحمن بمؤازرة الإمام تركي خير قيام، وجعله الإمام صاحبَ الكلمة المطلقة، والقول النافذ في حكومته، فباشر الأعمال الَّتي كان يقوم بها جدُّه الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب، واجتمعت عليه الكلمة، والتأَم الشمل، وصار رأسًا لعلماء بلدان نجد، فهو مرجعُهم في جميع أمورهم، وأحسُّوا بأن تلك الثغرة الخالية والمكان الفارغ والشخصية القيادية المفقودة بموت الشيخ محمد، ونقل الشيخ عبد الله قد عادت وامتلأ مكانُها بعودة الشيخ عبد الرحمن ابن حسن، فجمع الشمل، ولمَّ الشعث، وجبر الصدع، وسدَّ الفراغ، فالحمد لله علىٰ تمام نعمه[1].

وأمَّا ابنُه الشيخ العلَّامة القدوة الفهَّامة عبد اللَّطيف فقد تزوَّج في مصر،

---

(١) انظر: «علماء نجد» للبسَّام (١/ ١٨١-١٩١).

وطالت إقامته فيها حتىٰ بلغت واحدًا وثلاثين عامًا، قضاها كلها في العلم، حتىٰ صار من حملة العلم الكبار، فلمَّا طهرت نجد من الجيش المحتلِّ، وسَكَنَت بعد فتن مشاري وعبد الله بن ثنيان، ولانت المحافظة عليهم في مصر من المراقبين، خرج من القاهرة متوجِّهًا إلىٰ نجد عن طريق مكَّة المكرمة سنة (١٢٦٤هـ).

وفي عام (١٢٦٤هـ) كان قدومه الرياض العاصمة الجديدة للمملكة السعودية، قَدِمَها والإمام فيصل صاحب السلطة المطلقة في بلاد نجد، وأبو الشيخ عبد الرحمن بن حسن هو المرجع في الشئون الإسلامية والشرعية.

وكان الشيخ عبد الرحمن قد دخل العقد الثامن من عمره، واحتاج إلىٰ مساعد قويٍّ يُعينه علىٰ مهامِّه الكبيرة الكثيرة، فلمَّا قدم عليه ابنه عبد اللطيف الذي وعىٰ صدره علوم نجد وعلوم مصر، وقد حمل معه مكتبة حافلة بنفائس الكتب، وقد أضرمت نار الغيرة الدينية فيه ما رآه من البدع والخرافات في البلاد المصرية، فأشعلت فيه الحمية لدينه والعصبية لعقيدته وحنكته بالأمور، وقد تسلَّح بالعلم الواسع والعقل الراجح والغيرة الشديدة، فشمَّر عن ساعد الجدِّ، وكان خير مُعين لوالده علىٰ أداه مهمَّاته وكبير مسئولياته، لذا عوَّل عليه الإمامان.

ولمَّا استولىٰ الإمام فيصل علىٰ الأحساء، وكان فيها خليط من العقائد والآراء، فالرافضة لهم شوكة، وعلماء الشافعية والمالكية أشاعرة، وعلماء الأحناف ماتريدية، وتشترك هذه الطوائف كلُّها في إقرار وسائل الشرك من نحو تعظيم القبور والغلوِّ في الصالحين، والبدع من نحو الموالد ومراسم الموت والجنائز، فكان الشيخ عبد اللطيف هو المختار لمقابلة مثل هؤلاء، ومحاربة

أمثال هذه الأمور فبَعَثه الإمام إليهم، وراح يناقش هؤلاء العلماء بلسان فصيح، وعلم صحيح، وصدر فسيح، وقابل الحجَّة بأقوىٰ منها، وردَّ الشبهة بأوضح منها، فأذعنوا له وسلَّموا، فزال ما في نفوسهم من رواسب الشبه وباطل التأويل، فتقرَّر لديهم أن مذهب أهل السنَّة والجماعة هو الأسلم والأعلم والأحكم، وأن الدعوة السلفية الَّتي نادىٰ بها الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب هي العودة إلىٰ صفاء العقيدة، وخلوص العبادة كما دعت إليها الرسل ونزلت بها الكتب.

وهكذا قام بهذه الأعمال وغيرها خير قيام، وسار فيها أحسن سيرة، ولم يُخِلَّ بشيءٍ من وظائفه اليومية فقد أعطىٰ كلَّ ذي حق حقَّه، وسار بأعماله علىٰ الوجه المرضيِّ حتىٰ لقي ربَّه، إلا أنَّه بعد وفاة الإمام فيصل، واستيلاء الإمام عبد الله الفيصل علىٰ الحكم، حدثت بين عبد الله وأخيه سعود الفيصل منازعة علىٰ الحكم، وطال النزاع بينهما، وتطوَّر إلىٰ تكوين جيشين من البادية والحاضرة، كلُّ جيش تحت إمرة وتدبير واحد منهما، والتحم القتال بينهما وتعدَّدت المعارك، وصارت فتنةٌ كبرىٰ في نجد، وصار الطمع في الحكم وحبِّ السلطة وإيقاد نار العداوة بين الطائفتين مع الهوىٰ والشيطان، كلُّ ذلك ألهب نار الحرب وأشعلها، والشيخ عبد اللطيف وحده هو مطفيها، فغلب كثرة الشرِّ، وضاع صوتُ الحق في صخب أبواق الباطل، فاكتفىٰ من قمع الشرِّ بمداهنته ومُلايَنَتِه.

ثمَّ ذكر الشيخ البسَّام رسالةً للشيخ عبد اللطيف في بيان هذه الفتنة ووصفها، وطول مدَّتها حيث كانت أحد عشر عامًا، عاش في اضطراب وقلق نفسي وفتن وملاحم وخوف علىٰ المسلمين وبلدانهم من الغارات والتقلُّبات.

وقد توفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام (١٢٩٣هـ)، وله من العمر يومئذٍ ثمانية وستُّون عامًا -رحمه الله تعالىٰ-.

ويقال في سبب وفاته: إن محمد بن سعود بن فيصل قَتَل فهد بن صنيتان في المسجد، فسقط رأسه في حجر الشيخ عبد اللَّطيف أو قريبًا منه، فانزعج من ذلك ومرض، وتُوفِّي من ذلك المرض رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

* * *

(١) انظر: «علماء نجد» للبسَّام (١/ ٢٠٤-٢١٤).

(٣٥) محنة العلاَّمة نذير حسين الدهلوي (ت: ١٣٢٠هـ)

هو الشيخ العلاَّمة المحدِّث نذير حسين الحسيني البهاري ثمَّ الدهلوي.

قال عنه مؤرِّخ الهند عبدُ الحيِّ الحسني: «الشيخ الإمام العالم الكبير المحدِّث العلاَّمة.. المتَّفق علىٰ جلالته ونَبالته في العلم والحديث.. انتهت إليه رئاسةُ الحديث في بلاد الهند»[(١)].

قال المحدِّث العلاَّمة الشيخ شمسُ الحقِّ العَظيم آبادي عن شيخه نذير حسين في «غاية المقصود شرح سنن أبي داود»[(٢)]: «وإنِّي صحبتُه ولازمتُه قريبًا من ثلاث سنين، واستفضتُ منه فيوضًا كثيرة، ووجدته إمامًا في التفسير والحديث والفقه، عاملًا بما فيها، حَسَن العقيدة، مُلازمًا لتدريس القرآن والحديث ليلًا ونهارًا، كثير الصلاة والتلاوة والتخشُّع والبكاء، حسن الخُلُق، كثير التودُّد، لا يحسد ولا يحقد، منكسر النفس، ولم أرَ في زمننا من أهل العلم أكثرَ عبادة منه، وكان يطيل الصلاة جدًّا، ويمدُّ ركوعها وسجودها، وكان يعِظ الناس كلَّ يوم بعد صلاة الصبح بالمسجد، ويجتمع في مجلسه خَلق كثير.

---

(١) «نزهة الخواطر» (٨/ ٥٢٣-٥٢٤).

(٢) (١/ ٥٤-٥٥).

ولو حلفت بين الركن والمقام أنِّي ما رأيتُ بعيني مثله ولا رأىٰ هو مثلَ نفسه في العلم والعبادة والزهد والصبر والكرم والخُلق والحلم، ما حنثتُ، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أرَ في معناه مثله، شيخ الإسلام، مفتي الأنام، محدِّث العصر، فقيه الدهر، رئيس الأتقياء، قدوة النجباء، الإمام الأجل الأكرم، شيخ العرب والعجم، عمدة المفسِّرين، زبدة الناسكين، ذو الكرامات الظاهرة والمقامات الفاخرة».

وقال أيضًا: «قال بعضُ أفاضل العَصر[١] وأماثل الدَّهرفي ترجمته للعقيدة الصابونية: «إنَّ من علامات أهل السنَّة أن يُحِبَّ أهلَ الحديث وناصِريهم، كالأئمَّة الستَّة، والأئمَّة الأربعة، وغيرهم من متقدِّميهم ومتأخِّريهم -وعدَّ أسماء بعضهم، وقال في آخره-: ومنهم شيخ الهند حضرة سيِّدي مولانا نَذير حسين الدِّهلَوي». فواللهِ نِعمَ ما قال هذا الفاضل الصالح، وإنِّي أقول: إن حُبَّه من علامات أهل السنَّة، وإنَّه لا يُبغضه إلَّا مبتدعٌ معاندٌ للحق»[٢]، وثناءُ العلماء عليه كثير جدًّا -رحمه الله تعالىٰ-.

ولمَّا كان علىٰ هذه العقيدة الصافية والدعوة النقيَّة المحمَّدية كاد له أهلُ البدع وحسدوه، ورموه بما هو منه براء، فرموه بالخروج، وحرَّشوا عليه الكفار من الإنجليز، وتكرَّر كيدُهم له، وآذوه وسجنوه غير مرَّةٍ.

وقال العلَّامة العظيم آبادي أيضًا: «وقد امتُحِن وأوذي مرَّات، وكم من

---

(١) [في الحاشية: المراد به: المولوي وَحيد الزمان].

(٢) (١/ ٥٧).

حاسد افترَوا عليه بالأباطيل والأكاذيب، وكم من مُعاند له تقوَّلوا عليه بما لم يَقُل به، وسيعلم الَّذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون، لكن هو لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخاف إلا الله»[1].

ويحكي تفاصيل ابتلائه المؤرِّخ عبدالحيِّ الحسني فيقول: «وكان رَحِمَهُ اللَّهُ ممَّن أوذي في ذات الله سبحانه غير مرَّة، واتَّهمه الناس بالاعتزال عن أهل السنَّة والجماعة، وبالخروج علىٰ ولاة الهند، فقبض عليه الإنجليز سنة ثمانين أو إحدىٰ وثمانين، فنقلوه إلىٰ بلدة راوليندي من أرض بنجاب، فلبث في السجن سنة كاملة، ثم أطلقوه، فعاد إلىٰ دهلي واشتغل بالدرس والإفادة، كما كان يشتغل بها من قبل ذلك.

ثم إنَّه لمَّا رحل إلىٰ الحجاز سنة ثلثمائة وألف، رموه بالاعتزال، وبأنَّه يقول بحِلَّة شحم الخنزير، وبأنَّ النكاح بالعمَّة والخالة جائز، وبأن الزكاة ليست في أموال التجارة، وهكذا رموه بما هو بريءٌ عن ذلك، فرفعوا تلك القصَّة إلىٰ والي مكة فقبض عليه الوالي، واستنطقه وحبسه يومًا وليلة، ثم أطلقه.

ثمَّ إنَّه لما عاد إلىٰ الهند بدَّعوه وكفَّروه، كما كفَّر الناسُ في الزمن السالف كبارَ العلماء من الأئمة المجتهدين، والله سبحانه مُجازيهم في ذلك، فإنَّ الشيخ كان آيةً ظاهرة، ونعمةً باهرة من الله سبحانه في التقوىٰ والدِّيانة، والزُّهد والعِلم والعَمَل، والقناعة والعفاف، والتوكل والاستغناء عن الناس، والصِّدق وقول

---

(١) «غاية المقصود» (١/ ٥٧).

الحق، والخشية من الله سبحانه، والمحبة له ولرسوله ﷺ، اتفق الناس ممَّن رزقه الله سبحانه حظًّا من علم القرآن والحديث علىٰ جلالته في ذلك.

وكان شيخنا حسين بن محسن الأنصاري اليماني يحبُّه حبًّا مُفرطًا ويُثني عليه، وقد كتب في جواب عن سؤال ورد عليه في حقِّ السيد نذير حسين المترجم له: إن الَّذي أعلمُه وأعتقده وأتحقَّقه في مولانا السيد الإمام والفرد الهمام نذير حسين الدهلوي أنَّه فردُ زمانه، ومسندُ وقته وأوانه، ومن أجلِّ علماء العصر، بل لا ثاني له في إقليم الهند في علمه وحلمه وتقواه، وأنَّه من الهادين والمرشدين إلىٰ العمل بالكتاب والسنَّة والمعلِّمين لهما، بل أجلُّ علماء هذا العصر المحقِّقين في أرض الهند أكثرُهم من تلامذته، وعقيدتُه موافقةٌ لعقيدة السلف الموافقة للكتاب والسنَّة:

وفي رؤية الشمس ما يغنيك عن زحل

فدع عنك قول الحاسد العذول، والأشِر المخذول، فإن وبال حسده راجع إليه وآيل عليه، ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1]، فمن نال من هذا الإمام الهادي إلىٰ سنَّة خير الأنام فقد باء بالخسران المبين»[2].

❋ ❋ ❋

(١) [النساء: ٥٤].

(٢) «نزهة الخواطر» (٨/ ٥٢٤-٥٢٥).

(٣٦) محنة العلاَّمة حسين بن مُحسِن الأنصاري اليماني (ت: ١٣٢٧هـ)

هو العالم العلَّامة القاضي المحدِّث المسند المِفَنُّ الأثري، من كبار علماء الحديث في وقته.

قال العلَّامة عبد الحيِّ الحسني في بيان محنته وما حصل له في قضائه حتىٰ رحل إلىٰ الهند وترك وطنه وتوفِّي فيها: «وشيخُنا حسينٌ وليَ القضاء ببلدة لُحية -بضم اللَّام- بلدة من بلاد اليمن، قريبة من الحُدَيدَة مسافة ثلاثة أيَّام أو أكثر، وتولَّىٰ بها القضاء نحو أربع سنين، ثمَّ استعفىٰ منها لواقعة وقعت عليه.

وهي أن رجلًا من نوَّاب الحُدَيدَة، ممن بيده الحلُّ والعقد من الأتراك، يقال له: أحمد باشا، طلب من تجَّار اللُّحية مُكسًا غير معيَّن علىٰ اللؤلؤ الذي يستخرجونه من البحر، من غير أن يعلم مقداره وثمنه، وأحضر العلماء علىٰ ذلك، وأراد منهم الفتوىٰ، فامتنع الشيخ، حتَّىٰ إن الباشا المذكور أحضر المدفع لتخويفه، وقال له: إن لم تكتب علىٰ هذه الفتوىٰ أرميك بهذا المدفع، حتَّىٰ يصير جسمُك أوصالًا.

فقال: افعل ما أردتَ، هذا لا يضرُّ قطعًا لا عند الله ولا عند الناس ولا في

العُرف ولا في الاصطلاح، ولا عندك من مولانا السلطان في ذلك حُكم تحتجُّ به علينا، ولو فرضنا أن عندك في ذلك حكمًا فطاعةُ السلطان إذا أمر بما أمر الله به فأمره مطاع، وإن أمر بخلاف الكتاب والسنَّة فلا طاعة له علينا، وحاشاه أن يحكم بغير كتاب أو سنَّة! وهذا الاستعفاء مقدَّم في خدمتكم من هذا المنصب.

فشدَّد عليه ثلاثةَ أيَّام، ومنعه من الأكل والشرب، وأصهره في الشمس ثلاثة أيَّام، حتىٰ تغيَّرت صورتُه، وأنكره كلُّ من عَرَفَه، فتحمَّل هذه المَشَاقَّ، ولم يرضَ أن يُحكم بخلاف الكتاب والسنَّة وأقوال الأئمَّة، وترك وطنه ومسقط رأسه»[1].

❋ ❋ ❋

(١) «نزهة الخواطر» (٨/ ١٢٣).

(٣٧) محنة العلاَّمة سليمان بن سحمان (ت:١٣٤٩هـ)

هو الإمام المحقِّق والعلَّامة المدقِّق، سيفُ الله علىٰ أعناق الملحدين، والمجاهد في سبيل الله لتوضيح هذا الدين، وردِّ أباطيل المبتدعين، حَسَّان السنَّة.

له رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكثير من المؤلَّفات في الرَّدِّ علىٰ المنحرفين، كالصواعق الشهابية، والأسنَّة الحداد، وغيرها كثير، وقصائد نفيسة في الذبِّ عن السنَّة، والانتصار للعقيدة السلفيَّة، طُبعت في ديوان مستقلٍّ.

ومن المحن الَّتي أصابته رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذكره العلَّامة سليمان بن حمدان في ترجمته، حيث قال: «أُصيب بنزول الماء في عينيه حتَّىٰ صار لا يُبصر شيئًا، وما منعه ذلك عن التصنيف، وسافر إلىٰ البحرين لمعالجة الماء الَّذي نزل في عينيه سنة (١٣٣٢هـ) بإشارة من الإمام عبد العزيز، ولم تنجح العملية، وكان في أثناء المعالجة قد رأىٰ بعض النَّجاح، ولم يشعر إلَّا وقد اشتدَّ عليه الألم، وانعكس الحال، حتَّىٰ أيس من النَّجاح، وكان يظنُّ أنَّ بعض الملحدين ممَّن ردَّ عليهم من أهل البحرين له يدٌ في ذلك، لقصد أذيَّة الشيخ»[1].

---

(١) «تراجم متأخِّري الحنابلة» (ص:١٩).

(٣٨) محنة العلامة أبي بكر بن محمد عارف خوقير (ت :١٣٤٩هـ)

ومنهم الإمام العلَّامة أبو بكر بن محمد بن عارف بن عبد القادر خوقير الحنبلي، من علماء مكَّة، وأصولُه ترجع إلىٰ الهند، وقد كانت له رحلاتٌ لها يجلب كتب السلف، وينشرها في مكَّة.

وقد هداه الله تعالىٰ إلىٰ الالتزام بمنهج السلف علىٰ يدي الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد تتلمذ عليه واستفاد منه، وعكف بعد ذلك علىٰ كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، فأخذ يدعو النَّاس إلىٰ العودة إلىٰ ما كان عليه السلف الصالح، من التوحيد وإخلاص الدين لله تعالىٰ، ونبذ البدع والخرافات.

وقد أَلَّف جملة من الرسائل المفيدة التي تدلُّ علىٰ حسن معتقد وثبات علىٰ السنة، مثل: «فصل المقال وإرشاد الضال في توسُّل الجهال»، و«التحقيق فيما ينسب إلىٰ أهل الطريق» وهو ردٌّ علىٰ المتصوِّفة، و«ما لابدَّ منه في أمور الدين» إلىٰ غير ذلك من الرسائل.

يقول الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ: «رحم الله الشيخ (أبو بكر

خوقير) حيث جاهد في الله بقلمه ولسانه حق جهاده، وأوذي في ذات الله، فما ضَعُف وما استكان، والله يحب الصابرين»[١].

ولمَّا بلغ ولاة الأمر دعوة الشيخ أبي بكر إلىٰ محاربة البدع والخرافات فخافوا علىٰ مراكزهم وأساءوا الظنَّ من نتائج دعوته، فتربَّصوا به وضيَّقوا عليه سبيل دعوته ومنعوه من التدريس، ولمَّا رأوا تمسُّكه بعقيدته وثباته في دعوته أمر الشريف الحسين بن علي بالقبض عليه وسجنه مع المجرمين في غرفة واحدة عام (١٣٣٩هـ)، حيث سُجن دون تحقيق أو حكم، وظل في السجن ثمانية عشر شهرًا، ثمَّ سُجن مرَّةً أخرىٰ نحوًا من سبعين شهرًا[٢]، يعني زهاء سبع سنوات، ولم يُفرج عنه إلَّا بعد دخول جيش الملك عبد العزيز مكَّة عام (١٣٤٣هـ)، وزالت دولة الأشراف.

يقول عمر عبد الجبَّار من معاصريه: «لقد شاهدت الشيخ أبا بكر خوقير أثناء دخولي السجن في غرفته بملابس رثَّة، وهو أشعث، طال شعرُ رأسه ولحيته؛ إذ لا يُسمح لسجين باستعمال مقصٍّ أو موسىٰ، فسلَّمت عليه، فردَّ السلام، وقال: إن الله مع الصابرين، ولي أسوة بإمامنا أحمد بن حنبل»[٣].

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا: «فاجأتنا أنباء الحجاز في الشهر الماضي بوفاة صديقنا العالم العامل المصلح الشيخ أبو بكر خوقير، تغمَّده الله تعالىٰ

---

(١) «مشاهير علماء نجد» (ص:٣٠٣).

(٢) انظر: «الأعلام» للزركلي (٢/ ٧٠).

(٣) «سير وتراجم» (ص:٢٢).

برحمته»، ثمَّ ذكر له ترجمة وممَّا ذكر فيها: «وقد امتُحن وأُوذي إيذاءً شديدًا، جزاءً له علىٰ إنكار البدع والخرافات، ولاسيَّما بدع القبوريِّين والمتصوِّفين، حُبس أوَّلًا ثمانية عشر شهرًا، ثم حُبس ثانيًا نحوًا من سبعين شهرًا في عهد الشريف حسين، وحُبس ولده الشيخ عبد القادر في سجن القبو الَّذي هو شرٌّ من سجن الحجَّاج بن يوسف، وقد سبق وصفُه في المنار[1]، فمات فيه صبرًا، وكان له

---

(١) وصفةُ سجن القبو الَّذي أشار إليه هنا هو قولُه: (القبوُ وما أدراك ما القبوُ؟! وهو سجنُ الذين ينزل عليهم الغضب الهاشمي، كالأستاذ العلَّامة الشهير أبو بكر خوقير علَّامة الحنابلة ومُفتيهم، الَّذي كان يتَّهمه بأنه وهَّابي.

وهو قبوٌ مظلمٌ تحت دار الإمارة، له منفذٌ ودرج -بلدرك- للنزول إلىٰ أسفله، وأرضه رطبة عفنة كثيرة الحشرات والغازات السامَّة، قلَّما يعيش أحدٌ فيه عدَّة أيام، وليس له نوافذ غير مدخله، فلا يدخله نور الشمس المطهِّر، ولا الهواء المنقِّي للهواء من الأبخرة السامَّة، وليس فيه مرحاض، ولا مكان للطهارة.

ومن ضروب الفظاعة المشتملة علىٰ عدَّة محرَّمات، أن زبانيته يسلكون الآحاد والعشرات من المسجونين في سلسلة واحدة من الحديد آناء الليل والنهار، فكلَّما ذهب واحد لقضاء حاجته جرَّهم كلهم معه، ويؤيد هذا ما كتبه ذلك العالم الفاضل من جزائر الهند الشرقية في مذكِّرته المذكورة آنفًا وهو: (وممَّا اختصَّت به مكَّة -صانها الله تعالىٰ دون سائر الأرض- أن العقوبات تجري فيها بمنتهىٰ الوحشية استبدادًا، ولو رأىٰ أحدُ المُنصفين السجن بمكَّة لبكىٰ الدم حنانًا، علىٰ من أوقعه نحس الطالع فيه، فإن أكثره لا سقف له يُقيم تلك الشمس المحرقة نهارًا، والبرد القارص في أيامه ليلًا، وهو محلٌّ قذر للغاية، وضيِّق لا يتَّسع لأكثر من ٧٠ شخصًا، وقد حشروا فيه نحو ألف إنسان والحكومة لا تعطيهم طعامًا، وكثيرٌ منهم يموتون جوعًا، وقلَّ أسبوعٌ لا تحدث فيه حوادث من هذا القبيل، ومن أرسل له أهله قوتًا؛ تخاطفه عليه الجياع، هذا إن سلم من حرَّاس السجن، فإن لهم حتمًا أطايبه، ومن مات يبقىٰ بين من هم هناك نحو يومين حتىٰ تفوح رائحته لشدَّة الحرارة، وكثرة التحلُّل من الجيفة =

ابنٌ صغير فمات كمدًا وقهرًا، وخرج الشيخ من سجنه لا مال له، وإنما كان يصيبه قليل من أوقاف الحرمين التي تأتي من الأستانة ومصر والشام والعراق»[١].

فما أعظمها من فتنة! وما أشده من صبر! غفر الله له، وبعد خروجه من السجن وقبل وفاته بسنة أعزه الله تعالىٰ فعينه الملك عبد العزيز مدرِّسًا بالمسجد الحرام إلىٰ أن توفي -رحمه الله تعالىٰ-.

قال رشيد رضا: «وهو لم يتعرَّف إلىٰ الملك عبد العزيز آل سعود إمام السلفيين، ولم يطلب منه مساعدة، ولا وظيفة، علىٰ كونه أكبر علماء السلفيين، وفقهاء الحنابلة في الحجاز، ولكن دلَّه عليه بعض العارفين بقدره، فجعله مدرسًا في الحرم الشريف، قبل وفاته بسنة»[٢].

=

بسببها، وبذلك يحصل الإذن من الذات المقدَّسة بالدفن، وليس لمن في السجن محلٌّ للغسل، ولا لهم بيت للراحة إلَّا محلًّا واحدًا يؤمُّه ألف شخص، ومن رحمة سيِّدنا المُنقذ أنَّه يطوق بعض رعاياه المحكوم عليهم بالسجن بأطواق من الحديد، ويعلِّق فيها من القُلل ما تنوء بحمله العصبة أولو القوة، ويُنظم الخمسة إلىٰ العشرة في سلسلة واحدة، إلىٰ ما أخاف ألَّا يصدِّقَني القارئ إن ذكرتُه من الفلكة الهاشمية والقبو، وما ضاهىٰ ذلك ممَّا لم يتفطَّن له الحجَّاج ولا نيرون ولا نمرود، ولا وسوس لهم به إبليس، فليبحث عن هذا من يحبُّ معرفة الحقيقة) اهـ. وفيه خطأ بتقدير ما يسع السجن وعدد المسجونين، والصواب ما قلناه، ومسألة القُلل لم تبلغنا عن غيره). مجلَّة المنار - المجلد [٢٥] الجزء [٤] (ص:٣٠٥) رمضان ١٣٤٢ - مايو ١٩٢٤.

(١) «مجلة المنار» (المجلد [٣١] الجزء [٣] (ص:٢٤٠) ربيع الآخر ١٣٤٩ - سبتمبر ١٩٣٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣٩) محنة العلاَّمة محمد عبد الظاهر أبو السمح (ت:١٣٧٠هـ)

وهو العلاَّمة إمامُ الحرم المكِّي الشريف ومديرُ دار الحديث سابقًا[١]، وله مؤلَّفات في الدعوة إلىٰ التوحيد نافعة، ثم اتَّصل بالشيخ محمد الأمين الشنقيطي فكان سببًا في تطهير قلبه من أدران البدع والخرافات، وأنار له سبيل العقيدة السلفية، فعكف علىٰ دراسة كتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم.

ومن أقواله كما في مقدِّمة كتابه «حياة القلوب»: «وأكبر من ذلك وأدهىٰ وأعظم فكرًا، أن كثيرًا ممَّن ينتسبون إلىٰ العلم والإسلام وبعض من يعدُّون من كبار العلماء، يحاربون بألسنتهم وأقلامهم كلَّ من ينكر علىٰ العوامِّ هذه الأعمال الشركية، ويُعادونه أشدَّ العداء، ولو استطاعوا إسكاته ما قصروا، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

وأمَّا عن محنته فيقول العلاَّمة تقيُّ الدين الهلالي المغربي: «اعلم أنَّ الدعاة إلىٰ الله يمتحنون علىٰ قدر إيمانهم وصبرهم وتجلُّدهم، ومنهم: الشيخ عبدُ الظاهر أبو السمح رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنَّه كان يدعو إلىٰ الله برمل الإسكندرية، وقد أنكر دعوته

(١) انظر ترجمته في: «سير وتراجم» (ص:٢٢٧).

جميعُ من ينتسب إلىٰ العلم في رمل الإسكندرية، وفي الإسكندرية نفسها، وكان معلِّمًا لبنات محمد باشا الديب -بالدال المهملة كما ينطق به في العامِّيَّة المصرية-، ويدعو إلىٰ الله بإلقاء الدروس في المسجد الذكور، وصلاة الجمعة لوجه الله، فمُنع من ذلك فدعاني لأن أنوب عنه، وعمَّا قليلٍ يأتيك سبب المنع».

إلىٰ أن قال: «سببُ منع أبي السمح من الصلاة والوعظ في مسجد أبي هاشم برمل الإسكندرية: ... تقدَّم أن المنتسبين إلىٰ العلم في مدينة الإسكندرية ورملها، أنكروا علىٰ الشيخ أبي السمح دعوته إلىٰ السلفية، وسمَّوها وهابيَّةً، وكادوا له كيدًا عظيمًا، واتَّهموه بتُهم هائلة في ذلك الزمان، منها أنه يقول: إنَّ العصا خيرٌ من النبيِّ ﷺ؛ لأن العصا تنفع في الدنيا، والنبيُّ ﷺ لا ينفع؛ لا يشفي مريضًا من مرضه، ولا يُغني فقيرًا من فقره، ولا يُنقذ عانيًا من سجنه، ولا يُغيث من استغاث به، وهذا عند عبَّاد القبور طعن عظيم في مقام النبوَّة، ومنها: أنَّه صلَّىٰ صلاة الجمعة في أحد المساجد، ووجد العَلَمين منتصبَين عن يمين المنبر وشماله، فألقاهما علىٰ الأرض وقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[1]، ومنها: أنه يدعو إلىٰ مذهب خامس، ولا يؤمن بالمذاهب الأربعة، ومنها: أنه أحدث فتنة في رمل الإسكندرية، ففرَّق بين الأخ وأخيه، والأب وابنه، والقريب وقريبه، وكتبوا بذلك إلىٰ محافظ الإسكندرية كتابًا، يطلبون منه أن يمنعه من هذه الدعوة الَّتي يعدُّونها من أعظم الفساد.

وفي الوقت نفسه دبَّروا له مكيدة أخرىٰ، فَدَعَوه للمناظرة في أحد المساجد

---

(١) [الأنبياء:٥٢].

وأحضروا رجلًا من العوامِّ، وقالوا له: أحضر معك عصًا، وإذا أشرنا إليك فاضربه، فلمَّا حمِيَ وطيسُ الجدل بينهم وبينه في مسألة الاستغاثة بالنبيِّ ﷺ، وألجئوه أن يقول: إنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا، وإنَّما هو بشير ونذير، أشاروا إلىٰ الرجل فضربه في المسجد.

وبعد قليل جاء أمرُ محافظ الإسكندرية بمنعه من الصلاة والوعظ وسدِّ المسجد، فأرسل إليَّ يدعوني دعوة عاجلة، فحضرت في اللَّيلة الَّتي في غدها يُسَدُّ المسجد، ففتحتُه وأخذتُ أصلِّي فيه، وأعظ الإخوان السلفيِّين، فجاءت الشرطة ليسدُّوا المسجد، فوجدوني فقالوا: من أنت؟ أنت أبو السمح؟ قلتُ: أنا تقيُّ الدين محمد بن عبد القادر الهلالي المغربي، فتوقَّفوا ورجعوا إلىٰ المحافظ وأخبروه، واختفىٰ أبو السمح، فصار لا يأتي المسجد أصلًا، فأمرهم المحافظ أن يتركوا المسجد ولا يسدُّوه.

... فاشتدَّ غيظ أعداء السلفية من المنتسبين إلىٰ العلم وأعوانه، فكتبوا في هذه المرَّة إلىٰ الملك فؤاد، وكان ذلك سنة: إحدىٰ وأربعين وثلثمائة وألف، وقالوا للملك مثلما قالوا للمحافظ قبلُ، وزادوا علىٰ ذلك أنَّه ثبت صدق اتِّهامهم لأبي السمح عند محافظ الإسكندرية، فأمر بطرده وسدِّ المسجد، فأتىٰ بمغربيٍّ له حمايةٌ فرنسية، فناب عنه في المسجد، فلم ينفذ ما أمر به المحافظ، فبعث الملك بشكواهم إلىٰ محافظ الإسكندرية نفسه، فلمَّا قرأها غضب عليهم غضبًا شديدًا؛ لأمرين:

أحدهما: أنَّهم لم يكتفوا به فتخطَّوه وكتبوا إلىٰ الملك.

والثاني: أنَّ طعنهم في عمل هذا المغربي، يفتح بابًا علىٰ الحكومة المصرية، من النزاع مع دولة تتمتَّع بالامتيازات الأجنبية، والمطَّلعون علىٰ تاريخ مصر يعرفون معنىٰ هذه الكلمة، فإن مقتضىٰ الامتيازات الأجنبية يقضي علىٰ الحكومة المصرية -وكل حكومة تنكب بمثل هذه النكبة- أن تردَّ كلَّ نزاع يقع بينها وبين أي شخص من رعايا الدولة صاحبة الامتياز إلىٰ سفارة هذه الدولة، فتحكم السفارة بدون شكٍّ علىٰ المصري بأنه هو الظالم، وتطلب من الحكومة المصرية أن تُنزل به أشدَّ العقاب، وعليه أن يتحمَّل ويصبر علىٰ ظلمين: الظلم الأول من الشخص التابع للسفارة الأجنبية، والظلم الثاني من السفارة نفسها.

ولذلك لا يحبُّ أيُّ مصري كيفما كانت منزلته أن يدخل في نزاع مع أيِّ سفارة، من أجل ذلك دعا المحافظ الموقِّعين علىٰ العريضة المرفوعة إلىٰ الملك فأُدخلوا عليه واحدًا بعد واحد، وأخذ يسألهم، فقال للأول: هذا توقيعك؟ فقال: نعم، قال: وقِّع مرَّة أخرىٰ فوقَّع، ثمَّ أُخرج إلىٰ مكان لا يرىٰ فيه أحدًا من أصحابه، وهكذا فعل بالثاني والثالث إلىٰ آخرهم، ثم جمعهم و عَبَس وبَسَر عليهم، وقال لهم: كتبتُم إليَّ تزعمون أنَّ الشيخ عبد الظاهر أبا السمح وهَّابي، وأنه فعل كيت وكيت، فصدَّقتكم، وأمرت بمنعه من الصلاة والوعظ، ولم يكفِكم ذلك حتَّىٰ تخطَّيتموني، وارتقيتم مرتقًا صعبًا، فكتبتُم إلىٰ الملك تعرضون مزاعمكم عليه، وقلتم في عريضتكم: إنكم تخافون أن تحدث فتنة في رمل الإسكندرية، تُسفك فيها الدماء، فللَّه درُّكم من حَفَظةٍ ساهرين علىٰ الأمن، فهل المحافظة علىٰ الأمن من اختصاصكم، ومن وكَّل إليكم ذلك؟

بعضُكم إمام مسجد، وبعضكم مأذون في المحكمة، وبعضكم مدرِّس واعظ، أو خطيب، فكيف ارتقيتم حتَّىٰ صِرتُم تحافظون علىٰ الأمن العام، وهذا شُغلي أنا وشُغل أعواني من الشُّرط والحرس، أفأردتم أن تساعدوني؟!

أنتم أصحاب الفتنة ودعاتها المُوقدون لنارها، ولم يبقَ عندي شكٌّ في أنَّكم مُفسدون، قلتم: إنَّ المصري وهَّابيٌّ، فهل المغربيُّ أيضًا وهَّابيٌّ؟

فقالوا: إي والله يا سعادة المحافظ، هذا وهَّابيٌّ «زيُّه تمام»، فقال: اسمعوا ما أقوله لكم: أنتم تستحقُّون العقاب، ولكنِّي أعفو عنكم في هذه المرَّة، وكلُّ فتنة تقع في المستقبل في الإسكندرية أو رملها من هذا القبيل فأنتم المسئولون عنها، اغربوا عنِّي لا نَعِم عوفُكم، ولا أَمِن خَوفُكم!

فانطلقوا يتعثَّرون في أذيال الخيبة، وأقبل بعضُهم علىٰ بعض يتلاومون، وكفىٰ الله المؤمنين القتال.

ولمَّا سَمِع بذلك الشيخ أبو السمح سار يحضر صلاة الجمعة، ويصلِّي معنا مأمومًا، وبعد انقضاء شهرين علىٰ هذه الحادثة، أمن أبو السمح، وتجرَّأ فصلَّىٰ بنا الجمعة إمامًا، فاستأذنته أنا في إتمام السياحة في البلاد المصرية، ورجعت إلىٰ القاهرة»[1].

* * *

(١) «الدعوة إلىٰ الله في أقطار مختلفة» (ص:٨-١٢).

فهرس الموضوعات

تقديم الشيخ العلامة ربيع بن هادي عمير المدخلي ٣
المقدمة ٥
الفصل الأول: الابتلاء سنَّةٌ من الله علىٰ عباده ١٥
الفصل الثاني: فضل الصبر علىٰ البلاء وأسبابه ٣٨
الأسباب المعينة علىٰ الصبر ٥٠
الفصل الثالث: ذمُّ التلوُّن وعدم الثَّبات ٦١
الفصل الرابع: نماذج من محن الأئمَّة وصبرهم علىٰ السنَّة ٧٨
(١) محنة الإمام مالك بن أنس (ت:١٧٩هـ) ٨٢
(٢) محنة الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت:٢٠٤هـ) ٨٥
(٣) محنة الإمام محمد بن نوح (ت:٢١٨هـ) ٩٠
(٤) محنة الإمام أبي مسهر (ت:٢١٨هـ) ٩٢
(٥) محنة الإمام أبي نعيم (ت:٢١٨ أو ٢١٩هـ) ٩٥

(٦) محنة الإمام عَفَّان بن مسلم (ت: بعد ٢١٩هـ) ٩٨
(٧) محنة الإمام نُعيم بن حمَّاد الخُزاعي (ت:٢٢٨هـ) ١٠٠
(٨) محنة الإمام أحمد بن نصر الخزاعي (ت:٢٣١هـ) ١٠٢
(٩) محنة الإمام أبي يعقوب يوسف البُويطي (ت:٢٣١هـ) ١٠٦
(١٠) محنة الإمام سحنون (ت:٢٤٠هـ) ١٠٨
(١١) محنة إمام أهل السنَّة والجماعة أحمد بن حنبل (ت:٢٤١هـ) ١١٣
(١٢) محنة عبدالله بن محمد بن إسحاق الجزري الأذرمي ١٣٨
(١٣) محنة الإمام بقيِّ بن مخلد الأندلسي (ت:٢٧٣هـ) ١٤٣
(١٤) محنة الإمام الحسن بن علي البربهاري (ت:٣٢٩هـ) ١٤٥
(١٥) محنة الإمام القدوة أبي بكر بن النابلسي (ت:٣٦٣هـ) ١٥١
(١٦) محنة الإمام حكم بن محمد المقرئ (ت:٣٧٠هـ) ١٥٤
(١٧) محنة الإمام أبي عمر أحمد بن محمد الطَّلمنكي (ت:٤٢٩ هـ) ١٥٥
(١٨) محنة الإمام أبي إسماعيل الأنصاري (ت:٤٨١ هـ) ١٥٧
(١٩) محنة الإمام عبدالغني المقدسي (٦٠٠هـ) ١٦٢
(٢٠) محنة عبد اللطيف بن علي المحدِّث المعدل (ت:٦٤٧هـ) ١٦٨
(٢١) محنة شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) ١٧٠

(٢٢) محنة الحافظ أبي الحجَّاج يوسف المزِّي (ت:٧٤٢هـ) ١٧٩

(٢٣) محنة العلاَّمة شمس الدين ابن قيِّم الجوزية (ت:٧٥١هـ) ١٨١

(٢٤) محنة الإمام ابن أبي العز الدمشقي (ت:٧٩٢هـ) ١٨٣

(٢٥، ٢٦) محنة الإمام جمال الدين عبد الله بن الشرائحي (ت:٨٢٠هـ)،
وتلميذه: إبراهيم الملكاوي (ت:٨٠٤هـ) ١٨٧

(٢٧) محنة الإمام برهان الدين البقاعي (ت:٨٨٥هـ) ١٨٩

(٢٨) محنة العلاَّمة صالح المقبلي (ت:١١٠٨هـ) ١٩٤

(٢٩) محنة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (ت:١٢٠٦هـ) ١٩٥

(٣٠، ٣١) محنة الشيخ عبدالله ابن الشيخ محمد بن عبدالوهاب (ت:١٢٤٤هـ)،
ومقتل ابنه الشيخ سليمان (ت:١٢٣٣هـ) ٢٠٠

(٣٢) محنة العلامة محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠هـ).....٢٠٤

(٣٣، ٣٤) محنة العلاَّمة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ت:١٢٨٥هـ)
وابنه العلاَّمة عبد اللطيف (ت:١٢٩٣هـ) ٢٠٧

(٣٥) محنة العلاَّمة نذير حسين الدهلوي (ت:١٣٢٠هـ).....٢١٣

(٣٦) محنة العلاَّمة حسين بن مُحسِن الأنصاري اليماني (ت:١٣٢٧هـ) ...٢١٧

(٣٧) محنة العلاَّمة سليمان بن سحمان (ت:١٣٤٩هـ).....٢١٩

(٣٨) محنة العلامة أبي بكر بن محمد عارف خوقير (ت:١٣٤٩هـ) ٢٢٠

(٣٩) محنة العلاَّمة محمد عبد الظاهر أبو السمح (ت:١٣٧٠هـ) ٢٢٤

فهرس الموضوعات ٢٢٩

* * *